جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي-
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلـــــــــــوم الإنسانية

العلاقات الزيانية المرينية
في عهد أبي حمو موسى الثاني

مذكرة مكملة لمتطلبات الحصول على شهادة الماستر في تاريخ المغرب الوسيط

إعداد الطالبين :

✍ عوايشية صلاح الدين
✍ حماتي عبد القادر

الأستاذ المشرف:

✍أ.د. التجاني مياطة

الموسم الجامعي : 1441- 1442هـ / 2019- 2020 م

شكر و تقدير

أشكر الله العلي القدير الذي وفقنا إلى إنجاز هذا العمل راجينا منه سبحانه وتعالى أن يجعله نافعا في الدنيا ويجازينا ثوابه في الآخرة .

كما نتوجه بالشكر الجزيل إلى أستاذنا الفاضل مياطة الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث ، وكان لنا عونا و مرجعا ، ولم يبخل علينا بتوجيهاته القيمة .

كذلك نتقدم بالشكر إلى كل من ساعدنا ووقف إلى جانبنا من قريب أو بعيد أساتذتنا الكرام و زملائنا الطلبة وعمال مكتبة قسم التاريخ بجامعة الشهيد حمى لخضر على التسهيلات التي منحونا إياها ليخرج هذا البحث إلى النور .

أشكر أمي قرة عيني التي كانت لي السند في بحثي هاذا وكانت قوتي في الكثير من أوقات ضعفي

أشكر أبي الذي صاحب الفضل الكبير علي

كذلك أشكر عائلتي الكريمة داعيا لهم بطول العمر إن شاء الله

أشكر كذلك أصدقاء العمل الذين أعطوني الدعم اللازم في قمة ضعفي

أشكر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم و أتوب أليه وصلى الله على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد بن عبد الله وسلم تسليما كثيرا

المقدمة

بعد ما دب الضعف في كامل أركان الدولة الموحدية و ذلك بسبب العديد من الظروف و العوامل الداخلية و الخارجية وبذلك بدأت حركة الانفصال باستقلال بني حفص بتونس و بني عبد الواد بتلمسان ، و بني مرين بالمغرب الأقصى ، و قد تميزت هذه فترة النصف الأول للقرن السابع الهجري بالتقلب و الإضطراب نتيجة اشتداد التنافس و المؤمرات و التحالفات و الصراعات بين قبائل المغرب من جهة وبينها وبين الموحدين من جهة أخرى مما عجل بانقسام هذه الأخيرة إلى ثلاث دويلات متنافسة فيما بينها وكل واحدة تعتبر نفسها الوارث الشرعي و الحقيقي لملك الموحدين ، فكانت كل دويلة تسعى للقضاء على الأخرى طمعا في السيطرة وبسط النفوذ على كامل المغرب الإسلامي ، غير أن ما عرقل غاية هذه الدويلات هو حال القبائل و العشائر العربية في شاكلة بني توجين وبني منديل ومغراوة .... التي أصبحت متقلبة في مواقفها ، فهي تنحاز حسبما تمليه عليها مصالحها ، فتارة مع بني مرين و أخرى مع بني عبد الواد

ولعل تموقع بني عبد الواد في الوسط جعلها محصورة بين شقي رحى ، لذلك توالت عليها الحروب من كل الجهات ، فكانت حدودها بين مد وجزر حتى آخر أيامها خاصتا من الجهة الغربية فقد شهدت منافسة شديدة من سلاطين بني مرين نتيجة رفضهم لي مجاورت الزيانيين لهم و سعيا منهم لإعادة بعث دولة جديدة توازي الدولة الموحدية قبل أن تسقط ساعيتا بذلك في العمل على توحيد المغرب الإسلامي ككل إلا أن ذلك لم يفلح في الكثير من المرات نتيجة إصطدامهم بسلاطين أشداء من الدولة الزيانية تكنوا من إنارة ضوء الإمارة العبد الوادية مثل يغمراسن مؤسس الدولة وكذا أبي حمو موسى الأول وصولا إلى أبي حمو موسى الثاني و غيرهم ممن عملوا على مجابهة الخطر المريني و الوقوف ضده والإنتصار عليه وكذا تحسن الضروف الإجتماعية و الإقتصادية لشعبهم ، حتى أنه في الكثير من المرات كان السلطان أبي حمو موسى الثاني لما تقرب أن تكون الحرب يتفاداها حيث يعمل على الخروج عن دار حكمه رفقة حاشيته وأهله وجيشه والسماح للغزات المرنيين من دخول تلمسان دون أن تراق قطرة دم واحدة ، حيث كان يفر إلى الفيافي ويحتمي بأحلافه من القبائل العربية و المعقلية ، منتضرا حتى تضعف شوكت المستعمر ويضعف جيشه أو يعدل عن الغزو راحلا عن تلمسان ويعيد الدخول لدار ملكه حيث كان ذلك ذكاء منه لعدم إستطاعته مجابهة الغزو المريني كونهم ذو قوة و عددا .

، ضف إلى ذلك أهمية العاصمة تلمسان ، باعتبارها ملتقى لعدة طرقات و شبكات تجارية بين البحر و الصحراء من جهة وبين المغربين الأدنى و الأقصى من جهة أخرى ، لذلك كانت محل أطماع جاراتها في التوسع ، وكذا غارات النصارى في فترة لاحقة ، لكن و على الرغم من هذا الصراع و التنافس اللامحدود إلا أن ذلك لم يمنع من وجود علاقات سياسية و ثقافية وحتى تجارية بينها وبين جاراتها ، أما عن أهمية الموضوع وسبب اختياري له هو اهتمامي البالغ بتاريخ المغرب لما عرفه هذا الجزء من التطورات السياسية و الإجتماعية ، وثقافية و اقتصادية هامة ، خاصة و أنه قامت على أرضه العديد من الدويلات التي اختلفت توجهاتها و مذاهبها و سياساتها و أهدافها ، وماشدني أكثر هو ذلك التعايش الذي تم بين هذه الدويلات على اختلافها ولفترات طويلة ، و الذي يؤكد بالضرورة وجود علاقات قائمة بينهما ، شملت مختلف المجالات و الميادين ، غير أن ذلك لا ينفي حتما وجود صراع بين هذه الدويلات المتمثل في دولة بني عبد الواد ودولة بنو مرين ومنافسة قوية رغبة من كل واحدة فرض سيطرتها على أرض المغرب وبسط النفوذ وتحقيق الريادة ، ولعل ما هو واضح أيضا ذلك التحامل اللامحدود على الدولة الزيانية من طرف الولة المرينية أبناء عمومتهم الأمر الذي جعل علاقتهما بين المد و لجزر بين الصلح و الحرب بعدما تمكنت الجيوش المرينية من اكتساح تلمسان و حصارها لفترات طويلة رغم ما كان يجمعهما من روابط مشتركة ، أما عن إشكالية الموضوع فتتبادر لنا الكثير من التساؤلات و الإشكاليات التي تطرح فيما يخص علاقة الزيانيين بالمرنيين . خاصتا في عهد أبي حمو موسى الثاني فما الذي ميز تلك العلاقات ؟ وماسبب ذلك

الصراع السياسي الذي ظل قائما بينهما وماخلفيته ؟ وماهي النتائج التي ترنبت عنه ؟ هل كان الصراع هو السمة الوحيدة بين الدولتين في عهد أبي حمو موسى الثاني ؟ ماهي العوامل الثقافية والإقتصادية التي كانت سائدة ؟ أو بتعبير أخر هل كان للعلاقة السياسية تأثير على باقي المجالات الحيوية خاصة على الروابط الثقافية بين الإقليمين ؟ وهل كان للعلماء و الرحلات العلمية دور في تزكية هذه الروابط وتحقيق التواصل الثقافي ؟ وهل كانت هناك علاقة إقتصادية جمعت الطرفين ؟

و للإجابة عن هذه التساؤلات قمت بتقسيم هذه الدراسة إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول ، مهدت للموضوع بلمحة وجيزة عن أوضاع المغرب الإسلامي قبيل سقوط الموحدين وتأسيس الدولة عن يد يغمراسن و كذا توالي الحكم على العديد من السلاطين حتى وصوله إلى إبي حمو موسى الثاني ، وتناولت في الفصل الأول العلاقة السياسية و العسكرية بين الدولتين الزيانية و المرينية يحوي ثلاثة مباحث الأول يتكلم عن أبي حمو موسى الثاني المطلب الأول : أبي حمو حياته ونسبه ، المطلب الثاني الخبر عن إجفاله إلى إفريقية ، المطلب الثالث : بناءه الولاءات وفتحه تلمسان . المبحث الثاني : بنو زيان بين الحرب و الصلح ، المطلب الأول : رد فعل بنو مرين والوزير المستبد الفدودي المطلب الثاني : المواجهة بين أبي حمو و أبو سالم المريني ، المطلب الثالث : إستيلاء السلطان عبد العزيز مرة أخرى على تلمسان ، المطلب الرابع : المواجهة مع السلطان أبي العباس . المبحث الثالث : عدوان الأقارب على أبي حمو المطلب الأول : محاولت إستيلاء أبي تاشفين على الحكم . المطلب الثاني : الدور على أبو زيان للمطالبة بالحكم . المطلب الثالث : انقلاب صهره أبو تاشفين واستبداده بالحكم الفصل الثاني : العلاقة الثقافية بين الدولة الزيانية والمرينية ، المبحث الأول : الحياة الثقافية في الدولة الزيانية ، المطلب الأول : المؤسسات الثقافية و التعليمية الزيانية ، المطلب الثاني أصناف العلوم النقلية والعقلية ، المبحث الثاني : الحياة الثقافية في الدولة المرينية ، المطلب الأول : المؤسسات الثقافية و التعليمية ، المطلب الثاني : أصناف العلوم النقلية والعقلية ، المبحث الثالث : العلاقة الثقافية بين الدولتين : المطلب الأول : الرحلات العلمية ودورها في توطيد العلاقة الثقافية ، المطلب الثاني : حركة الجدل و المناضرات العلمية ، المطلب الثالث : الأثار المرينية في تلمسان ودورها في توطيد لعلاقة الثقافية ، أما عن الفصل الثالث : العلاقة الإقتصادية بين الدولتين المبحث الأول : المقومات الإقتصادية للدولة الزيانية ، المطلب الأول : الزراعة ، المطلب الثاني : الصناعة ، المطلب الثالث : التجارة ، المطلب الرابع : دور الموانئ في إنعاش الإقتصاد ، المبحث الثاني : المقومات الإقتصادية للدولة المرينية ، المطلب الأول : المقومات الطبيعية ، المطلب الثاني : المقومات البشرية ، المطلب الثالث : الطرق التجارية وأهم الموانئ البحرية .

أما عن المنهج المتبع فقد إعتمدت على المنهج التاريخي ، الوصفي ، التحليلي و الإستنتاجي الذي يعتمد على الدراسة و التحليل و المقارنة بين المصادر خاصة و أن للدولتين نفس المقومات و الخصائص ، وتجمعهما الكثير من المراحل التاريخية المشتركة ، ولعل ذلك لا يتم إلا بالوقوف عند بعض المصادر القديمة المتعلقة بالموضوع من كتب التاريخ و الجغرافية و الرحلة و الطبقات و التراجم وغيرها ، مقتبسين منها المادة اللازمة ، إلى جانب الدراسات الحديثة العربية والأجنبية التي حاول مؤلفوها إبراز تاريخ الدولتين وعلاقاتهما ببعضهما البعض .

أما عن الصعوبات فإن الدراسات من هذا النوع المتعلقة بالعلاقة السياسية بين الدولتين الزيانية و المرينية من المهمات الصعبة لحساسية الموضوع من جهة وقلة المصادر من جهة أخرى ، والمتوفر منها فيه نوع من التحيز و اللاموضوعية يحتاج إلى حرص كبير و الكثير من الدقة في استقصاء الحقيقة التاريخية ، إضافة إلى تضارب الأراء حول بعض الأحداث التاريخية ، أما عن المصادر المعتمدة عليها ، فقد اعتمدت على الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس : لصاحبه علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبيزرع الفاسي ، ويتناول في هذا الكتاب تاريخ المغرب الأقصى

وكذلك كتاب بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد لأبي زكرياء يحي بن خلدون حوالي (743هـ / 1333م – 780هـ / 1378م) نشره ألفريد بل في جزأين بالجزائر بين (190'–1911م) حيث حقق الجزء الأول الدكتور عبد الحميد حاجيات بالجزائر سنة 1400هـ / 1980م . كذلك روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر النصري الأمير الغرناطي ، الكاتب الشاعر المتوفي سنة 807هـ / 1404م : يتناول هذا الكتاب تاريخ بني مرين بشكل خاص ، فهو بمثابة سجل يتضمن أسماء ملوكهم و ألقابهم و أنسابهم وتاريخ ميلادهم ووفاتهم ...

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و العجم البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لصاحبه عبد الرحمن بن خلدون ، ويتضمن هذا الكتاب معلومات هامة عن تاريخ دويلات المغرب الإسلامي بما فيها دولة بني عبد الواد ، وبني مرين وما كان قائما بينهما من علاقات ، وقد أعتمدت بشكل خاص على جزئيه السادس و السابع لما فيهما من مادة تاريخية متعلقة بموضوع البحث . كذلك الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول : هو كتاب أرخ للدولة المرينية وعلاقتها ببني عبد الواد ، حيث جاء مشحونا بالأخبار السياسية و العلمية والإقتصادية . كتاب تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من كتاب نظم الدر والعقيانفي بيان شرف بني زيان لصاحبه أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني ، كذلك كتاب البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني ، وقد نشره محمد بن أبي شنب ، ترجم ابن مريم في البستان لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولد بتلمسان أو عاشوا بها وقد رتبهم حسب الحروف الهجائية ، وكتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج : لصاحبه التنبكتي بالإضافة إلى مجموعة هامة من المصادر التاريخية الأخرى ككتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي الناصري ، وكتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق الخطيب ،و كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ورحلة العبدري ، و القلصادي وعنوان الدراية للغبريني ، ونفح الطيب للمقري ، وغيرها من المصادر التي لا يسعى ذكرها كاملة ، يضاف إليها مجموعة من المراجع العربية و الأجنبية و المجلات التي تناولت تاريخ الدولتين ، والتي حاولت قدر الإمكان استقاء مادة البحث منها و توظيفها بالشكل الذي يعمم الفائدة ،

مدخل

ما من شك أنه من الضروري قبل الحديث عن تاريخ الدولتين الزيانية و المرينية و الغوص في التفاصيل العلاقات السياسية و الثقافية في عهد أبي حمو موسى الثاني ، إلقاء الضوء على الظروف التي ساعدت على ظهور هاتين الدولتين ، و الوقوف عند العوامل التي أدت إلى انهيار الدولة الموحدية و اضمحلالها ، و هي الدولة التي استطاعة بفضل حنكة و قوة أمرائها وخلفائها أن تحقق الوحدة السياسية للمغرب الإسلامي و الأندلس تحت لوائها فترة زمنية لا يستهان بها ، لا بل استطاعت أن تحافظ على استمرارية وحدة ترابها الممتد من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن البحر المتوسط و الأندلس شمالا إلى الصحراء جنوبا ، تحت نظام إداري مركزي موحدي (1) ، وبذلك أصبحت دولة الموحدين قوة سياسية فاعلة و قوة عسكرية ضاربة ، في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي يعاني استمرار الحروب الصليبية ، و الدمار المغولي و الاسترداد الإسباني(2) فكان الموحدون في ذلك الوقت حماة دار السلام في بلاد المغرب و الأندلس ، حيث ساهموا بشكل كبير في رد العدوان الصليبي على بيت المقدس إلى جانب إخوانهم المسلمين في المشرق . بجيوشهم البرية و أساطيلهم البحرية

إلا أن الأوضاع تغيرت مع مطلع القرن السابع الهجري ، الثالث عشر ميلادي إذ بدأت عوامل الضعف و التفكك تنهش كيان الموحدين ، لاسيما بعد معركة العقاب ، سنة 609هـ / 1212م (3)، و التي أدخلت المغرب الإسلامي و الأندلس في حالة من الفوضى و الإضطربات السياسية و العسكرية ، وذلك بعد وحدته التي تحققت على يد ابن تومرت و عبد المؤمن بن علي مؤسس هذه الدولة ومن بعده خلفاؤه الأكفاء . وزاد من التفاقم الأوضاع و تأزمها ، وفات محمد الناصر فجأة في ظروف غامضة في السنة الموالية للهزيمة ، بعد عودته من الأندلس ، وتعيين إبنه المستنصر(4) مكانه وهو لا يزال شابا في السادسة عشر من العمر ، ليست له دراية بأمور الدولة وسياسة الملك ، فاستبد بالأمر دونه أشياخ الموحدين الذين لم يكونوا كلهم على اتفاق ، كلمتهم متفرقة و أهدافهم متباينة ، فاستفحل الصراع على السلطة و اعتلاء كرسي العرش بين أفراد الأسرة الموحدية و شيوخها و الطامحين إلى النفوذ فيها ، فاختلفت كلمتهم وتفرقو إلى فرق متناحرة ، فتصدعت بذلك وحدة القبائل الموحدية في دوامة من المعارك المستمرة ، وفي فترة من الانحلال و الاضمحلال التدريجي الذي شتت قوى الدولة ومواردها و التي أدت حتما إلى انهيارها و سقوطها(5) ، ثم تلت هذه الصراعات الداخلية أزمة أخرى ، ساهمت بالتعجيل في سقوط الموحدين ، و هي الثورة التي قام بها بنو غانية (°) ، فضلا عن الحروب المتكررة التي كانت تنشب بين بني مرين و الموحدين وخروج ولاة النواحي عنها ، واستبدادهم بالحكم ، وفي هذه الآونة بادرت بعض القوى السياسية في الدولة ، وبعض الزعامات القبلية إلى استغلال هذه الأوضاع المتردية ، للانفصال و تحقيق كيان سياسي مستقل فراحت تخطط إلى ذلك سرا و جهرا ، إلى أن أعلنت العصيان ، فكان أول من بادر إليه أبو زكرياء الحفصي (625هـ - 647هـ / 1227 -1249م) مكونا الإمارة الحفصية (625-982هـ/ 1227- 1574م) ومنفردا بحكم ولاية إفريقية متخذا من تونس عاصمة له(1)

(1) أخبارالمهدي أبن تومرت ، تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات ، الشركو الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1974.

(2) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سعيد العرياني ومحمد العلمي ، القاهرة ، 1949،

(3) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، 1972، ص 158-160.

(4) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج6 ، دار العلم بيروت ، 1968، ص 524.

(5) ابن الخطيب لسان الدين ، كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، دار المعرفة للنشر ،القاهرة ، مصر ، ص 328.

(°) بنو غانية : ينتمون إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية ، وقد عرفوا بهذا الأسم نسبة إلى أمهم غانية ، كانوا ولاة على دانية ، فامتلكوا جزر الباليار شرق الأندلس ، واستقلوا بها و أعلنوا ولائهم للدولة العباسيين ، ثم ثاروا على الموحدين محاولين إحياء الدولة المرابطية المنقرضة

(6) المصدر السابق العبر لعبد الرحمن ابن خلدون ، ج6، ص 593-595.

، ففتحت هذه الخطوة الباب على مصراعيه لخطوات أخرى مماثلة ، كانت فكرة الانفصال و الاستقلال تجيش في صدور بعض زعماء القبائل و عمال الدولة ، فجاءت الخطوة الثانية للاستقلال عن الدولة على يد يغمراسن بن زيان زعيم بني عبد الواد (633-681هـ) 1233-1282م) الذين كانوا يستوطنون نواحي تلمسان ، حيث مكنتهم الظروف السياسية و الصراع المستمر من الانفراد بالسلطة في تلمسان بمباركة الموحدين أنفسهم ورضاهم ، ثم انفرادهم بحكم المغرب الأوسط و الاستقلال عنهم سنة 633هـ / 1233، مكونين بذلك الإمارة الزيانية (633-962هـ / 1233-1554) ، متخذين من تلمسان عاصمة لهم (1) . وسار على نهجهم بنو مرين في المغرب الأقصى ، حيث كانوا من القبائل الزناتية التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين فقاموا بعدة محاولات للانفصال و تكوين إمارة لهم مستغلين في ذلك ما طرأ على جسم الموحدين من ضعف و اختلال فجرت بينهما العديد من المعارك إلى أن تحقق هدفهم في قيام دولة لهم وذلك سنة 668هـ / 1269م (2) فكانت إيذانا بسقوط دولة الموحدين ، و قيام كيانات سياسية جديدة أعادت منطقة المغرب في حياتها السياسية إلى جو الصراع القبلي الذي كان سائدا قبل عصر المرابطين وكانت عواقبه وخيمة على الأندلس ، وعلى الرغم من أن هذه القبائل تكتلت في تشكيلات سياسية إلا أن الصراع بينهما تفاقم ، نتيجة لذلك العداء الدائم و الحروب المستمرة بين المرينيين و الزيانيين ، من أجل بسط النفوذ على كامل المغرب الأوسط ، و تزعم زناتة ، فراحوا يستغلون كل الظروف و المناسبات ، يستعملون مختلف الطرق و الوسائل لتحقيق ذلك ، فظلت العلاقة بينهما متوترة على طول تاريخ الدولتين تتخللها بعض فترات السلم و الهدنة على حسب اختلاف شخصيات السلاطين و سياستهم و أهدافهم و وسائل الوصول إليها . لكن و على الرغم من هذا الصراع و التنافس المستمر السياسي و العسكري ، إلا أنه لم يمنع من وجود علاقة ثقافية ، وتواصل فكري و علمي بين الإقليمين .

وعليه لفهم هذه العلاقات بين الدولتين يجب أن نعرج على بعض النقاط المهمة كأنسب الدولتين و موطنهم فنبتدئ بالدولة الزيانية وهم بنو عبد الواد(3) ، فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناته البربرية (4) التي كانت قبائلها تعيش حياة البداوة و الترحيل تجوب صحراء المغرب الأوسط بحثا عن المراعي الخصبة لمواشيها ، تمتد مواطنهم من تاهرت إلى نهر ملوية ، وهم ينتمون إلى فرع بني واسين(5) إحدى أهم بطون زناته ، وتضم هذه الطبقة بطون عديدة منها بنو مرين وهم الأكثر عددا و الأقوى سلطة ، ثم يليهم بنو عبد الواد في المرتبة الثانية من حيث المكانة و القوة ثم يليهم بنو توجين .

وينقسم بنو عبد الواد إلى عدة بطون ذكر منها ابن خلدون ستة هي : بنو ياتكين و بنو أرلو و بنو رهطف ، ونصوحة ، وبنو تومرت ، وبنو القاسم(6). وقد كان بنو واسين ومن تفرع عنهم يستوطنون الأراضي الممتدة مابين نهر ملوية و أرض الزاب الواقعة جنوب الأوراس ، فامتنعت عنهم أراضي المغربين التي كانت تحت سلطة قبائل زناته كابني ومانو ، وبني يلومي بالمغرب الأوسط وبني يفرن و مغراوة بتلمسان، فكانت هذه القبائل تقدم المساعدات لبني واسين من أسلحة و مال وحبوب مقابل مساعدتهم في حال الحروب أو المخاطر خاصة مع صنهاجة (7)

---

(1) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1 ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر 1980، ص 199، 200.

(2) ابن الأحمر ، روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، مطبوعات القصر الملكي ، الرباط 1962،

(3)المصدر السابق ، يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 344.

(4) المصدر السابق ، عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص4-5.

(5) هم ابناء واسين ابن يصليتن إخوة مغراوة وبني يفرن ، وهذا الفرع من ولد بادين بن محمد إخوة بن توجين ومصاب ، وزردال ، وبن راشد ، وبني مرين ، انظر ، عبد الرجمن ابن خلدون ، المصدر السابق، العبر ، ج7، ص 114-147.

(6) االمصدر نفسه عبد الرحمن ، العبر ، ج7، ص 72،

(7) نفسه ص148--149. 120

لكن ومع الزحف الهلالي إلى الشمال الإفريقي قضوا على صنهاجة بالقيروان ثم زحفوا إلى المغرب الأوسط ، فدافع الحماديون عن بلادهم بمساعدة بني يعلي ملوك تلمسان من مغراوة ، فجمع هؤلاء كل من كان من أحلافهم من بني واسين و هم من بني مرين و بني عبد الواد وبني توجين ، وبني راشد ، فهموا إلى محاربة الهلاليين بزعامة أبي سعدي خليفة من بني يفرن غير أنهم هزموا فكان لزاما عليهم الانسحاب من المغرب الأوسط بعد طردهم منه (1) ، فاضطر بنو مرين و بنو عبد الواد و بني توجين من بني واسين إلى العودة إلى موطنهم بصحراء المغرب الأوسط ، من جبل راشد حتى ملوية وفقيق ثم إلى سجلماسة فاستجاروا بملوك هذه الضواحي من بني يلومي (2) و بني وامانو (3)، الذين قسموا تلك المنطقة الصحراوية بينهم (4) ، فأخذ بنو مرين الناحية الغربية بتكورارين و دبدو إلى سجلماسة (5) ، أما بنو بادين فكانت لهم الناحية الشرقية (شرق المغرب الأوسط) مابين فقيق ومديونة إلى جبل راشد و مصاب ، فكانت بينهم وبين بني مرين العديد من الفتن و المناوشات بحكم جوارهم واتصالهم في الموطن ، وضم بنو بادين عدة بطون هم :

بنو توجين بنو زردال وبنو مصاب ، وبنو راشد (6)، وبنو عبد الواد ، وينقسم هذا الأخير إلى ست بطون حسب ابن خلدون ، وهي بنو ياتكين ، وبنو أولو ، وبنو رهطف ، ونصوحة وبنو تومرت ، وبنو القاسم (7) . ويربط بعض المؤرخين(8) نسبهم بالأدارسة العلويين وبالتالي ينفون نسبهم البربري غير أن عبد الرحمن بن خلدون ينكر هذا النسب ويعتبره زعما لا سند له ، إذ يذكر في قوله "... وحتى يغمراسن عندما أبلغ الخبر لم يستنفعه وكان جوابه : إن كان صحيحا فينفعنا عند الله و أما الدنيا فنلناها بسيوفنا ". ولما أخلص بنو عبد الواد الطاعة للموحدين أقطعوهم ضواحي من المغرب الأوسط (بلاد يلومي ووامانو) و بالتحديد فيما بين البطحاء و ملوية ريفه وصحراؤه . ويذكر يحي بن خلدون رواية مفادها أن عبد المؤمن بن علي أستنجد بشيخ قبيل بني عبد الواد أبو محمد عبد الحق لرد أمواله و غنائمه التي اغتصبها بنو مرين ، فلبى هذا الأخير نداءه واسترجع غنائمه فاستحسن عبد المؤمن صنيعهم فأقطعهم تلك الربوع (9) مؤازرتهم له ، أما بنو مرين فبعد دخول بني عبد الواد المغرب الأوسط سيطروا على تلك الصحراء فتوسعوا فيها ، ومن ثمة أصبح لبني مرين وبني عبد الواد من بطون واسين كيانان سياسيا بعدما أعادوا مكانة زناته و أعطوها طابع الدولة ذات السلطان في الأرض لتظهر بذلك منافسة إخوانهم من مغراوة (10) و بني توجين(11) الذين حاولوا مقاسمتهم الملك و السلطة ، غير أن بني مرين وبني عبد الواد قويت شوكتهم بعدما قضوا تدريجيا على هؤلاء المنافسين .

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون المصدر السابق ، العبر ، ج7، ص 128.

(2) بني يلومي : استقروا بضفة الغربية لوادي مينا و البطحاء وسيق وسيرات وجبل هوارة و جبل بني راشد ، المصدر السابق ، عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، ص117.

(3) بني وامانو : ينتسبون إلى زناتة وكانت مواطنهم شرق وادي مينا بمنداس أسفل الشلف و يقطن بعضهم قصور توات ، مصدر نفسه ص 204

(4) محمد مكيوي ، الأوضاع السياسية و الثقافية للدولة العبد الوادية منذ قيامه حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول (633-737)هـ / (1236-1337)م ، رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية تلمسان ، 2000، 2001.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون ، المصدر السابق ، العبر ، ج7، ص 128.

(6) بنو راشد : هم أحلاف عبد الواد ، وكانت رئاستهم في عهد يغمراسن لونزمار ابن ابراهيم ابن عمران ، انظر ابن خلدون ، العبر ،ج7 ،ص121.

(7) المصدر نفسه ، عبد الرحمن ، العبر ، ج7، ص149.

(8) يتفق كل من يحي ابن خلدون و التنسي ، صاحب نظم الدر في أن بني عبد الواد شرفاء من سلامة إدريس بن عبد الله مؤسس الدولة الإدريسية بفاس ينحدرون من نسل القاسم الإدريسي الذي إنضاف إلى بني عبد الواد وتزوج منهم فكانت له ذرية صالحة ، ينظر في ذلك ، يحي بن خلدون ، مصدر السابق ، ج1 ، ص 102-103.

(9) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7 ، ص149-159.

(10) ينتسبون إلى زناتة البربرية موطنهم شمال الونشريس انظر عبد الرحمن بن خلدون العبر ، ج7 ، ص50-57.

(11) ينتسبون إلى زناتة ، استوطنوا شرقي عبد الواد وجنوب مغراوة انظر ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 318-333.

أما عن نشأة دولتهم و الكيفية التي وصل بها بنو عبد الواد إلى الحكم ، فيجمع كل من يحي بن خلدون(1) و عبد الرحمن بن خلدون (2)، و التنسي (3) ، بأن أبا سعيد شقيق المأمون سلطان الموحدين(4) ، كان وليا على تلمسان فاعتقل بعض مشايخ بني عبد الواد ، فقصده إبراهيم بن إسماعيل بن علان الصنهاجي اللمتوني متشفعا فيهم ، فلم يأبه له أبو سعيد ورد شفاعته ، فغضب لذلك وثار ضده فاعتقله ثم بعدها أطلق سراح مشايخ بني عبد الواد ، ولكنه تمادى الى أبعد من ذلك ، إذ خلع طاعة الموحدين وطمع إلى إحياء الدولة اللمتونية فاعتقد أن ذلك لن يتم له إلا بالقضاء على كبار بني عبد الواد ، وتحقيقا لغايته أراد التحايل على مشايخ القبيل لقتلهم ، فبعث إلى جابر بن يوسف (عم يغمراسن) الذي كان على رأسهم حينذاك ، فأعد لهم وليمة دعاهم إليها بغرض تصفيتهم عند وصولهم ، لكن المشايخ كان قد بلغهم ما عزم عليه ، فتوقفوا خارج البلد يأتمرون وبلغه قدومهم ، فخرج إليهم مسرعا يستقبلهم فوقع هو و أصحابه أسرى بين أيدي بني عبد الواد (5) فدخل جابر بن يوسف تلمسان و أعلن الدعوة للمأمون وبعث إليه معلنا الطاعة (6) ، فعهد له المأمون بولاية تلمسان وتسيير أمورها وما يليها من بلاد زناتة سنة 627هـ/ 1229م (7) ، وبالتالي أصبح بنو عبد الواد سادة على تلمسان و ضواحيها فكانت بذلك الخطوة الأولى نحو تأسيس دولتهم فحاول جابر بن يوسف ، توسيع نفوذه ، و إخضاع جيرانه فأطاعه كثيرون فقصد أهل ندرومة يطلب منهم الطاعة فأبوا ، فحاصر المدينة لكنه قتل حول أسوارها بسهم (يوسف الغفاري التلمساني) فخلفه ولده الحسن الذي تخلى عن الحكم لعمه عثمان بن يوسف بعد ستة أشهر ، فعزل من قبل الرعية بعد عام ونصف لسوء حكمه ، فآلت السلطة إلى أبي عزة زيدان أوزكران بن زيان بن ثابت بن محمد (8) ، غير أن بني مطهر(9) رفضوا مبايعته وحاربوه بمساندة بني راشد، وانتهت الفتنة بينهم بقتل أبي عزة زيدان في معركة دارت رحاها خارج تلمسان سنة 633هـ عندها تولى أمر تلمسان أخوه يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد و ذلك سنة 633هـ/1235م الذي تمكن من إخضاع بني مطهر وبني راشد وجمع كلمتهم في ظل الدولة العبد الوادية التي سارع يغمراسن إلى إعلان استقلالها عن دولة الموحدين ، مستبدا بالحكم دونهم (10) متخذا تلمسان عاصمة لبلاده . وبذلك يدخل بنو عبد الواد مرحلة جديدة بعد أن أصبح لهم كيانا سياسيا يمثلهم وقوة يعتدون بها في المغرب الأوسط (11)

---

(1) المصدر السابق ، يحي بن خلدون ، بغية الرواد ج1، ص101.

(2) المصدر السابق ، عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، ج7، ص 152-153.

(3)عبد الله التنسي ، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود أغا بوعياد ، موفم للنشر . الجزائر 2011، ص 112-113.

(4) أبو العلي إدريسالمأمون بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، حكم من سنة 624هـ 1226م/ 630هـ1232م.

(5) المصدر السابق ، التنسي ، نظم الدر ، ص 112-113.

(6) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 106-107.

(7) عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الزياني (حياته و أثاره) ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982، ص 12.

(8) محمد عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة و حضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984، ص 79.

(9) هو أبناءعمومة بني عبد الواد وينتمون لمطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم بن عبد الواد ، انظر عبد الرحمن ، العبر، ج7 ص 150.

(10) ولد يغمراسن سنة 603هـ / 1206م . ولي ويويع يوم توفي أخوه ابو عزة سنة 633هـ ، وكان معروفا عند قدومه بدهائه السياسي و شجاعته وحزمه وحصافة رأيه ، ومكارم أخلاقه و إثار ذوي الفضل و العلم....انظر عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، ج7، ص162-163.

(11) عبد الحميد حاجيات ، أأبي حمو موسى الثاني ، ص 13.

مرحلة يشوبها العديد من الصراعات و المؤمرات خاصة من قبل جاراتها الحفصية و المرينية وكذا القبائل المجاورة العربية و البربرية ، ومحور هذا الصراع التوسع وبسط النفوذ و تحقيق الريادة بالقوة . ولعل يغمراسن بن زيان لم يستثن من هؤلاء ، فعندما بويع بالإمارة بعد مقتل أخيه أبي عزة اضطلع بالأمر في عزم وقوة ، فأخضع إلى سلطانة كل الذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه (بني مطهر وبني راشد) فأحسن السيرة في الناس تدبيرا وسياسة ، وعمل على تنظيم قواته العسكرية كما اعتنى بتوفير الأسلحة و الذخيرة لها ، استعداد للدفاع عن البلاد ، كما اعتنى بالجهاز الإداري كاستحداث مجلس وزاري ، ليساعدوه على تسيير شؤون الإمارة خاصة بعدما ألغى السلطة الفعلية للموحدين ولم يبقى لهم سوى التبعية الأدبية و الروحية خاصة في عهد الخليفة السعيد و الدعاء له على المنابر أيام الجمعة و الأعياد . (1)

أما عن الحدود السياسة للدولة الزيانية : فيشغل إقليم هذه الدولة رقعة من الأرض كانت تعرف سابقا بالمغرب الأوسط سميت الدولة العبد الوادية نسبة إلى بني عبد الواد إحدى بطون زناتة ، كما سميت أيضا بالدولة الزيانية نسبة إلى زيان بن ثابت والد يغمراسن مؤسس هذه الدولة (2) ، ويتميز هذا الأقليم باختلاف تضاريسه وتنوع مناطقه وتباين مناخه بين منطقة و أخرى تنتشر عبره العديد من المدن التي كان لها أدوار سياسية و اقتصادية و ثقافية أهمها : تلمسان (3) عاصمة الدولة وحاضرة ملكها ومركز إشعاعها العلمي و الأدبي و الفني ثم ندرومة وهنين و وجدة و وهران و مستغانم و مازونة و مليانة و المدية و الجزائر ودلس وغيرها (4)، أما حدودها فإنها مرت بحالات مد وجزر طوال حياتها ، حيث لم تكن ثابتة ومستقرة بل كانت تتقلص حينا وتتسع أحيانا حسب استعداد بني زيان وقوتهم العسكرية و الاقتصادية واستقرارهم و أمنهم ووحدة أمرائهم وانسجام قبائلهم وولائها الصادق، فبعد ما تمكن يغمراسن من التوسع غربا كان الحد الفاصل بين ممتلكته ودولة بني مرين وادي ملوية شمالا إلى إقليم فيجيج جنوبا(5) و استطاع الوصول بمملكته بمساعدة القبائل المنضوية تحت نفوذه إلى مابعد مدينة وجدة إلى تاوريت (6) ، والبلاد التي تلي نهر ملوية وإقليم فيجيج في الجنوب الغربي ، أما من الناحية الشرقية فقد عرفت تطورا ملحوظا منذ اعتلاء السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن عرش المملكة ، فتطبيقا لوصية يغمراسن(7) ركز أغلب خلفائه اهتمامهم نحو توسيع إقليم دولتهم على حساب الحفصيين لاسيما في عهد كل من عثمان بن يغمراسن و أبي زيان محمد و أبي حمو الأول وابنه تاشفين الأول ، فقد استطاعت الجيوش الزيانية في عهد هذين العاهلين الأخيرين الوصول إلى بجاية من أراضي الحفصيين ، حيث حاصرتها عدة مرات إلى أن بلغت عاصمتهم تونسفي عهد أبي تاشفين الأول سنة (718هـ-1318م/ 737هـ- 1337م) لكنها تراجعت إلى أطراف بجاية وبلاد الزاب و هو أقصى اتساع لها في المنطقة الشرقية(8)،

---

(1) المصدر السابق ، عبد الرحمن بن خلدون ، العبر، ج7 ص 162-163.

(2) إبراهيم بلحسن ، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط و الأدنى ، من القرن 7 إلى القرن 9هـ/ 13م إلى 15م ، رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية ، تلمسان 2004/ 2005. ص 17.

(3) المصدر السابق ، عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، ج7، ص 156-157.

(4) بوزيان الدراجي ، المرجع السابق ، ص 37،

(5) عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج1 ، موفم للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002، ص 43-23.

(6) تقع هذه المدينة غرب وجدة ب136كلم ، انظر عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، العبر ، ج7 ، ص 227-454.

(7)المصدر السابق ، عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 189-190.

(8) المصدر السابق ، التنسي ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ، ص 137 . .

أما عن نسب بنو مرين فهم فخذ من قبيلة زناتو البربرية ، وهم فرع من البربر البتر ، يرجع نسبهم إلى جدهم الأعلى مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج أو حديج بن فاتن بن يدر بن يخفت بن عبد الله بن ورتين أو ورتنيص بن المعز بن إبراهيم بن سجيج أو سحيك بن واسين بن يصليتن بن مسرى بن زاكيا بن زاكيا بن ورسيك بن زانات بن جانا بن يحي بن تمزيت بن ضريس وهو جالوت ملك البربر ابن رجيح بن مادغيس الأبتر بن بر(1) ، ومع ذلك فإن بني مرين كمعظم الأسر البربرية الأخرى يرجعون أصلهم إلى العرب المضرية عن طريق الانتساب إلى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (2). وهاهو الفقيه الأديب مالك بن المرحل يمدح الأمير يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني قائلا :

أنتم لأباء عبد الحق كلهم ....فخر وهو للورا فخر إذا افتخروا

فحسبكم شرفا أن كان جدكم ...بر بن قيس وقيس جده مضر(3)

وينحدر بنو مرين كإخوانهم بنو توجين و مصاب من بني واسين (4) ، وهم أبناء عمومة مع بني عبد الواد ، وقد فرضت عليهم حياة البداوة حالة من اللاستقرار ، فعاشوا عشائر بدوية متنقلة في صحاري المغرب الأوسط فكانت منازلهم بزاب إفريقية إلى سجلماسة (5) و قد كانوا يرحلون في فصل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى قصد الرعي فيقضون شهورا نازلين بين فيجيج وملوية ، كما دفعتهم الحملات الهلالية خلال القرن 5هـ /11م إلى صحراء المغرب الأوسط ليستقروا في المنطقة الممتدة بين مصاب وجبل راشد و بالتالي فلم تكن مواطنهم ثابتة لنمط حياتهم البدوية الرعوية القائمة على الترحال بحثا عن موارد الماء و الكلأ (6) . أما عن ظهورهم و نشأتهم ، فقد كانت قبيلة بني مرين تضم أسرتين كبيرتين : بنو عسكر وبنو حمامة ، وكانت رئاستهم في بني عسكر ، وكان زعيمها الأعدر بن العافية بن عسكر من أقوى رجالها

و أشدهم بأسا ، وكان يلقب بالمخضب ، له جيوش قادت القبيلة إلى انتصارات عديدة ، إذ كان يتصرف تصرف الملوك وتقام له المراسيم ، وقد مكنته انتصاراته على المرابطين وإلى مايلي تلمسان ، وكذا ممتلكات الحماديين في بجاية و القلعة حتى اضطروا إلى مهادنته ومصالحته (7) . فكانوا معه على ذلك إلى ظهر الموحدون وتمكنوا من فتح تلمسان و وهران على يد عبد المؤمن بن علي ، الذي بعث ما غنمه فيها من أموال و ذخائر و سلاح إلى تنملل وكان المخضب حينها قد ملك أكثر بوادي تلمسان وقوي أمره بتلك البلاد ، إلا أنه لم يشهد حصار عبد المؤمن للمرابطين إذ كان ببلاد الزاب يخضع بعض قبائل زناته ، وقد كان أهل المدينة المدينة ينتظرون قدومه لنصرتهم ، خصوصا بعد سقوط تلمسان في يد الموحدين وفرار الأمير المرابطي تاشفين بن علي منها إلى وهران ، فلحقت به جيوش عبد المؤمن تطلبه ، فتمكنت منه واستخلصت أمواله وذخائره ، فبعث بها عبد المؤمن إلى تنملل مركز دعوتهم ، فبلغ نبأ ذلك بني مرين ، فنهض لهم المخضب بن عسكر لاستخلاصها و الاستيلاء عليها في خمسمائة فارس فاعترضهم في وادي تلاغ واستولى على أموالهم ، فأر سل عبد المؤمن جيشا يتزعمه عبد الحق بن معاذ الزناتي العبد الوادي لاستعادتها ، فالتقى الجيشان بفحص مسون ، فكان بينهما قتال عظيم انهزم على إثره بنو مرين وقتل المخضب ، وكان ذلك سنة 540هـ /1146م (8)

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج7، ص 343.

(2) ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل ، روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1962 ، ص9 .

(3) أبن أبي شنب ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، مطبعة كلية الشريعة للنشر . القاهرة ، 1961 ص 14.

(4)عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 343.

(5) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، العبر، ج7، ص 162.

(6) أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ب ت ، ص 205.

(7) روضة النسرين ، ابن الأحمر المصدر السابق ، 21-22. (8) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 150.

وبعد هذه الحادثة عاد بنو مرين إلى موطنهم (1) ، حيث انتقلت رئاستهم من بني عسكر إلى فرع من بني حمامة بن محمد بن عم المخضب ، فتولى أمرهم أبو بكر بن حمامة وبعد وفاته سنة 561هـ /1165م ، تولى الرئاسة ابنه محيو الذي شهدت فترة حكمه أحداث سياسية و عسكرية هامة ، إذ شارك الخليفة الموحدي المنصور في الجهاد بالأندلس حيث كلفه بقيادة المتطوعين من قومه وقبائل زناته في معركة الأرك التي انتصر فيها المسلمون سنة 591هـ /1195م، غير أن زعيم بني مرين كان قد أصيب بجروح عميقة اشتدت عليه بعد عودته من المعركة إلى بلاده ، توفي على إثرها في نفس السنة بالزاب (2) . أما عن قيام الدولة المرنية فقد كان لذلك صراع كبير مع الدولة الموحدية ، فبعد وفاة محيو تولى زعامة بني مرين(3) أكبر أبنائه أبو محمد عبد الحق ، فبدأ به عصر جديد في تاريخ بني مرين ، إذ دخل في مناوشات مع الموحدين في سبيل تكوين دولة له مستغلا في ذلك ضعف الخلفاء الموحدين ، وافتراقهم وتهاونهم في الدفاع عن الثغور فأخذ يغير بفلول بني مرين على نواحي المغرب وباديه ، ويعيث في البلاد فسادا ، مما دفع بالأهالي إلى رفع شكاويهم إلى المستنصر ابن الناصر الموحدي ، فعزم على محاربتهم و أعد لذلك جيشا ضخما (4) يقودهم أبو علي بن وانودين و أبو إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن والي مدينة فاس ، فالتقت الجموع بوادي نكور في سنة 613هـ / 1276م ، لتلتحم معركة طاحنة انهزم فيها الموحدون وتمزق جيشهم بينما امتلأت أيدي بني مرين بالأسلاب و الغنائم بعدما جردوا مهزوميهم من ملابسهم فلم يجدوا ما يسترون به عوراتهم إلا نبات يعرف عندهم بأوراق المشعلة ، فسميت هذه المعركة بمعركة المشعلة والعام هذا بعام المشعلة (5) ، وبعد هذا الانتصار زحف عبد الحق بم محيو بجيوشه إلى رباط تازا (6) ، فاستولى عليه في انتصار آخر على الموحدين الأمر الذي زادا من حدة الصراع السياسي و العسكري بينهما ، تضاف إليه المؤمرات و الدسائس الذين كانوا يحيكونها ضد بعضهما ، حتى نشب بذلك صراع داخلي في الأسرة المرينية بين بني حمامة و أصحاب مشيخة بني مرين و منافسيهم بني عمومتهم بني عسكر ، صراع قام الموحدون بتغذيته وزادا من تعميق الخلاف لجوء بني عسكر إلى الاستعانة بعرب رياح حلفاء الموحدين ، وذلك بإيعاز من هؤلاء فاحتدم الصراع بينهما ليتحول إلى مواجهة عسكرية عنيفة التقى الفريقان بواجرهان بالقرب من وادي سبو (7)، على بعد أميال من تافرطاست سنة 614هـ/1217 م انتهت بمقتل أميرهم عبد الحق وابنه الأكبر إدريس (8) فخلفه ابنه أبو سعيد عثمان الذي أقسم وعشيرته على الثأر لقتلاهم ، فزحفوا على معسكر بني عمومتهم وحلفائهم عرب رياح ، فنالوا منهم قتلا وثخنا و سلبا و نهبا لأموالهم و متاعهم ، و أرغموهم على الإذعان لسلطانهم مع دفع إتاوات سنوية (9) . استغل أبو سعيد عثمان ضعف الموحدين و أخذ يدعوا قبائل المغرب إلى الدخول في طاعته ، فبايعه من قبائلهم هوارة و زكارة و تسول و مكناسة ، و بطوية ومطلاسة وكزناية و بنو يرتيان و بنو يازغة وغياثة ومجاصة وصاريوت و بنو مكود وبنو سيتان وبنو واسليت وبنو بحر و بنو يوسف ، كما فتح بلاد بني كانون (10) ،

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج7 ،ص 344.

(2) ابن الأحمر ، روضة النسرين المصدر السابق ، ص 23.

(3) أبن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 158-160.

(4) الذخيرة السنية ، ص 27-26.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، المصدر السابق ، ص 348. الذخيرة السنية ، 27-28.

(6) الذخيرة السنية ، ص 32-33.

(7) الإدريسي ، المغرب العربي من نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، محمد حاج الصادق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 ص 99.

(8) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 349.

(9) محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني ، ط2، الكويت ، 1987، ص 12.

(10) عبد الرحمن ، المصدر السابق، العبر ، ج7 ، ص 350.

واستطاع بذلك أبو سعيد عثمان وضع كيان سياسي لبني مرين يفرض إقامة دولة فعلية تمثلهم ، أصبح لا ينقصها إلى الإعلان عنها شرعا ، فاعتبر بذلك أبو سعيد عثمان المؤسس الحقيقي لملك بني مرين الذي أرعب البلاد الموحدية ، فدفعت إلى تغيير سياسيته و أسلوبه من المواجهة العسكرية إلى سياسة الاسترضاء و التقرب من بني مرين عن طريق مهاداتهم ومهادنتهم وذلك سنة 637هـ / 1332 م (1) . وفي نفس السنة اغتيل أبو سعيد عثمان ، فخلفه أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق(2) (637-642هـ/1232-1244م) ، فسار على سياسة سلفه في التمكين لقومه ومواصلة الجهود السياسية و العسكرية لإقامة كيان لهم ، يفرض هيبتهم ووجودهم ، وذلك بتمهيد مناطق المغرب الشمالية و الاستيلاء عليها ، و إخضاع قبائلها وفرض الضرائب عليهم (3) ، فكانت هذه السياسة كفيلة بتحقيق المزيد من المكاسب لبني مرين خصوصا بعدما سعى إلى إضعاف الموحدين بالتحالف مع خصومهم من المنشقين عنهم ، فاستقبل أبو معرف جرمون بن رياح و قومه المنشقين عن الخليفة الموحدي الرشيد، فأكرم وفادهم (4) وبذلك جعل بنو مرين أرضهم ملجأ لكل منشق عن الموحدية و الراغبين في الانضمام إليهم كأسلوب ضغط و إضعاف للموحدين (5) ، وفي هذه المرحلة شرع بنو مرين في التأسيس العملي لقيام دولتهم ، فبعدما استولوا على البوادي في شمال المغرب تحولوا إلى المدن و الأمصار ، فحاصروا مكناسة ثم سلفات الأمر الذي أقلق الرشيد الموحدي مما دفعه إلى مواجهتهم و إيقاف مدهم ، وكان الخلاف و الشقاق قد دب من جديد في البيت المريني بين عسكر وبني حمامة وذلك منذ اعتلاء أبي معرف الحكم ، حاول ابن واندين الذي عقد له الخليفة الموحدي على مكناسة استغلاله فتحالف مع بني عسكر و نهض معهم لقتال أبي معروف وقومه فالتقى الجمعان بالقرب من سلفات ، فانهزم ابن وانودين و أتباعه (6)، ولما تولى السعيد بن المأمون خلافة الموحدين سنة 640هـ ، فصرف جهوده لمحاربة بني مرين فأعد لذلك جيشا ضخما يتألف من المصامدة و العرب و الروم ، والتقى مع الجيش المريني في أحواز فاس سنة 642هـ ، وانجلت هذه المعركة عن مقتل الأمير أبو معرف محمد وانهزام المرينيين وانسحابهم إلى جبل غياثة بمنطقة تازا ثم خرجوا إلى الصحراء حتى لا يطولهم الموحدون ، وبدأ و كأن أمر بني مرين قد أنتهى ، لكن الأمور سرعان ماتغيرت عندا تولى أبو يحي أبو بكر بن عبد الحق رئاسة بني مرين (642-656هـ /1244-1258) ، ولم يكد يستقر في السلطان حتى راح يسعى جاهدا لتحقيق مشروع سلفه في إقامة دولة فعلية ، فأظهر مواهبه في الحكم و الإدارة وانكشفت حنكته السياسية بعدما أعاد تنظيم قبائل بني مرين (7)، وأصلح ما بينهما من خلافات وجعلها لحمة واحدة ، كما خلع أبو بكر طاعة الموحدين وجهر بها ، و أعلن اعترافه بسلطة الحفصيين في إفريقية وبيعته لهم ، وظل محافظا على ذلك طيلة حياته هو ومن جاء بعده ، ولعل في هذه الخطوة استغلال للشرخ الذي وقع بين الموحدين و الحفصيين وخلافهم حول مبادئ ابن تومرت وتنكر الموحدين لها ، الأمر الذي لم يقبله الحفصيون فكان على بني مرين الاستفادة من هذا الوضع لصالحهم في مواجهة أعدائهم ، فضلا عن اكتساب حليف قوي في مقابل التقارب الزياني الحفصي و التحالف الموحدي الزياني (8)

---

(1) عبد العزيز لعرج ، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الأثار ، جامعة الجزائر 1998-1999، ص 12.

(2) الذخيرة السنية، ص 59.

(3) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص 869.

(4) الذخيرة السنية ، ص 60.

(5) محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس ، دار القلم للنشر و التوزيع ، الكويت ، 2006، ص 16

(6) الذخيرة السنية ، ص 60 .

(7) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج7، ص 352-353.

(8) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص 618-619.

القائم أساسا على حرب بني مرين . وبعد هذا التحالف أخذ أبو بكر في التحرك سياسيا و عسكريا باسم الحفصيين ، فاستولى على مكناسة صلحا فبايعه أهلها سنة 643هـ / 1245م وكان ذلك بمساعدة أخيه أبي يعقوب الذي استطاع بفضل حنكته السياسية و علاقاته الطيبة مع شيوخ المدينة استطاع إقناعهم بأهمية الانضواء تحت طاعة أبي بكر و تأييد المرينيين (1)، وهنا أدرك السعيد الموحدي الخطر الذي تتعرض له دولته فاستنفر الموحدين و المصامدة جميعا فاستجابوا له ، وتمكن من حشد جيش ضخم يقول عنه ابن عذارى "ارتج له المغرب " ، وخرج من مراكش سنة 645هـ /1247م ليضع حدا لبني مرين بطردهم من بلاده ، والاستيلاء على تلمسان و المسير نحو إفريقية من أجل استعادتها ، ومع الوقت الذي كان الموحدون يستعرضون قوتهم كان المرينيون يراقبون ذلك عن كثب وأدركوا أنهم غير قادرين على مواجهتهم فاضطروا إلى التخلي عن ما ملكوه في نواحي المغرب ، وارتحلوا إلى تازا وبلاد الريف (2) . أما الخليفة السعيد فقد تقدم إلى مكناسة ومنها إلى فاس ورباط تازا ، حيث وصلته وهو في الرباط بيعة أبي بكر بن عبد الحق المريني مقترحا عليه العودة إلى مراكش ، وأن يقوم مقامه في التوجه إلى تلمسان (3) لإخضاع يغمراسن بن زيان (4)، غير أن الموحدين تفطنوا لمغزى هذا الطلب فشكروا الأمير المريني واكتفوا بمساهمته في الحملة فقط بفرقة عسكرية ، فأمدهم بخمسمائة فارس (5) ، وبعد دخول بني مرين تحت طاعة الموحدين علم السعيد الموحدي بما تم بين تونس و تلمسان من معاهدة فغضب لذلك و عزم على تأديب يغمراسن وصده عن وجهته هذه ، بعد دخول بني مرين تحت طاعة الموحدين سار السعيد نحو تلمسان فحاصرها وبعث إلى يغمراسن يدعوه للمثول أمامه و تقديم البيعة و الدخولفي طاعته ، فاعتذر يغمراسن عن القدوم وأكد طاعته واستعداده لإرسال بعض الفرسان ليحاربوا في صفوف الموحدين أثناء زحفهم على إفريقية ، ولجأ في قلة من أنصاره إلى قلعة تامزجدرت أو تامززدكت (6) متحصنا بها ، غير أن الخليفة السعيد ألح على وجوب مثول يغمراسن أمامه وظل هذا الأخير مصرا على موقفه ، فعزم السعيد على ملاحقته فقصد القلعة التي امتنع بها يغمراسن(7) ، لكن يغمراسن بن زيان لم ينتظر وصوله بل خرج إليه و فاجأه في الطريق ، وهو يعاين بنفسه المكان ويتحرى سبل التمكن من يغمراسن وبينما هو كذلك إذ عاجله كمين من بني عبد الواد ، فقتل السعيد الموحدي ووزيره أبو زكرياء بن عطوش ، وتفرق جنده ، فاستولى يغمراسن على محلته أبي الحسن السعيد و ذخائره كالعقد اليتيم و غضار الومرد و مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي خطه بيده ، فساد الرعب و الفزع في صفوف الوحدين ، الذين فروا مسرعين نحو مراكش تاركين محلتهم نهبا مستباحا ليغمراسن . بلغ خبر مقتل الخليفة السعيد إلى أبي بكر المريني فأسرع إلى استرجاع المناطق التي كان قد سلمها إلى الموحدين ، فاسترد مكناسة و أسرع إلى رباط تازا قبل أن يهاجمها منافسه يغمراسن ، ثم استولى على أجر سيف ، وجميع حصون و قلاع وادي ملوية وسلمها إلى أخيه يوسف ، ثم انتهى إلى الاستيلاء على مدينة فاس بعد أن طرد منها عاملها الموحدي ، فأقبلت الوفود من معظم مناطق المغرب تعلن البيعة و الطاعة ، وكان ذلك سنة 646هـ /1248م (8) .

---

(1) الذخيرة السنية ، ص 66-67. و أيضا السلاوي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 12 .

(2) الذخيرة السنية ، ص 70. المصدر السابق . (3) نفسه ،، ص 210-211.

(4) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد المصدر السابق ، ج1، ص 205-206.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر، ج7، المصدر السابق ، ص355.

(6) تامززدكت : هي قلعة حصينة صعبة المنال تقع في منحدر جنوب وجدة ، انظر عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 168-169.

(7) ابن عذارى ، أبو العباس أحمد المراكشي ، كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، دار المغرب الاسلامي ، بيروت، ج3 ، ص 247-

(8) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، المصدر السابق . ص 170-171.

بلغ خبر مقتل الخليفة السعيد إلى أبي بكر المريني فأسرع إلى استرجاع المناطق التي كان قد أسلمها إلى الموحدين ، فاسترد مكناسة و أسرع إلى رباط تازا قبل أن يهاجمها منافسة يغمراسن ، ثم استولى على أجر سيف ، وجميع حصون و قلاع وادي ملوية وسلمها إلى أخيه أبي يوسف ، ثم انتهى إلى الاستيلاء على مدينة فاس بعد أن طرد منها عاملها الموحدي ، فأقبلت عليه الوفود من معظم مناطق المغرب تعلن البيعة و الطاعة ، وكان ذلك سنة 646هـ/1248م(1) . وبوفاة أبي يحيى أبي بكر انتهى بنو مرين من مرحلة الاستيلاء على المدن الكبرى وجعلوا من فاس عاصمة لهم ، ولم يبقى من تحقيق مشروع إقامة دولتهم إلا الاستيلاء على مدينة مراكش عاصمة الموحدين . (2) وبذلك كانت ولاية أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق وقيام الدولة المرينية ، حيث خلف أبو بكر على حكم بني مرين ولده عمر ، فانقسم حينها بنو مرين على أنفسهم بين مؤيدين و معارضين ، وانتهى الخلاف بتوليه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (3)، الذي واصل سياسة أخيه أبي يحيى في فتح الأمصار ومد النفوذ المريني إلى المناطق و النواحي ، وقد واجه في فترة حكمه العديد من الثورات الداخلية و الخارجية ، أما الداخلية فمنها ثورة أبي يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق والي سلا ، الذي نازع عمه في الحكم فأراد الاستقلال عنه بالاتفاق مع تجار إسبان زودوه بالسلاح ، ثم غدروا به وفتكوا بأهله ، فاضطر أبو يوسف يعقوب إلى التدخل لحماية المدينة التي عاثوا فيها قتلا و نهبا فلاحق ابن أخيه الذي ظل طريدا حتى قتل من طرف القائد المريني طلحة بن علي بساقية غبولة بالقرب من سلا سنة668هـ / 1269م (4) ، كما واجهت أبو يوسف ثورة أخرى ، قام بها أبناء أخيه أولاد إدريس وتزعمها كبيرهم محمد بن إدريس ، فأعلنوا عصيانهم بقصر كتامه مستغلين حركة ابن عمهم أبي يعقوب بن عبد الله غير أن أبا يعقوب تمكن من احتواء هذه الثورة دون قتل بفضل حنكته وسياسته، (5) .

وبينما كانت الجيوش المرينية تواصل عملها في الأندلس تقدم أبو يوسف يعقوب فاستولى على ريف تامسنا (6) ، وانتصر على الموحدين في معركة أم الرجلين(7) على وادي أم الربيع سنة 660هـ/ 1262م ومنذ ذلك الحين أصبح وادي أم الربيع الحد الفاصل بين ملك بني مرين وملك الموحدين ، لم ينتظر أبو يوسف يعقوب طويلا حتى توجه لفتح العاصمة الموحدية وافتتاحها فتحرك نحوها سنة 661هـ/1262م. على الأرجح مستغلا في ذلك الخلاف ،الذي وقع في بيت الموحدي بين الخليفة المرتضى و أبي دبوس(8)، الذي لجأ إلى أبي يوسف يعقوب طالبا منه العون و المناصرة على المرتضى ، عاقدا معه اتفاقية فحواها تقسيم مايستولي عليه أبو دبوس فيما هو مقبل عليه مناصفة بينهما ، وذلك مقابل إمداده بالمال و الجند في حركته للاستيلاء على عرش مراكش (9). وتأمينا لمشروعه وتطلعا لغايته ، لم يتوان أبو يوسف يعقوب في إمداد الثائر الموحدي أبا دبوس بكل مايحتاجه من مال وجند وعتاد (10)،

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، المصدر السابق ، ص 356-358.

(2) كان بنو مرين قد استولوا على مدينة القصبة وسلا وسجلماسة ودرعة ، بعد صراع طويل مع خصومهم الموحدين وبني عبد الواد .

(3) بويع أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بمدينة فاس في شوال من سنة 656هـ 1258م . بعد صلح تم بينه وبين ابن أخيه عمر الذي ولي مكناسة و أحوازها ، انظر روضة النسرين ، ابن الأحمر ، ص 27-30.

(4) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، المصدر السابق ، ج7، ص 368.

(5) الذخيرة السنية ، ص 98-99. المصدر السابق

(6) السلاوي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 23.

(7) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، المصدر السابق ص 369.

(8) أبو دبوس هو لقب لأبي العلاء إدريس بن عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، وهو لقب اشتهر به من رفع الدبوس وهو في الأندلس . محمد عيسى الحريري ، المرجع السابق ، ص 32.

(9) الذخيرة السنية ، المصدر السابق ص 109.

(10) المصدر السابق ، عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 370.

فسار أبو دبوس بالقوة التي زودوه بها بنو مرين في ذي القعدة سنة 663هـ / 1264م ، فمر بمكناس ثم بالمعدن ومنها إلى تادلا ونزل بهسكورة جنوب شرق مراكش على زعيمها مسعود بن جلداسن ، وهناك وفد عليه أنصار من الموحدين و الجند الراغبين في خدمته و أطاعته قبائل عديدة لما أصابها من المرتضى نتيجة اتهامهم بالتواطؤ مع أبي دبوس ، (3)
فانتشرت بذلك الفوضى ، وصارت لقمة تنتظر طريقها وبذلك استطاع أبو دبوس دخول المدينة بسهولة ، خاصة بعد فرار المرتضى ، ولجوئه إلى صهره ابن بعطوش بمدينة أزمور ، هذا الأخير تنكر له ولم يراع صلته به ، فرفض استقباله ، فلجأ بمن معه إلى مغارات على الشاطئ ورجال أبي دبوس يترصدونه حتى قبضوا عليه في مخبئه ، فسلم إلى صهره الذي أوثقه منتظرا أوامر أبي دبوس الذي أمر بالتخلص منه ، وبذلك تولى ابو دبوس خلافة الدولة الموحدية تحت لقب الواثق بالله،
وصل الخبر إلى أبي يوسف يعقوب ، فبعث إليه يهنئه بالفتح ويذكره بالاتفاق الذي كان بينهما طالبا منه الوفاء بالعهد ، غير أن الواثق بالله تنكر لتلك الوعود ، وخاطب أبا يعقوب مخاطبة الملوك لولاتهم ، والرؤساء إلى خدامهم ، (4) (5) فغضب بذلك أبو يوسف وعزم على غزو مراكش سنة 666هـ/1268م، التي سار إليها في جيش ضخم(1) وأغار على القبائل المؤيدة للموحدين وأنتهج سياسة الأرض المحروقة من نخريب ونهب للمحاصيل و الطرقات و الجسور وقلت الأقوات ، وغلت الأسعار(2) ،

واستنجد أبو دبوس بيغمراسن يستنصره عليهم ، فقام يغمراسن بشن الغارات على الأملاك الغربية لبني مرين بوادي ملوية وغيره ، متتبعا بدوره سياسية الأرض المحروقة فاضطربت أحوال تلك المناطق ،مما اضطر أبو يوسف للانسحاب ليعد العدة للقاء بني عبد الواد ، ثم خرج من فاس ليلتقي بخصمه في وادي تلاغ إلى الشرق من نهر ملوية ، في معركة ضارية مني فيها يغمراسن بن زيان بهزيمة نكراء ، قتل فيها عدد كبير من أكابر بني زيان و في مقدمتهم أبو عثمان بن يغمراسن ، وكان ذلك في سنة 666هـ/1267م . (3) واستمر أبو يوسف يعقوب حاشدا جيشه إلى أن انتهت إلى معركة ضارية ، انتهت بهزيمة الموحدين ومقتل أبي دبوس واستيلاء بني مرين على محلتهم ، وذلك في محرم سنة 668هـ /1269م(2). ولما بلغت أخبار هذه الهزيمة العاصمة مراكش ، فر أقارب الخليفة الموحدي إلى جبال تنملل، في حين سار أبو يوسف يعقوب نحو مراكش ودخلها في موكب حافل استقبله فيها وجهاء القوم من الفقهاء و القضاة و الأشياخ مبايعين له ملتمسين له الأمن و الأمان ، فأمنهم و طمأنهم ، فاستقرت الأحوال وسادت السكينة و الهدوء المدينة ، ونزل أبو يوسف في قصبتها (3) .
وبمقتل أبي دبوس وسقوط مراكش انتهى عصر الدولة الموحدية وقامت الدولة المرينية دولة بني مرين الزناتية (4) .
وبسقوط الدولة الموحدية عادت منطقة المغرب إلى الصراع القبلي الذي كان سائدا قبل عصر المرابطي ، الذي كانت له عواقب وخيمة على الأندلس(5)

---

(1) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج6 ، ص 574-548.
(2) تفاصيل فرار المرتضى و تنقله من مكان إلى آخر حماية لنفسه ثم الإمساك به وقتله، انظر العبر ، ج6،ص 548.
(3) عبد الرحمن ، العبر ، ج6، 549.
(4) الذخيرة السنية ، ص 115.
(5) عبد الرحمن ، العبر ، ج7 ، ص 371.
(6) العبر ج7 ، ص 375.
(7) الذخيرة السنية ، ص 118.
(8) سار أبو يوسف يعقوب على تقاليد كبار الدول في المغرب ، وهي تأسيس عاصمة للبلاد سماها فاس الجديدة ، انظر روضة النسرين ، ص 29.
(9) ما إن استقر المرينيون بمراكش وخضعت لهم كل القبائل المغرب الأقصى حتى شرعوا في بسط نفوذهم شمالا نحو الأندلس ...أمظر الذخيرة السنية ص 870-871.

، بالرغم من أن هذه القبائل تكتلت في التشكيلات السياسية الثلاثة : الحفصية ، الزيانية ، المرينية ، فإن الصراع ازداد شراسة ، ترجمته العلاقة العدائية الدائمة بين الزيانيين و المرنيين بصفة خاصة ، والتي كانت مختفية وراء ظل الدولة الموحدية بعد هزيمة العقاب لتبرز بعد سقوطها في شكل مواجهة وصراع سياسي و عسكري مر بمراحل عديدة كانت الدولة الزيانية و عاصمتها تلمسان مهددة في وجودها من طرف الدولة المرينية ، حيث تمايلت العلاقة بين المرنيين وبنو عبد الواد على كفي حرب وصلح على مر فترة طويلة من الزمن اختلفت فيه الأسباب إلا أن الهدف واحد وهو التوسعات الجغرافية على حساب الأخر وكذا الرغبة في توحيد المغرب الإسلامي تحت راية واحدة وتعددت الأحداث كان أبطالها العديد من سلاطين الطرفين . وهنا يمكن أن نخوض في منشأ الخلاف وبداية الصراع وذلك في عهد يغمراسن بن زيان ، حيث لم تكن دولة بني مرين الناشئة لترضى بمجاورة بني عبد الواد المنافسين لها ، وذلك بعدما تيقنت من المكانة الرفيعة التي يتبوأها هذا القبيل في ميدان السياسة و الحرب ، فنشأ عن ذلك حقد وعداوة كان مبعثها المنافسة على رئاسة زناته و السلطان المطلق على المغرب الأوسط ،(1) ويعود تاريخ المنافسة إلى ما بعد هزيمة الموحدين بضواحي تلمسان عندما استولى الأمير أبو بكر على مدينة فاس (2) توجه لتأكيد سلطان بني مرين فيها و جباية المغارم من القبائل ، وكان قد استخلف وراءه على فاس مولاه السعود بن خرباش الجشمي من أحلاف بني مرين (3) ، وكان الأمير أبو بكر عند فتحه فاس قد استبقى من كان فيها من الجند الرومي (4) المرتزق الذي كان خدمة الموحدين ، فانتهز الموحدون و أنصارهم من الصنهاجيين بالتحالف مع الجند الرومي فرصة خروج الأمير من فاس وانقضوا على واليه فقتلوه ، وأعلنوا عودة المدينة إلى طاعة الموحدين ، وكتبوا بذلك للخليفة الموحدي أبي حفص عمر المرتضى بن السيد إبراهيم بن يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي ، فلما علم الأمير أبو بكر الذي يحاصر فزاز ، ففك الحصار عنها وعاد مسرعا إلى فاس لتدارك أمرها ، فأطبق عليها الحصار وقطع عنها الماء و الغذاء فطلب أهل فاس النجدة من الخليفة الموحدي المرتضى غير أنه عجز عن إرسال جيش لتأييد أنصاره ، لكنه أرسل إلى يغمراسن بن زيان يستنجد به على الأمير أبي بكر ويغريه بالاستيلاء على ما يستطيع الاستيلاء عليه من النواحي التي استولى عليها بنو مرين ، فأجاب يغمراسن الدعوة وخرج من تلمسان لعرقلة جهود أبي بكر في فاس(5) ، فتقدم إلى ممر تازا واستولى عليه ، فسار نحوه أبو بكر حتى لقيه بوادي إيسلي بالقرب من وجدة ، فكانت ملحمو عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد (6) ، ثم توجه أبو بكر بعد انتصاره إلى فاس فدخلها وقتل كثيرا من أشياخ الموحدين وأغرم أهل المدينة مالا ضخما ، فدام حصار فاس اكثر من تسعة أشهر، وفي الوقت نفسه كان يغمراسن قد فر في فلوله نحو تلمسان تاركا مجلته بما فيها نهبا وسلبا لبنى مرين ، وتعتبر هذه المعركة أول حرب نظامية جمعت القبيلتين ، و في سنة 655هـ / 1257م ، نهضت مرين منتقمة من بني زيان لانحيازهم إلى خصومهم الموحدين فجمعتهما معركة بأبي سليط ، انهزم فيها يغمراسن مرة أخرى فتعهد الأمير أبا بكر بمتابعته فأوقفه عن رأيه أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن (7)

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ، ج2، مكتبة الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1965. ص 100

(2) عبد الرحمن ابن خلدون ، المصدر السابق ، العبر ، ج7، ص 148-154. و ص 162-163.

(3) كان هذا الجند تحت قيادة قائد منهم يدعى شرير الزنجي الذي تحالف مع الموحدين من أهل فاس للفتك بالسعود و تحويل الدعوة إلى المرتضى

(4) حسين مؤنس، تاريخ المغرب و حضارته ، المجلد الثاني ، ج2، ط1، دار لعصر الحديث ، بيروت ، ص 18.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، المصدر السابق ، ص 184.

(6) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ،المصدر السابق ، ص 172.

(7) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 305.

فرجع ، ولما قرب من الوصول إلى أحواز فاس بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة و درعة لتحالف كان بينه و بين أهلها أطمعه في ملكها . فشرع الأمير أبو بكر في السير إلى سجلماسة التي دخلها قبل يغمراسن بيومين ، ثم وصل يغمراسن فنزل خارجها منتظرا ، لكنه يئس من التغلب على الأمير أبي بكر بعدما دارت بينهما حرب تكافأ فيها الفريقان ، وهلك فيها ابن عثمان بن عبد الحق بن أخ الأمير أبي بكر ، فرجع يغمراسن إلى بلده خائبا ،تاركا سجلماسة(1) و درعة (2) وبذلك ضاع الجنوب من الموحدين كما ضاع منهم الشمال وانحصر ملكهم في سهل مراكش بما فيه حوض نهر تنسيف (3) .

و بوفاة أبي يحيى أبي بكر بن عبد الحق المريني 656هـ / 1258م خلفه أخوه أبو يوسف يعقوب بعد نزاع طويل مع عمر ابن أخيه ، وكان أبو يوسف يعقوب قبل هذا عاملا على ناحية تازا (4) هو الأخر لم يتوانى في محاربة يغمراسن بن زيان الذي أعلن بيعته للخليفة الموحدي أبي دبوس في سنة 665هـ ،يدعوه فيها 'إلى التحالف ضد بني مرين قائلا : أياك ان تطمع بني مرين فيما لديك ، وأنا أكفيك شرهم و أنا و أنت يد واحدة في حربهم،و كرد فعل على هذا الحلف ، قام أبو يوسف إلى مراكش وحاصرها و أستنجد الخليفة أبن دبوس الموحدي بحليفه يغمراسن (5)،

وشن يغمراسن غارات على الحدود الشرقية لبني مرين ، الأمر الذي أجبر أبو يوسف لفك الحصار على مراكش مؤقتا إلا أنه جهز جيش ضخم واكتسحا أراضي يغمراسن حيث دارت بينهم أعنف معركة بوادي تلاغ ، ومع تفوق المريني عدة وعددا ، كانت الغلبة لصالحهم ، فقتل الأمير أبو حفص عمر كبير أبناء يغمراسن وولي عهده بالإضافة إلى نفر من أكبر رجال بني زيان ووجهاء عشيرته أمثال : ابن عبد لملك بن حنيفة ، وابن يحيى بن مكتن ، وعمر بن إبراهيم بن هاشم ، فكانت الهزيمة قاسية لبني عبد الواد ، مزقت صفوفهم خصوصا بعد فرار يغمراسن إلى تلمسان وهو منهار معنويا (6) . لم تنطفئ شعلة الحقد في أنفس المرنيين فحشدوا الجموع ، وعزم على يغمراسن مرة أخرى إلا أن الخطة تغيرت بعدما أستنجد بني الأحمر أصحب غرناطة به ، فرأى يعقوب بن عبد الحق مهادنة يغمراسن ليأمن شره ويدعوه إلى الصلح (7) إلا أن ذلك فشل وأصر يغمراسن على الأخذ بثأر أبنه وولي عهده عمر ، وبذلك ترك السلطان أبو يوسف يعقوب أمر الأندلس وسار نحو تلمسان للقتال فخرج له يغمراسن في قومه وحلفائه مغراوة و العرب والتقى جمعان بمنطقة إيسلي قرب وجدة 670هـ، واشتعلت الحرب وانهزم يغمراسن وفر هاربا وبذلك حطم المرنيون وجدة وحاصرو تلمسان ونهبوها ، وقد انضم أليه نفر من أبناء عمومة يغمراسن الذين كان يحقدون عليه أثناء حصاره لتلمسان على رأسهم ، أبو زيان محمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية كبير بني توجين من زناته (2) ، الذي قدم في جيش كبير لدعم السلطان يعقوب نتيجة عداوة توجين ويغمراسن ، واستمر الحصار على تلمسان دون أن ينال منها فرفع السلطان المريني الحصار وعاد إلى بلاده ،(8)

---

(1) سجلماسة : مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى في مقاطعة تافيلات ، وصفها الرحالة ابن حوقل في صورة الأرض ، ص 65، و البكري في المغرب ، ص 148، وصفا شاملا فقال عنها أنها : كثيرة النخيل و الأعناب و القصور و الأبواب ، ثم تحدثا عن أهلها الذين يقصدون بلاد السودان بالملح و النحاس ، ويرجعون بالذهب إلى بلادهم ، ولهذا كانوا في سعة العيش ، راجع ، يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 206-207.

(2) درعة : مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى، كانت محطة تجارية هامة في القرن الخامس ، لسان الدين الخطيب ، تاريخ المغرب ، القسم3، ص 139.

(3) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 19،

(4) تازا : مدينة بشرق المغرب الأقصى ، وهي حده الفاصل بينه وبين المغرب الأوسط ، ينظر ، محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، 1975، ص 128.

(5) الذخيرة السنية ، ص 112-115،

(6) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ج7-، المصدر السابق ، ص 371- 176-177.

(7) محمد مكيوي ، الأوضاع الساسية و الثقافية للدولة العبد الوادية منذ قيامه حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول ، رسالة ماجستير تلمسان ، ص 70.

(8) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، ص 307-176,177

فرجع بنو توجين إلى مقرهم من جبال الونشريس ، بعدما أغدق عليهم السلطان يعقوب العطايا من الخيول و الجمال و الأموال ثم مضى ومن معه إلى المغرب محملا بالغنائم ، وبتالي نجت تلمسان مرة أخرى من بني مرين ، فأتيحت لي يغمراسن بن زيان الفرصة لأن يعاود نشاطه ولم شعث إمارته ، كما أمن من ناحية جاره القوي يعقوب ين عبد الحق الذي شغل بعد ذلك بأمر سبتة وطنجة ثم أمر الجهاد في الأندلس (1)

وبتوالي الهزائم على يغمراسن عمد إلى تغيير سياسته تجاه المرنيين ، حيث عمل على مهادنتهم لبعض الوقت وانعقدت المهادنة بينهما (2) وعلى إثر ذلك توجه للتوسع على حساب الحفصيين ، وكذلك تأديب مغروة وتوجين كونهم تحالفوا ضده . أما أبو يوسف يعقوب فقصد سجلماسة (3) التي كانت بيد يغمراسن فضرب عليها حصارا فاقتحمها سنة 673هـ / 1274م . الأمر الذي دفع يغمراسن إلى نقض الصلح ومحاربته مرين ، خصوصا بعدما بسط المرينيون نفوذهم على الكثير من المناطق من الأندلس (4) وبذلك بنو الأحمر إستنجدو بيغمراسن وأغدقوا عليه بالهداة الثمينة فبادر يغمراسن إلى إجابتهم (5) وذلك ما أغضب السلطان المريني وطلب الصلح من يغمراسن في الكثر من المرات إلا أن الأخير بقيا رافضا لفكرة الصلح وإبداء الحقد للسلطان أبو يوسف يعقوب وزحف له الأخير بجيش مزق به صفوفه ففر يغمراسن ناجيا بنفسه إلى الصحراء(6) ، وفي كرة عاود يعقوب بن عبد الحق منازلة تلمسان وهزمها ، وبعد توالي الهزائم رضح يغمراسن إلى حقيقة عدم إمكانية مجابهة المرنيين و أوصى أبنه عثمان بمسالمتهم .(7)

وبذلك ما عمل بع أبنه عثمان مهادنة المرنيين ، مرض يعقوب بن عبد الحق فمات سنة 687هـ/1286 ، فخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف ، فحدث أن ابنا له يسمى أبا عامر كان قد ولاه مراكش فثار بأبيه وظاهره في ذلك وزير له يسمى "ابن عطو"، فسار إليه أبوه وهزمه ، فانهب الأمير ووزيره مال مراكش وفرا إلى تلمسان ، فما كان من أبي سعيد عثمان إلا أن أكرمهما و أجار أبا عامر على أبيه (8) ، ثم عفا السلطان أبو يعقوب يوسف المريني عن أبنه و أعاده إلى فاس ثم طلب من عثمان أن يسلمه الوزير أبن عطو فرفض ، فأثار ذلك حفيظة أبي يعقوب ، فقرر غزو تلمسان وحصارها ، واحتمى عثمان بأسوارها وكان الحصار الكبير عليها(9) ، ومضى يشن الغارات حول البلاد حتى أضر بها واستولى على المدن التابعة لتلمسان منها : ندرومة وهنين ووهران وتالموت و تامزدكت ومستغانم وشرشال و البطحاء و الونشريس و مليانة، توجين و مغراوة ...) (10) فعانت تلمسان الجوع والخوف إلا أنها صمدت ومات السلطان عثمان وخلفه أبنه محمد بن عثمان ، حيث دام حكمه 4 سنوات ، واستمات في الدفاع عن تلمسان ، إلا أن هلك يعقوب يوسف فكان موته إنقاذ لبني زيان من الهلاك المحقق بعد ان دام الحصار 8أعوام ، (11)

---

(1) حسن مؤنس ، المرجع السابق ، ص 129.

(2) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر ، ج7، المصدر السابق ، ص 178.

(3) بايع أهل سجلماسة يغمراسن سنة 662هـ / 1263م ، فاستعمل عليهم ولده يحيى .

(4) محمد بن عمرو الطمار تلمسان عبر العصور ، ص 87.

(5) عمر الجيلالي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 105

(6) محمد بن عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة وحضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنسة للكتاب ، الجزائر ، 1984، ص 89.

(7) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 189-190.

(8) الطمار ، تلمسان عبر العصور ، م س ، ص 98.

(9) التنسي ، نظم الدر و العقيان ، ص 130-131 و ص 178-179.

(10) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، العبر ، ج7، ص 256-257.

(11) التنسي ، المصدر السابق ، ص 178.

وبفك الحصار توجه محمد أبو عثمان للم الشتات فنهض سنة 706 لاسترجاع نفوذ دولته في شرق البلاد منتقما من مغراوة و أعاد إلى حضيرته منطقة الشلف وجبل الونشريس و المدية وغيرها ، ثم عرج على السرسو جنوب وهران ، ثم مر ببلاد توجين فنكل بأعدائه و أرغمهم على الخضوع (1) ، وبعدها أمر بإصلاح القصور و الأسوار والمباني ومات سنة 707هـ (2).

ليبدأ بذلك عهد جديد لأبي حمو موسى الأول سنة 708هـ/1308 م ، وأفتتح عهده بإبرام الصلح وتحقيق السلم مع أمراء بني مرين تأمينا لظهره (3) وتفرغ للشؤون الداخلية ، فبادر إلى جمع ما أمكن من المواد الغذائية و الأسلحة و إذابة قدر كبير من الشحوم أفعم بها أحواضا عديدة ، وملاء الأهراء ملحا وفحما و حطبا وحفر مطامير كثيرة شحنها قمح وشعير حتى يمكن لتلمسان الثبات في أي حصار أخر غير متوقع، ولما أمن بن الجهة الغربية أتجه للجهة الشرقية لتأديب القبائل من بني توجين ومغراوة ، وأعلن سيطرته على مليانة ومتيجة (4) ومدينة الجزائر ، وبلغوا بجاية وقسنطينة (5) ، وهم منشغلون بالجهة الشرقية حتى كان السلطان المريني أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق يستعد للعدوان من جديد على تلمسان ، وقاد حملة عسكرية لتلمسان فاستعصت عليه وأنسحب منها ، و احتمى أبو حمو بأسوار المدينة 714هـ/ 1314م. واغتنم ذلك أبي حمو وراح يصفي نفوذ المرنيين بالمغرب الأوسط فقضى على إمارة الثعالبة بمتيجة والكثير من المناطق الأخرى(6) ، إلا أن مما يؤسف له أن الأمير أبا تاشفين ثار على والده عام 718هـ 1318م ، فدبر له مكيدة أفضت إلى اغتياله لإثارة أبن عمه سرحان بن أبي عامر عليه وتفضيله إياه ثم تقلد الحكم مكانه (7) .

وهو خامس ملوك الأسرة الزيانية وسلك نهج أبيه في سعيه من النيل من أعدائه حلفاء المرنيين ، وكذا التحرشات والغارات على الحفصيين بالمشرق وأملاكهم ، حتى مهدت الظروف إلى احتلال مدينة تونس لمدة 40يوما (8)، وبذلك طلب أبو يحي الحفصي النجدة من بني مرين فبعث إليهم أبنه أبو زكرياء يحيى ووزيره أبو محمد بن تافرجين طالبا المساعدة والإغاثة منهم ضد هجومات بني زيان المتكرر على بلاده ، وأرسل السلطان المريني لتلمسان يطلب منها الكف عن المحظور ، فلم يقبل بذلك أبو تاشفين الأول وفي سنة 731هـ/1335م، توفي السلطان المريني أبو سعيد وخلفه أبنه أبو الحسن، فاتبع سياسة أبوه وطلب من أبو تاشفين الكف عن مضايقة الحفصيين ، فقوبل بالرفض ، وبذلك استنتج أن لا أمل في السلم بين الدولتين فشرع أبو الحسن المريني للهجوم على المغرب الأوسط ويتأهب للحرب ، فنهض في جيش كبير سنة 732هـ ، واتجه نحو تسالة بالغرب من سيدي بالعباس حاصرها فتراجع بنو زيان إلى الخلف، وشرع في غزو تلمسان وحصارها سنة 735هـ / 1335م ، فهاجم ندرومة وجدة هنين تيالة ووهران (9) وحاصر تلمسان فلم يستطيع اقتحام أسوارها ، وأعاد بناء المنصورة (10)

---

(1) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص 134.

(2) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 212. و أيضا التنسي ، نظم الدر و العقيان . ص 180-181.

(3) التنسي ، نظم الدر و العقيان ، ص 183- 186.

(4) يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، المصدر السابق ، ص 112-128.

(5) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الثاني ، المصدر السابق ، ص 16- 17.

(6) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، ص 505، وأيضا التنسي ، نظم الدر و العقيان ، ص 187-188.

(7) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7و المصدر السابق ، ص 216.

(8) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 218. و أيضا التنسي ، نظم الدر ، م س ، ص 143.

(9) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7، م س ، ص 224-226 -227، يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 218.

(10) يعيد الأثريون آثار المنصورة حاليا إلى بقايا أبي الحسن و ليس إلى مدينة أبي يعقوب يوسف بن يعقوب المندثرة سنة 707هـ/1307م .

لتكون مقرا له و لعملياته وشدد الخناق على تلمسان أكثر من 30 شهرا قاوم فيها بنو زيان ، ولم يستطيعوا الدخول إليها حتى اكتشفوا مصدر المياه فقطعه عليهم ، وفي سنة 737هـ تمكن الجيش بني مرين من اختراق الأسوار ودخول المدينة ، فقاوم السلطان أبو تاشفين وأولاده ووزرائه حتى قتلوا جميعا (1)، وبذلك أفل نجم بني عبد الواد ، ولكن السلطان أبا الحسن المريني عامل أهل تلمسان معاملة حسنة وقوى بذلك نفوذهم وشعروا أنهم الجديرين بالأرث الموحدي (2) ، وبعث له الملوك يحملونه التهاني وذاع صيته الأمر الذي شجعه على الاستيلاء على تونس ، إلا أن القبائل العربية وقفت ضده ، بالقيروان وردوه خائبا حلمه بتوحيد المغرب الاسلامي (3)، وبايعوا أحمد بن عثمان بن أبي دبوس 750هـ/1349م، وجعلوه رمزا للمقاومة وثاروا ضد بني مرين في معركة كبرى لالقيروان وكانت الغلبة للقبائل العربية التي انضم إليها الزيانيان أبو ثابت و أبو سعيد سنة 946هـ 1348م ، وانهزم أبو الحسن وضاع أمره (4)، وأراد العودة إلى سلطانه بالمغرب ، فوجد أبنه أبا عنان فارسا المتوكل قد نادى بنفسه سلطانا بحجة أنه قد أبلغ بوفاة أبيه في حربه ضد العرب ، فغادر تلمسان إلى فاس بصفته ولي العهد تترك عثمان بن جرار العبد الوادي حاكما على تلمسان و المغرب الأوسط وذلك سنة 749هـ 1348م(5) . بعد انصراف أبي عنان فارس عن تلمسان إلى فاس وانهزم أبي الحسن الكريني بالقيروان ، أنتهز الأميران الزيانيان أبو سعيد عثمان و أخيه أبو ثابت الفرصة لاسترجاع ملك أجدادهم فبويع أبو سعيد بن عبد الرحمن أميرا بعدما عملوا على كسب تأييد كل من مغراوة وتوجين وتحالفهما ، فتوجهوا جميعا نحو المغرب الأوسط إلا أن مغراوة خذلتهم عندما وصلوا شلف وتبعهم

بنو توجين ، وبقي الأميران يقاتلان في طريقهما إلى تلمسان، حتى دخلاها سنة 749هـ ، و أعادا لقبيلتهما ملكها الذي فقدته نحو 12 سنة ، وأحيا بذلك أبو سعيد دولة أجداده ، وتقاسم الملك مع أخيه أبي ثابت فالتزم كل واحد منهم بصلاحياته (6).

وشرع في استرداد نفوذ الدولة الزيانية ، في المغرب الأوسط ، الذي خلع طاعة بني زيان بعد ذهاب رسم دولتهم ، فأخضع الساحل الشمالي لتلمسان ، واحتل ندرومة و هنين ووهران ، بعدما استنفر لهذا الغرض بعض قبائل زناتة والعرب ، (7) ، في هذه الأثناء وردت إليه أخبار من الشرق عن قدوم الناصر بن أبي الحسن المريني إلى المغرب الأوسط على رأس جيش معزز ببعض القبائل العربية مثل : سويد و الديالم و العطاف وحصين ، فأرسل أبو ثابت إلى أبي عنان فارس يخبره بأمرهم ويطلب منهم المساعدة .

وفي محرم 750 هـ نهض أبو ثابت بعد أن وصلته الإعانات (8) من أبي عنان بقومه متجها نحو الشرق ، ولقي الناصر في منطقة شلف بوادي ورك من أرض العطاف وانتصر عليه وأخضع القبائل العربية ، فتراجع الناصر إلى بلاد إفريقية ، بينما عرج أبو ثابت على وهران للمرة الثانية وفتحها عنوة في نفس السنة ، ثم غزا ناحية الشلف فيأواخر شوال 750هـ وأخضع مغراوة ومازونة وما جاورها ، فأذعنت كلها إلى طاعة أبي سعيد (9)

---

(1) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، المصدر السابق ، 219، عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7، ص 229.

(2) عبد الرحمن ، العبر ، ج7، م س ، ص 537.

(3) عبد الرحمن ، العبر ، ج7، ص 558.

(4) أفلت أبو الحسن من الحصار الذي فرضته عليه القبائل العربية في القيروان ، انظر عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الزياني ، ص 27.

(5) عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج7. المصدر السابق ، ص 580

(6) التنسي ، نظم الدر ، المصدر السابق ، ص 151-152.

(7) يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1، المصدر السابق ، ص 243.

(8) كان أبو عنان يريد القضاء على أخيه و أبيه المنافسين له ، ولذلك أرسل إعانة سريعة لأبي سعيد و أبي ثابت و المتمثلة في إطلاق سراح يني عبد الواد من سجون فاس ، بالإضافة إلى بعض المال و الرجال الذين أرسلهم لمؤازرة أبي ثابت ، عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني، ج1،ص49.

(9) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج1 ، المرجع السابق ، ص 243.

وفي الوقت الذي كان فيه بنو زيان يعملون على توسيع نفوذهم و توطيد أركان دولتهم وصل إلى تلمسان نبأ نزول أبي الحسن المريني الجزائر سنة 750هـ في أسطول ضخم قادم من بجاية إلا أنه مرة أخر وبدعم من أبي عنان تمكن الأخوين أبي سعيد و أبو ثابت من رد العدوان القادم من الشرق (5)، توالت الأحداث بعدا الفتوحات الزيانية إلا أن وصل مغراوة لي تستنجد الأخيرة ورئيسها هلي بن راشد بأبي عنان المريني الذي بدوره هدد العاهل الزياني وطلب منه رفع يده على مغراوة ، غير أن أبا ثابت شدد في خناقها كونها خصمه اللدود في الكثير من المرات وألحق بها هزيمة ثقيلة وقتل زعيمها في مدينة تنس ثم عاد إلى عاصمته في 752هـ 1351م ، (2) فأصبح المغرب الأوسط قوة عسكرية تمتد بين افريقية والمغرب الاقصى (3) لكن سرعان ماتلاشت هذه السيطرة بعدما نهض أبو عنان فارس منتقما من أبي ثابت و أبي سعيد متذرعا برد شفاعته لمغراوة واتخاذها مبررا لغزو تلمسان و المغرب الأوسط و الإطاحة بعرش بني زيان (4) . وفي تلك الأثناء وصل نبأ زحف أبي عنان إلى مسامع أبي ثابت الذي كان معسكرا في منطقة الشلف فأقلع عنها وعاد إلى تلمسان يعد العدة ويجمع المتطوعين من مختلف القبائل (5) بعد التشاور كان الإجماع على المقاومة والمواجهة للتصدي للجيش المريني ، فخرج أو ثابت و أخيه أبا سعيد على رأس الجيشو أقاما معسكرهما بسهل أنجاد (6) أين دارت معركة بين الجيشين ، كان الإنتصار فيها حليف أبي عنان بعدما تخلت بعض القبائل عن أبي سعيد وعلى رأسها بني عامر (7) ، الذي أسره أبو عنان و أمر بقتله سنة 753هـ 1352م ، (8) أما الأمير أبو ثابت فقد نجا من المعركة ، وعاد إلى تلمسان ، ثم غادرها محو الشرق للإستعانة بقبائل المنطقة و الاحتماء بهم ، وقد وجد منهم العون والتعضيد و الاستعداد للدفاع عن عرشه ، عندها توجه نحو الغرب يريد مفاجأة المرنيين فانكسر جيشه للمرة الثانية في حوض الشلف (1) ولم يجد الأمير حل إلا الإنسحاب مع ما تبقى من جنده (2) نحو إفريقية رفقة أبن أخيه أبي حمو موسى الثاني فقتل الأول من طرف أحد قواد بني مرين ببجاية ، وفرار أبي حمو موسى الثاني إلى إفريقية ، وبذلك تبدأ رحلته في إسترجاع حكم أجداده وفداء دماء أعمامه أبو ثابت و أبو سعيد .....)

---

(1) يحي بن خلدون ، بغية الرواد ، ج1، ص 244-245.

(2) عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى ،المصدر السابق ، ص 30.

(3) التنسي ، نظم الدر ، المصدر السابق ، 153-154.

(4) يحي ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ج1، ص245.

(5) نفسه ، ص 245.

(6) لا تزال قرية تدعى العامرية تقع بين وهران وعين تموشنت ، انظر العبر . ج6، ص 105-106.

(7) يحي ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 246.

(8) التنسي ، المصر السابق ، ص 154.

الفصل الأول : العلاقة السياسية و العسكرية بين بنو زيان و بنو مرين

المبحث الأول : أبي حمو موسى الثاني

المبحث الثاني : بنو زيان و بنو مرين بين الحرب و الصلح

المبحث الثالث : صراع الأحفاد على الحكم

المبحث الأول : عن أبي حمو موسى الثاني

المطلب الأول : نسبه وحياته

يتّصل نسب" أبو حمّو "بمؤسّس الدّولة الزّيانيّة" يغمراسن بن زيّان ، مؤسس الدولة العبد الوادية الزيانية (1) فهو أبي حمّو موسى بن أبي يعقوب بن عبد الرّحمن ابن يحي بن يغمراسن و كان أبوه أكبر إخوته (2) ، ولد بالأندلس في مدينة غرناطة عاصمة بني الأحمر سنة 723 هـ ، وهي السّنة الّتي عاد فيها أبوه إلى تلمسان بدعوة من السّلطان" أبو تاشفين الأول "، لينشأ بها" أبي حمّو "نشأة أبناء الأمراء كأصحاب السّلطة إذ عرف حياة البلاط ، وتعلّم على يد أشهر العلماء كالمشايخ الّذين «لم تطلعنا المصادر على أسما ئهم »(3)، فنال حظّه الوافر من العلم الّذي مكّنه من «حفظ القرآن الكريم كالحديث » (4) ، ومن تحصيل مبادئ العربيّة، وعندما بلغ سنّ الرّابعة عشر استولى المرينيون على تلمسان سنة 737 هـ ممّا اضطرّه للانتقال إلى فاس رفقة أهله وأبناء قبيلته، ليوجّه اهتماماته لطلب العلم ، بعد أن وجد الجوّ المناسب لذلك، إذ كانت فاس من أهمّ مراكز الثّقافة الإسلاميّة آنذاك ، وبعدها انتقل إلى مدينة واستقرّ بها، فتزوج ورزق بأكبر أبنائه" أبو تاشفين752 "هـ.

وبعد هذه الفترة بدأت ميوله للعزلة والزّهد عن الدّنيا تنمو وتتّقد، وكأنّه كان في مرحلة إعداد روحي قبل التفرّغ للملك الّذي كان له فيه باع طويل وأحداث مختلفة ، وعرف عن هذا الأمير أنه من أشد بني عبد الواد بأسا، وأعظمهم بين النفوس مهابة وإجلالا، وأعرفهم بمصالح قومه، اشتهر بحصافة الرأي وسداد التدبير، وهو القائل عندما بلغه أن هناك من يتحدث عن علاقته بالأسرة الشريفة، " إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فإنما نلناها بسيوفنا."(5) و من سلالته كان صاحبنا أبو حمو السلطان الشاعر. وقد درس على يد أشهر العلماء ، فنال من العلم حظا وافرا مكنه من تحصيل مبادئ اللغة ، العربية و العلوم الإسلامية ، فيقول عبد الرحمن الجيلالي : " وكانت نشأته (أي أبي حمو) بتلمسان أخذا بحظ وافر من علم و أدب وسياسة وحزم و سداد رأي و فروسية ، وكان شاعرا معلقا له قصائد الغراء الطويلة ، فما كانت تمر ليلة من ليالي ذكرى المولد النبوي الشريف إلا ونظم فيها قصيدا جيدا " (6) ، هذا المنهل العذب الذي شرب منه أبي حمو أنبته نباتا حسنا ، و أهله أن يكون مثالا للسلطان دينا ودنيا ، فقد شجع الحركة الفكرية و أكرم العلماء ، وبر والديه ، فيقول عبد الحميد حاجيات : " كان أبي حمو ذا أدب (...) فشجع الحركة الفكرية و أكرم العلماء و الشعراء ، وكان أيضا رجل دين وتقوى و أخلاق كريمة ، بارا بوالديه ، معتنيا بتربية أولاده و تثقيفهم " (7) هذه السيرة انعكست مرآتها في إبداعاته الأدبية خاصة النثرية منها ، فقد ألفيناه يفتتح كتابه وسائط السلوك في سياسة الملوك بأهمية الأولاد في الحياة ، معتبرا إياهم أكبادا ، ورياحين الجنة ، فوجب على الآباء أن يكونوا مثل السماء الظليلة للأولاد . إذ استطاع أبي حمو موسى بفضل أخلاقه و علمه و فروسيته أن يبعث الدولة الزيانية بعد اندثارها ، وأن يعيد لها مجدها و عزتها رغم تضافر الأسباب للإطاحة به و قتله في الكثير من المرات بينما واجه الصعاب برباطة جأش ، وقاوم الأعداء بكل ما أوتي من قوة سواء من الداخل أو الخارج وقد تمكن بفضل سياسته وحنكته

---

(1) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وأثره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1982 ، ص 69

(2) المرجع نفسه ، ص 311.

(3) المرجع نفسه ، ص 69.

(4) المرجع نفسه ، 72.

(5) مجلة الأصالة : عدد 26 ، سنة 04 جويلية ، أوت 1975 مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر.

(6) عبد الرحمن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر ، ج2 ، ص 252.

(7) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو ، حياته و أثاره ، ص 220

المطلب الثاني : سقوط دولة بني زيان والخبر عن إجفال أبي حمو ع تلمسان

بانكسار جيش الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت وموت الأول الذي قام أبو عامر بأسره وقتله في العاشر من جمادى الأول سنة 753هـ/ 1352م. نتيجة تخلي بعض القبائل عنهما من جهة وقوة الجيش المريني بقيادة أبو عنان من جهة أخرى زال سلطان بني زيان وبذلك لم يجد الأمير أبو ثابت بديل إلا الانسحاب بما تبقى من جنده إلى الجزائر ومنها إلى تدلس ثم توجهوا نحو إفريقية ولم وصلوا وادي بجاية قبض عليهم صاحب بجاية أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي وهو من أتباع بني مرين فقام باعتقالهم ثم تسليمهم إلى زعيم سويد ونزمار بن عريف الذي بدوره سلمهم الى بني جرار للانتقام منهم فقتلوا أبا ثابت ووزيره في شهر رمضان سنة 753هـ/1352م أما أبو حمو موسى الثاني فقد نجا الى تونس و استولى المرينيون على تلمسان ، ومن هنا تبدأ رحلة او حموى موسى في استرجاع ملكه المغتصب . (1)

– حيث يذكر المؤلف المجهول صاحب زهر البستان في الجزء الثاني منه قد اكتفى بالانتقال مباشرة إلى وُجودهِ في تونس؛ دون توضيح الطريقة التي وصل بها حيث كتب : خروج أبي حمو موسى الثاني من البلاد منفردا مثل سلفه:

(قد تقدم في السفر الأول دخول الجزائر على أهلها عنوة وما لقي أهلها من روعة السطو وذلها و أن بني عبد الواد أخذ كل أحد في البلاط طريقه وترك أهله وصديقه فكان المولى أبي حمو في جملة من خرج وعاين المشقة والحرج فدخل تونس في السادس شوال من عام ثلاثة وخمسين بعد السبعماية أقام بها خمسة أعوام) (2).

يشير هنا إلى الموقعة التي حدثت بنواحي الشلف في آخر ربيع الثاني من عام 753 هـ 1352 /م؛ أين انكسر جيش بني عبد الواد؛ فانهزم قائدهم السلطان أبو ثابت بن عبد الرحمن إلى الجزائر؛ ثم خرج منها هاربا نَحو شرق البلاد؛ فسقط أسيرا بَين يدي أنصار المرينيين .(3).

وثمة خلاف حول تفاصيل الكيفية التي وصل بها أبي حمو إلى تونس؛ فبينما يكتفي عبد الرحمن بن خلدون بالقول: ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية؛ أغفل أمر أبي حمو من بينهم، ونبَت عْنه العيون؛ فنجا إلى تونس (4)

يتضح أن يحيى بن خلدون تكفل بسرد قصة مفادها أن أبا حمو كان رفقة عمه السلطان أبي ثابت؛ حين انهزم من الجزائر؛ ولما قبض عليه؛ ادعى أنه هو السلطان؛ كي يفدي عمه؛ ولكن المرينيين اكتشفوا الحقيقة بعد حين؛ فأطلقوا سراح أبي حمو، وقتلوا عمه؛ فلما سرحوه توجه إلى تونس .أنظر هذه الحكاية التي يكون قد انفرد بها يحيى بن خلدون؛ هذا في حالة ما إذا لم يكن صاحب زهر البستان قد ذكرها في الجزء الأول المفقود .(5).

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب و العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج7 ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ص 161-162.

(2) مؤلف مجهول ، زهرة البستان في دولة بني زيان ، تحقيق و تقديم بوزياني الدراجي ، ج2 ، مؤسسة بوزياني للنشر ، الجزائر ،2013، ص

(3) أبي زكرياء يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1، مطبعة بيير فونطانا الشرقية ، الجزائر،1321 سنة 1903 ،ص 246 247 .

(4)عبد الرحمن بن خلدون ، المرجع السابق ، العبر ، ج7 ، ص255

(5) أبي زكرياء يحي بن خلدون ، تحقيق بوزيان الدراجي ، بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد ، ج2 ، دار الأمل للدراسات . الجزائر،50-51

بينما يذهب أبي حمو موسى نفسه في كتابه وسائط السلوك في سياسة الملوك للقول :
لنصحه ابنه وإفهامه مدى أهمية الجيش في ملكه وسلطانه حيث قال اعلم يا بني أن الملك بدون جيش كالأرض بدون نبات أو الطير بدون ريش ويحثه على عدم المخاطرة فأنها غير محمودة العواقب إلا في طلب الملك والسلطان فأنها محمودة في هاذ الشأن لأن الملك إذا خاطر بنفسه في طلب سلطانه واسترجاع بلاده و أوطانه حمدت مخاطره في سره و إعلانه فأنه إذ نجح سعيه وأنتج رأيه نال غاية مطلوبة وبلغ نهاية مرغوبة وان عاقه حلول منيته دون بلوغ أمنيته فله في ذلك أوضح عذر و أجمل ذكر وأعظم فخر كما قال آمرو القيس : بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه .....وأيقن أنا لاحقان بقيصر
فقلت له لا تبك عينك إنما ..... نحاول ملكا أو نموت فنعذر وقد خاطرنا نحن في ذلك وسلكنا بحول الله أحسن المسالك وأوردنا العدا موارد المهالك وذلك لما هجتنا الحمية ودعتنا النفوس الأبية للانتصار لملكنا و سلطاننا ورد دولتنا إلى نصابها واستخلاصها من أيدي غصابها فطوينا المراحل وحثثنا الركائب والرواحل ورحلنا مستعنين بالله سبحانه في كل سكنت و حركة معترفين من الله عز وجل كل يمين وبركة فكان ابتداء حركتنا السعيدة من تونس بالجد و الالتزام عاملين على مدينة تلمسان حضرة أسلافنا الكرام (1) ..... وبذلك أنفصل أبو حمو موسى من عمه الملك أبي ثابت و أستمر في ثوب التنكر حتى نجا إلى تونس فرفع قدره السلطان أبو إسحاق بن أبي زكرياء الحفصي و هو الذي تولى الحكم على تونس من سنة 750هـ/1350م إلى سنة 770هـ/1369م .(2) و الحاجب أبي محمد بن تافراجين (°) فعاملاه معاملة السلطان ، فأكرموا نزوله و أحلوه بمكان أعياص الملوك في مجلس سلطانه ووفر جرايته ، ونظم معه آخرين من فل قومه وأقام في حضنهما مكرما مجرى عليه لمدة خمس سنوات و كان أبو عنان قد أرسل إلى السلطان الحفصي ، يطلب منه طرد أبي حمو موسى الثاني و إخراجه من بلاده إلا أن أبا إسحاق لم يكترث بطلب أبي عنان واستهان به ولعل هاذا الرفض يكون من بين الأسباب التي عجلت بخروج أبي عنان لاحتلال الديار الإفريقية سنة 758هـ/1357م.(3)
وكان أبي حمو هو الأخر قد فر مع السلطان الحفصي إلى الجريد بجنوب افريقية و أقام معه بهذه المنطقة حيث تعرف على بعض رؤساء القبائل التي يمثلها عرب الذواودة (من رياح) فاقترب منهم أبو حمو الثاني وتأنس بهم فحصلت بينهم صداقة و مودة وعلاقة طيبة جعلت من عرب الجريد يعجبون بثقافته وفصاحته وطموحه المتوقد فتعلقوا به وبصاحب نعمته أبي إسحاق الحفصي فأعلنوا عن نقض طاعة بني مرين و انحازوا إلى أبي إسحاق وصاحبه الزياني (4) ، ولما كانت سنة تسعة وخمسين و سبعمائة اجتمع أمراء الزواودة من رياح إلى الحاجب أبي محمد تافراكين ورغبوه في إلحاق أبي موسى الثاني بالمغرب الأوسط وهي الرغبة التي لمسوها في الأمير الزياني ومنه حتى يشغلوا الجيش المريني بذلك عن تونس ويقطعوا عنه الإمدادات من المغرب الأوسط وضمنوا له المساعدات والمناصر وطلبوا منه تجهيز آلة السلطان لهذا الغرض وافق الوزير على ذلك ولم ينقض وقت طويل حتى استطاع بنو حفص من إعادة عرشهم ورجعوا إلى عاصمتهم مدينة تونس ، فعاد أبي حمو معهم ومنها بدأ هذا الأخير يعد العدة ، وبعدها وفد عليه شيوخ الذواودة (عرب رياح) وبني عامر و بني عومته جماعة زناته و من معه فتعزز صفوفه وقوي جيشه فضلا عن مساعدة بني حفص (5)

---

(1) أبي حمو موسى الثاني ، وسائط السلوك في سياية الملوك ، ص11
(2) عبد الله التنسي ، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، حققه وعلق عليه محمود آغا بوعياد ، موفم للنشر، الجزائر ، 2011، ص 157.
(°) محمد بن تفراجين : أبا محمد عبد الله بن أحمد بن تافرجين وزير السلطان أبي إسحاق بن أبي زكرياء الحفصي .
(3) عبد العزيز فيلالي . تلمسان في العهد الزياني ، ج1، موفم للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002، ص 53
(4) عبد العزيز فيلالي ، المرجع نفسه ، ص 53.
(5) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 163.

المطلب الثالث : محاولة أبي عنان اليائسة وارتحال أبي حمو على رأس جيش في أثره و تلمسان المبتغى

ويلفت النضر هنا عن حادثة مهمة : أستعمل ابو عنان الحركة للبلاد الشرقية ،وأظهر فيها قوة عزته القوية ،فكانت له حركة شهيرة،إلا أنها كانت الأخيرة. أعد لها الأعداد وحشد لها الأحشاد واحتفل بالرماة والأغزاز (وهم مجموعة من الرماة الترك ذوي دقة في الرمي) عاملا على البلاد الإفريقية ، ليزيل منها أثار أهل التوحيد ويقصد هنا بنو حفص وأرتحل عاملا بالمحال (مفرد محلة وهو المعسكر المؤقت) حاشدا في جرته الحشود والأبطال إلى أن حل بقسنطينة فنزلها ولم يقتصر على حصار البلد ورأى الفرصة وانتهزها وفضلها فأضرم عليها نارا بحدته و أضهر غاية قوته فاتفق أن غدر أهلها بسلطانهم فعاقبهم الله بخذلانهم فعندما أيقن صاحبها بغدر أهلها بسلطانهم ، فعاقبهم الله بخذلانهم فعندما أيقن صاحبها بغدر أهل بلاده ،خدم على رأسه ، وعلى أهله وولده ،وأسلم أهل البلاد إلى السبا من السبي أي الأسر و أرتحل أبو عنان يريد تونس والأعراب بين يديه جافلة ، وهو على حنق ، في طلبها ، وراجيا أن يأخذ بثأر أبيه أبو الحسن فلما أقترب من تبسا البلد المذكور وتعرضت له الأعراب بما حشدت من الحشد الموفور فعندها ، علم بنو مرين أن الأعراب عولت عليهم والإمداد قد تسيرت إليهم رجفت قلوبهم رعبا وخافوا أن تكون أموالهم للأعراب نهبا فعندما ارتحل يريد القدوم إلى تبسه نكص جيشه على عقبه كأنه لم تكن به تياسا (التشبه بالتيس في الفحولة) و صاحوا بصوت واحد : الرجوع فعاد تبعا بعد ما كان متبوعا وبالنسبة وضيعا بعد ما كان رفيعا ، فكان ذلك اليوم على المولى أبي حمو يوم فتح وعلى أبي عنان يوم شؤم ونوح وعندما أخبر المولى أبي حمو برجوعه والسبب الذي أل به ' من فساد جموعه ،اقتفاه ،تابعا أثاره راجيا أن ينال وطره ولكن لم تحكم الأقدار أن يدور بينهما كاس حمام (حرب او معركة) (1)

وفي الأثناء أرتحل أبي حمو موسى الثاني على رأس جيش من الذواودة وبني عامر ، ومن أبناء عمومته زناته ومن كان معه من بني زيان ، بعد عيد الفطر سنة 759هـ/1358م. نحو الجريد ، ومنها إلى مدينة ميلة يقتفي أثر جنود أبي عنان و أنصاره ، حيث تمكن من احتلالها و طرد من كان فيها من جند بني مرين (2) ، ثم نهض إلى (غنية) وهي منطقة تقع بين جبال لأوراس وجبل عياض فعسكر بها ثم جد سيره نحو بلاد الزاب بمجموعه يريد تلمسان وخاصة بعد معرفتهم أثناء طريقهم بمهلك السلطان أبي عنان ، فقويت عزيمة بني زيان على استرجاع ملكهم (3) ، ويبدوا أنه ولأسباب أمنية غير اتجاهه نحو الجنوب فعرج على وادي ريغ و ورجلان ومنها اتخذ مسلكا أخر نحو الشمال الغربي في اتجاه وادي زرقون حيث حط رحاله بها وعسكر فيها بجيشه للراحة والاحتفال بعيد الأضحى عدة أيام ثم نهض على أثر أخبار تفيد بأن أعراب سويد ، أعداء بني زيان استولوا على وادي ملال ، جنوب مدينة تلمسان بالقوة وطردوا أهلها ، ففاجأهم أبو حموا وباغتهم في ديارهم فقاتل قائدهم عثمام بن ونزمار بن عريف ، وكثيرا من وجوه القبيلة وأعيانها ، وطردهم من الوادي ، في ذي الحجة سنة 759هـ/ 1358م.(4) فاحتل بذلك أبو حموا موسى وجموعه بساحة تلمسان

---

(1) مؤلف مجهول ، زهرة البستان في دولة بني زيان ، نفس المصدر السابق ، ص 21-22.

(2) أبي حمو ، وسائط السلوك ، المصدر السابق ، ص 13.

(3) يحي بن خلدون ، بغية الرواد، المصدر السابق ، ص 65

(4) التنسي ، نظم الدر و العقيان ، المصدر السابق ، ص 158.

فيقول أبي حمو موسى في كتابه وساطة السلوك في سياسة الملوك فبادرنا حضرة ملكنا أجمل مبادرة ، وخاطرنا في ذلك أعظم مخاطرة ويسر الله لنا في الفتح أتم مياسرة ، ونزلنا ساحتها ورياح النصر على رايتنا خافقة ، ودلائل السعد تشهد مقدماتها ان نتائجها صادقة ، فألفينا بها ابن السلطان المريني فأزلناهم وساء صباح المنذرين ليخرجوا على بلادنا وميراث أبائنا و أجدادنا فأبوا إلا تماديا في عنادنا فبرزوا إلينا بظاهر مدينة تلمسان في عدة نيف على ألفين من أنجاد الفرسان يتقدمهم المهدي بن السلطان ابن عنان فلما التقى الجمعان وشرعا في الضرب و الطعان رأوا منا مالا قبل لهم به ولا طاقة لمن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا بحربه فأحجموا بعد الإقدام و تزلزلت منهم الأقدام وانهزموا هناك أي انهزام حتى كان البطل الشجاع من أبطالنا يقدم منهم عشرة من أمام طعنا بالرمح وضربا بالحسام

كما قيل في بيته الشعري

وأمر كان المصطلين بحره ....وإن لم تكن نار وقوف على الجمر

صبرنا له حتى تناهى وإنما ....تفرج الأيام الكريهة بالصبر (1)

فنكصوا على أعقابهم وسيوفنا متحكمة في رقابهم ولجوا إلى الفرار وحل بهم الخسار والبوار ولم ينفعهم التحصن بالأسوار من شبا سمر الرماح وظبى بيض الشفار وتركناهم الى غد ذلك اليوم ابقاء منا على القوم ولم تكتحل أجفانهم تلك الليلة بنوم فلما كان الغد افتتحناها عنوة عليهم وخلصنا من جميع جهاتها إليهم وذلك غرة ربيع الأول من سنة ستين وسبعمائة فشفعوا إلينا بالفقهاء والصلحاء في الأبقاء عليهم وخلصو الى غربهم بجميع مالديهم فأسعفناهم بما طلبوا من العفو وسوغناهم من الأمان العذب والصفو وذلك هو المعهود منا ومن أسلافنا الكرام وخيرناهم بين الإنصراف و المقام فمن انصرف فمبلغ المراد والمرام ومن أقام للخدمة المرضية فمرعي الذمام ومحمول على ساعد البر والإكرام كما قيل في أبياته :

جنحوا الى السلم التي سلموا بها ....لما انبرى ليث الشرى ليصولا

وتوهموا شهب النجوم أسنة ....وتخيلوا لمع الروق نصولا

حملوا شروطا لم تكن محمولة ....لاكن من خاف استخف ثقيلا

فاستقللنا بحضرتنا العلية والبلاد كلها مرينية واستولينا على ماكان بتلمسان واستقر لنا بها الملك والسلطان ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان ليس بيننا إلا مسيرة يوم أو نصف يوم ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنومفلم نزل نستعمل معهم المحاولات والكائد وننصب لهم الأشراك بكل المراصد إلى ان استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم وجازيناهم على تعديهم وذلك بمحاولة وقهر ومساعدة دهر

و دخلناها عليهم دون كثير جيشن ولا مال فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم وأحوالنا أحسن من أحوالهم وأعدادنا أكثر من أعدادهم وأردف بقصيدته التي يفتخر ببلاغتها

جرت ادمعي بين الرسوم الطواسم ::::شحظتها من هبوب الرواكم

وقفت بها مستفهما لخطابها ::::واي خطاب للصلاد الصلادم

وسرت على جون أقب مضمر ::::كلمعة برق أو كلمحة صارم

وجلت بطرف الطرف في عرصاتها ::::كجولة واه أو كوقفة هائم

وصفقت مابين الطلول خوامسي:::: وسالت سواقي الدمع مثل الارقم

---

(1) أبي حمو موسى الثاني ، وسائط السلوك فيسياسة الملوك ، ص 13-14.

ديار عهدنا هابها الشمل جامع :::: مع الغانجات الأنسات النواعم
وكم ليلة بات السرور مساعدي :::: بسعدي وسلمى والمنى ام سالم
فعادت رسوم الدار بعد انيسها:::: عشيما ولاتخفى بقايا المراسم
وكم نسجتها من جنوب وشمال:::: وكم سجعتها من لغات الحمايم
كأني بهم والله يوم تحملوا :::: وحادي النوا يحدو هوادي الرواسم
قطعت الفيافي بالقلاص وانما :::: تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعا :::: تسابق في البيدأ ضليم النعائم
مكحلة الأحداق فيها هشاشة :::: مهملجة الأطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوي بها الفلا::::يرون المنايا بعض تلك المغانم

والظاهر أن الشيء الذي زاد في عزيمته وسرعته سيره إلى المدينة تلمسان هو خبر وفات السلطان أبي عنان وهكذا حرر أبو حمو عاصمة بلاده من السيطرة المرينية التي دامت ست سنوات ، ودخل أبي حمو مدينة تلمسان منتصرا مع أنصاره و عشيرته يوم الأربعاء ثمان من ربيع الأول ، سنة 760هـ/1359م ، ودخل القصر السلطاني ، وجلس على كرسي الحكم ، وبويع به بعد أن أخرج بنو مرين من أمصار مملكته ، ومهما يكن من أمر فالجدير بالإشارة إليه هو أن المرحلة العسكرية الطويلة التي خاض أهوالها أبو حمو موسى الثاني و أنصاره من افريقية إلى أقصى المغرب الأوسط ،لم تكن سهلة ميسورة ،بل كانت صعبة محفوفة بالمخاطر ، استطاع أبي حمو وجنوده ،أن ينتصروا في كل المعارك التي واجهوها في طريقهم في الصحراء وفي الهضاب وفي التلال ، واستغرق سيره نحو تلمسان أكثر من ستة أشهر كاملة ، (1)

ثم أخذ يبسط نفوذ دولته على تراب المغرب الأوسط بالترغيب حينا ، وبالترهيب أحيانا ، فجاءته وفود القبائل المختلفة تقدم الولاء والبيعة والطاعة ، من مناطق عديدة من المغرب الأوسط ، ولاسيما منهم سكان ندرومة(°) وهنين (°) وجدة (°) وهي المدن المجاورة لتلمسان والقريبة منها ثم تقدم أنصاره وحلفاءه من بني عامر والمعقل ، مبايعين ومهنئين ، وكان عددهم يبلغ نحو ثمانية ألاف رجل ، بذل لهم أبو حمو موسى الثاني ، العطاء والهدايا من بيت المال ووزع عليهم المحاصيل الزراعية من قمح وشعير ، وأهدى لرؤسائهم عدد كبير من الخيول وسروجهم ، التي غنمها من عسكر بني مرين وغيرها من الأمتعة الكثيرة التي جمعها المرينيون ، ويريدون إرسالها هدية إلى الملك الإسباني القطلاني ، كما أقطعهم أبو حمو موسى الثاني ، أيضا كثيرا من الأراضي الخصبة ، وكذلك وصلت وفود أخرى ، قدمت من مستغانم و تمزعران و البطحاء للمبايعة و التهنئة بإعادة العرش، وكان أبو حمو الثاني قد بعث والده أبا يعقوب على رأس جيش كبير الى المنطقة الشرقية للبلاد لفتكك هذه الأقاليم من أيدي عمال بني مرين وحلفائهم ، فاستطاع أبو يعقوب أن يفتح الشلف وملیانة ولمدية و الجزائر التي اختارها أن تكون مقر لولايته(2)

---

(1) أبي حمو موسى ، وسائط السلوك ، المصدر السابق ، 14-15

(°) ندرومة مدينة في تلمسان في شمال غرب الجزائر ، بناها عبد المؤمن بن علي الموحدي و الذي ولد فيها أيضا ، ولها تاريخ إسلامي عظيم ، يحتوي جامعها الكبير على آخر منبر مرابطي متبقي ،

(°) وهنيين : مدينة تقع شمال غرب الجزائر في ولاية تلمسان تتمركز هذه المدينة التاريخية وسط الطريق الساحلي الرابط بين الغزوات و بني صاف

(°) وجدة : مدينة مغربية تقع في عمالة وجدة أنكاد و هي عاصمة جهة الشرق و أكبر مدينة بالجهة و تعتبر مدينة حدودية .

(2) عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ص ، 55

المبحث الثاني : بنو مرين وبنوا زيان بين الحرب و الصلح

المطلب الأول : رد فعل مرين ووزيرها المستبد الحسن بن عمر الفودودي

لم يقف بني مرين مكتوفي الأيدي أمام هذه الحوادث ،خاصتا بعدما وصل بلادهم أولاد عريف (عرب سويد) بعد هزيمتهم بوادي ملال(1) قصدا لاستنهاض بني مرين نحو أبو حمو ورغبوه في الزحف إلى تلمسان، فوصلوا إلى فاس وأميرها يومئذ السعيد ابن سلطان أبي عنان(°) إلا أن زمام الأمور كان وقتها بيد الوزير الحسن بن عمر الفودودي الذي بعد ما بيع السلطان الصغير العيد أستبد هو بالحكم فبسطو أمال القوم وزخرفوا لهم الأحاديث الواهية ووعدوهم الأماني الضالة وبذلك حشد لهم الوزير جيشا قصد استرجاع تلمسان و أحوازها حيث سير لها القائد مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي قاصدا أبا حمو موسى الذي رأى أن يغادر تلمسان وينسحب لقلة ما كان فيها من الجنود وأيضا حتى تذبل شوكة العدو وتهن سورته ثم يناجز الحرب فخرج أبي حموا وسارا حتى التحق بقبيلة بني عامر في الجنوب أوائل جمادى الأولى 760هـ فتلقته أرهاطهم وعشائرهم بالحاميات المحضات و الأهواء المؤتلفة ولحينه أرسل أبو حمو الثاني من أعيان قبيله رسلا إلى المعقل(عرب اليمانية) شيعة أمره العزيز وكانوا برأس العين (°) يدعوهم لمساندته والوقوف معه في حربه والموعد وجدة ثم عرج إليها فسبقه للحلول بساحها عرب المعقل فأرسل إليهم مسعود بن رحو رئيس بني مرين ابن عمه عامر بن إبراهيم من ماساي بالعساكر ليناجزوهم القتال والتقى الفريقان بظاهر وجدة فانهزمت مرين هزيمة كبيرة وقتل القائد عامر المذكور وحمل إلى أبو حمو موسى رأسه وطار خبر هذه الوقيعة إليه وتزعزع كيان مسعود بن رحو و اضطرب أمره وماج عسكره ونكثوا بيعة السعيد ملكهم واختلفوا ، فبايع منهم رهط يعيش ابن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق(°) وبايع الوزير مسعود بن رحو و الجم الغفير من بني مرين منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد ابن يعقوب بن عبد الحق(°) فتابعهم الأخرون وفر يعيش المذكور على وجهه وارتحل القوم مغربين على طريق الساحل و العرب تحيفوهم بعد إرسالهم أبا زكرياء يحي بن موسى الجمي (°) إلى الخليفة أبوي حمو موسى الثاني بعقد مشهود التزموا فيه الصلح، ولحق العرب العامرية و المعقلية بأبي حمو موسى ظاهر وجدة تعرض أبطالها العديدة وارتحل من حينه إلى دار ملكه العزيز ودخل داره العلية وذلك لانقضاء ثمانية وعشرين ليلة من خروجه وبلغ خبره أحمد بن أجانا (أحد قواد بني مرين) المتخلف قائدا بوهران فأسلمها وفر خائفا وجئ بيه مأسورا إلى أبي حمو موسى فأعتقه وسرحه إلى المغرب و أيضا بعث بشعيب ابن إبراهيم المعطاوي من كبار قبيلته بجيش لمنازلة مدينة تنس ففتحها واعتقل قائدها أبن أحشمي أحد قواد بني مرين وأخذه إلى أبو حمو فأعتقه هو الأخر ولم يعرض لشيء من دنياه العريضة ،خليفة كرم وفعال ماجد سري الهمة (2)

---

(1) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى ، ص 93-94.

(°) هو أبو بكر ابن أبي عنان فارس ابن أبي الحسن علي ، حكم بعد مقتل أخيه محمد لمدة سبعة أشهر تقريبا .

(°)عين بني مطهر الأن وهي تابعة لبركان المغاربية

(°) في العبر مخ ، يعيش بن علي ابن أبي زيان بن السلطان أبي يعقوب ، هذا ولم يرد ذكره في كتاب روضة النسرين .

(°) سماه صاحب العبر : منصور بن سلمان ابن أبي مالك ابن يعقوب بن عبد الحق ولم يذكر في زهرة البستان .

(°) ذكر يحي بن خلدون في الجزء الأول من بغية الرواد أنه تولى – في البداية – الوزارة لأبي زيان ابن عثمان بن يغمراسن الذي حكم من سنة – 703هـ / 1303م إلى سنة 707هـ / 1307م) و في عهد أبي تاشفين الأول (حكم من 718هـ/1318م إلى 737/1336م) نراه قائدا في الجيش المهم أنه أصبح في سن متقدمة .

(2) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد في الملوك من بني عبد الواد ، ج2 ، ص : 125-128.

المطلب الثاني : استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان ،ورجوعه للمغرب بعد ما ولى عليها أبو زيان حافد السلطان ابو تاشفين وما آل أمره

الخروج الثاني لأبي حمو موسى من دار ملكه تلمسان و الفرار بأهله وحاشيته إلى الفيافي وذلك راجع للغزو المريني المكثف لها وهنا نجد أن الأسباب لهذا الغزو الثاني متعددة فيعود المؤلف المجهول في كتابه زهرة البستان أن السبب الذي حرك السلطان أبا سالم المريني (°) مع أنه كان غارقا في اللذات و الراحات إنما هو خبر الجزائر التي لجأت أليه وذلك أن أهلها يبعثون في البحر الإرسال ويطلبون منه النصرة ،وتوسلوا إليه أن يزيل عنهم ما آلمهم من الحسرة ويدعوه النجدة حين عاينوا الأهوال وفي نفس الوقت يطمئنونه فكان قائد البلد يكتب بضعف بني عبد الواد وقلة أمالهم في البلاد ويدعونه بفكهم من فقيد أسرهم و هو ما وجدوه في أبو سالم ولمسوا رغبته في استرجاع تلمسان من بني عبد الواد (1)

أما يحي ابن خلدون فيذكر في كتابه بغية الرواد الجزء الثاني أن سبب الذي حرك السلطان المريني أبو سالم هو أن السلطان نفسه راسل أبي حمو الثاني في سراح أو تسريح أسرى قومه ،فرد عليه أبو حمو الثاني بأن أكفاء عبد الواد المثقفين عندكم من كائنة أنجاد (هم الأسرى الذين وقعوا في قبضة جيش أبي عنان ، في المعركة التي دارت في أنجاد بين المرينيين وبني عبد الواد في عهد السلطان أبي سعيد عثمان عم أبي حمو) فإن رضيتم فداء(ما يقدم من مال ونحوه لتخليص المفدي ويمكن انه يقصد هنا مبادلة فردين من قبيلتنا بفرد من قبيلكم كونهم اعلى مرتبة وشأن .....) اثنين من قبيلتكم بواحد من قبيلتنا فعلناه فتعجب لذلك وشمخ بأنفه عنه تفاخر وتكبر فنحلت بذلك عرى السلم وقامت على قدمها سوق الحرب وجلبت إليها سماسرة الفتن (2)

فهنا يمكن ان نقول على اختلاف تعبير الكاتبين إلا أنهم كانوا يدورون في نفس الفلك وهو تحرير الرهائن هاذا السبب الواضح أما السبب المخفي فقد كان أبو سالم يسعى لاسترداد تلمسان وبعث سلطان بني مرين من جديد في المغرب الأوسط ، فجمع الأحشاد وولف الأعداد واستقى (°) ولم يترك بالمغرب خيلا ولا رجلا ولا شابا ولا كهلا فجمع ألوف الأعداد و الكثير من الإمداد و الأحشاد والرماة المترجلة من الأندلس والمغرب وبادر لتلمسان ليدرك ما

يطلب ، ولم يزل يرحل يحمل المحال بالمسير إلى أن اتصل بأطراف البلاد في الزمن اليسير، هذا ما كان من خبر أبى سالم أما خبر المولى أبي حمو ، وما كان من حركته الناجحة فأنه لا يغفل عن حال ولا يلهيه شيء عن البحث والسؤال يبعث الجواسيس حينا بعد حين لتأتيه أخبار بني مرين فأتته الجواسيس بالحركة فعرفها يقينا و أوصاف بالمحلة (المكان الذي يحل فيه) ولم تأكد بقدوم عدوه وهو يريد بلده وأوطانه أعلم أرباب دولته ،و أشياخ حضرته ، وفرسان صولته أن أبا سالم قادم على البلاد وعامل على قهر بني عبد الواد ثم تحدث معهم يسمع آرائهم فمنهم من يقول بالملاقاة ومنهم من يقول بالفساد وشن الغارات، ولكنه أخذ في الآراء بين مصيب وخاط ،وبعد حقت الحقائق، بين مغرب ومشرق متواط (أي متواطئ) أمر بني عبد الواد بعمل الأزواد (أي التزود بالماء والطعام) ووجه إلى أبيه المولى أبى يعقوب ، يأتيه بمن معه في البلاد.(3)

---

(1) مؤلف مجهول ، تحقيق بوزيان الدراجي ، زهرة البستان ، ج2 ، ص 140.

(°) هو أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق حكم من 760هـ/1358م إلى 762هـ /1360م .

(2) يحي ابن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج2 ، ص 147-148.

(°)يقصد هنا ألف بين الأعداء وطلب منهم الدعم.

(3) مؤلف المجهول ، زهرة البستان ،ج2 ، ص 141-142.

ثم قال للحاضرين : على الصحراء فإنكم ستحمدون إن شاء الله فاشتغل الناس بالعمل على السفر و التجهيز بما يحتاجون إليه ووصل أبو يعقوب بالأهل و الأولاد وبمن بقي في البلاد وأمره أبي حمو بالخروج مع الأثقال بحفظ العيالات والأحمال ، وبقي أبو حمو بتلمسان، بمن معه مكن الحماة الفرسان و أبطال الجلاد و الطعان يترقب ، وصول أبى سالم لأطراف البلاد ولما حل ابو سالم خرج أبي حمو ، طالبا للمغرب ، بما معه من الأحشاد حيث أظهر أنه يريد الصحراء ، وموه للسماع بهذه الأمور ، فتلا (تبع) أباه واليمن يصحب راياته والفتح يتلو عليه سور آياته ، فهذا طالب للبلاد الشرقية ، وهذا زاحف للبلاد الغربية.هذا قاصد للتمهيد وهاذ قاصد للتخريب و التنكيد، (1) فكان أبو سالم ، لايقرب من تلمسان مرحلة إلا زادا المولى أبي حمو للمغرب منزلة وكان أبو سالم يعرف بخروج أبي حمو للصحراء في قبيله وأعرابه النصحاء ودخل تلمسان بمن معه من الأحشاد ، واستظهر بقوة العدد والأعداد، ولم يثن عنانه إلا بحضرة تلمسان وبقصرها الأعظم فأتته أهل تلمسان للمبايعة ، وبادروا بالرغبة على أنفسهم والمصانعة فعفا عنهم وبسط أمالهم وهدر جباياتهم عليه، وأفعالهم وبعث الكتب إلى البلاد الشرقية بالأمان ، وللبلاد الغربية بالفتح لهذه الأوطان وعزم على أن يجعل تلمسان دار إمامته، ويتخذها عوض عن فاس لإقامته أما أبي حمو فقد أمر بالرحيل إلى البلاد الغربية لقتالها ولخراب حصونها ولزلزلها ، فأول حصن نزله تاوريرت، فوجد أهله قد جفلوا منه خوف القتل والتعسف ، فأمر بهدمه وخرابه ووكل به عامة محله وأعرابه، ثم ارتحل إلى حصن أوطاط، فعنف على أهله أعظم تعنيف ثم تمادى إلى أرجوا ، أمنع هذه القلاع وأشد بأسا في الكفاح فأمر أن يشن عليهم القتال ، وهزموهم ودخلوا عليهم عنوة فقتلوهم عن آخرهم ، ثم تم إسقاطها حصن بعد حصن وصار أهل البلاد بين مطيع وشارد ،فذعر أهل تازة وفاس لهذه الفعلة الشائنة او المشينة فبعثوا إلى مولاهم أبي سالم يعرفانه أو يعلمونه بما فعلت بنو عبد الواد ، من العظائم وبما خربت من الحصون ، وبما أذاقت الناس من الهوان وأنهم على أميال قليلة منهم وليس لنا على دفاعهم من قدرة ولا حيلة وأسرع لنصر البلاد قبل أن يخربها بنو عبد الواد ، (2) فبينما هو على ما أدرك من السرور، وتأثل له من النصر و الحبور إذ أتته الإرسال من بلاده، يخبرونه بانقلاب المغرب وفساده وأن بني عبد الواد نسفته نسفا وأذاقت أهله حتفا ورجفا وان لم تبادر للمغرب فاستهلك ، فلما سمع أبو سالم اعتراه الاندهاش والذهول وخر ساقطا على ركبتيه وصار يردد جاءت أمور لم تكن في الحسبان فخاف على مرين وما ينتظرها فنظر في أمر مصلحته في الحين وأمرا بإحضار حفيد المولى أبي تاشفين (*) و مكنه من الحكم بحجة أنها بلاد جده وأمده بالمال واشترط عليه أن تكون السواحل لأبي سالم والباد القريبة للأمير محمد القائم وأمر أهل تلمسان بمبايعته ومتابعته ومراده بذلك إثارة الفتنة بين عبد الواد ، ليقع الشتات في الرعية والبلاد ، ثم خرج راجعا إلى بلاد المغرب ، ولما كان أبي حمو عازما على انتهاب مدينة فاس القديمة وتمكين العرب من ذخائرها العظيمة ليكون ذلك إرجاف لأبي سالم وبينما هم كذالك حتى أتاه فرسان يتطايرون بالبشارة وأعلموه برجوع أبي سالم وبني مرين.، فأقبل السلطان أبي حمو الثاني لحضرته تلمسان ، بعد غيبة ثلاثين يوما من الزمان (3).(بينما يقول يحي ابن خلدون في كتابه بغية الرواد ان المدة 40 يوم) بلغ في حركته نيل وطار ،وأشتهر صيته أعظم الاشتهار .

---

(1) مؤلف المجهول ، زهرة البستان، ج2، ص 142

(2) المرجع نفسه زهرة البستان ، ج2، ص 143-144.

(*) يقصد هنا محمد بن عثمان أبن السلطان أبي تاشفين ، كان محتجز في المغرب منذ مقتل والده وسقوط دولته.

(3) المرجع السابق ، زهرة البستان ، ص 146. أيضا أنضر يحي ابن خلدون ، بغية الرواد المرجع السابق .

ولحين دخول السلطان أبي حمو حضرته ،ومعه وزيره عبد الله بن مسلم ، لجأ أبي تاشفين إلى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وأوليائهم من بني توجين ومغراوة من عرب زغبة ، نهض أبو حمو موسى الثاني ، ووزيره عبد الله بن مسلم ، والشيخ أبا موسى عمران بن موسى بن فارس لحصار وهران ، وترك بالحضرة العليا والده أبا يعقوب ، وخرج بكافة قبيله الأعز لتشريد محمد بن عثمان عن الوطن ،ونازلوه بجبل وانشر يس، هو ومن معه إلى أن غلبوا عليه ومن معه ، وانفض جمعه ، هرب إلى أيالة من بني مرين بفاس، ولم يحظ بمرام ولا مطلب فكانت إقامته بتلمسان خمسة أيام ، وظعن عنها قافلا بسلام .(1) وأخذ موسم الفطر بتالسالة أو تاسالا قرية تقع قريبة من مدينة سيدي بلعباس الحالية وسار الى البطحاء(°) فرجع المغرورون مصحرين فاستجاش (طلب الجيش) من بني عامر وبني يعقوب وأولاد حسين (2) المعقل ونزل منداسا (°) فأصحر أبو بكر بن عريف وارتحل إلى قومه سويد ونزل السرسو (°) واعتصم محمد بن عثمان بزناتة ومحمد بن عريف بقبيلته بمعقل من بلاد توجين، فصمد أبي حمو صمود الجبال وذلك لما تراسل ولدا عريف في أن يتحرك كل منهما بلفه من جانبه نحو معسكره وبلغ أبي حمو خبرهما فأرسل في اعتراض أبا بكر بن عريف بالسرسو ، فهزمه وركب هو صاعدا إلى الجبل فنزلت بهم قوة السيف ، واستباح حلل المنافقين به وفر محمد بن عثمان ومحمد بن عريف إلى قبيلة سويد ، ووصل خبر إلى أبي حمو موسى مفاده أن ملك المغرب جهز إلى تلمسان جيشا فصرف إليها وزيره عبد الله بن مسلم في كتيبة ، واستمر هو في حركته لاستنقاذ المدية ومليانة من أيدي مرين الذي تخلف بها ملك المغرب فنزل وادي شلف بلغه الخبر بفرار مرين عن مليلة ، فجد أيده الله في السير إلى أن حل بظاهر مليانة فوجد للمدية قائدها منصور بن الخلوف الياباني بمتيجة (3)

كان منصور قد أضر بالبلاد الشرقية وقتل زيان بن علي بن منصور ، وفد أكل القبيلة المليكشية ، وزحف الى الثعالبة العرب فأكلهم ، بعد أن أوقع بهم وقتلهم ، فصبحوه غارا فقتله أبي حمو و عدد من أتباعه وحز رأسه وأرسله لحضرته ، ونهض بعد ذلك لمنازلة تنس وبها من قواد مرين ابن أبي تجلى أحد الحذاق برماية ، فأخذ بمخنقها وقتل قائدها وغيظ (أغظب) لذلك مغراوة المرتزقون فنزل عليهم السلطان أبي حمو بعسكره ففرو الى جبل زاتيمة (غير معروف) مهاجرين بالنفاق ، وناجزهم (نازلهم وقتلهم) به الحرب فافترقوا ونزل أيضا إلى وادي الشلف فجاءه فيه الخبر بأن محمد بن عثمان و غوغاءه نزلوا القطفة من بلاد حصين (°) فرحل مشرقا إليهم ونزل مليانة وأنذروا به فأجفلوا(هربت) أمام طالعة رعبه وبذلك أنتهت سنة 761هـ (4)

---

(1) عبد الرحمان ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جزء 7 ، ص 167.

(°) منداس هي إحدى بلديات غليزان على مستوى طريق الرابط بين غليزان و تيارت

(°) سهل ممتد حول تيارت وجنوب الونشريس

(2) ينتمون إلىذوي منصور من المعقل ، فصاحب العبر يقول : وكان عرب المعقل من ذوي مصور فريقين : الأحلاف و أولاد حسين .

(3) المصدر السابق ، يحي ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج2 ، المرجع السابق ، ص

(4) المصدر السابق ، مؤلف غير معروف ، زهرة البستان ، ص 152.

(°) المنطقة المحيطة بالمدية

وفي 2 صفر 762هـ قفل راجعا إلى دار ملكه بعدما دوخ الأمصار وشرد الأعداء وافتتح الأقطار وخلف الآثار وأرسل أبي حمو والده أبا يعقوب على رأس جيش ضخم لاستفتاح الجزائر فسارا إليها في الثاني و العشرين من صفر المذكور ، و كان محمد بن عثمان بعد هروبه عن القطفة رهبا من أبي حمو غرب إلى عبيد الله من المعقل عرب أنجاد ،مستجيرا به فأجاروه فنهض إليهم الوزير عبد الله بن سالم بالجنود المكثفة وهزمهم وطردهم من القطر كله وأطلت ليلة المولد الشريف فاحتفل أبي حمو على طريقته المعتادة فكان ما أنشده

نزلتم من فؤادي منزلا حسنا
وكل ماساءني في حبكم حسنى
فلتم فلم أتخذ من بعدكم سكنا
وحبكم في صميم القلب سكنا
وبعدكم صار عندي ساعة بسنة

،،،،،،

سرتم ولم تعلموا بالبين ما فعلا
بهائم مدنف لا يبتغي بدلا
هلا رحمتم محبا بالنوى قتلا
متيما صار في أهل الهوى مثلا
لم يتخذ بعدكم خلا ولا وطنا

،،،،،،، (1)

وكان محمد بن عثمان المذكور بعد كائنة أنجاد ورجوع عبيد الله الى طاعة سلطانه أبي حمو موسى فر بذمامه إلى تاوريرت متذمما بمن فيها من الجنود المرينية ، فستبان لسلطان المغرب من عناية الله ب أبي حمو وتأكد أن لا جدوى لمكابرته ولا ثمرة تجنى من محاربته واتضح لديه براهين فضله عن ساير عترته(°) ووفاء عهد وجمال مسيرة ، وبدوره السلطان أبي حمو أرسل أبو تاشفين إلى المغرب في أواخر شهر ربيع الأول مرفقا بالشيخ أبي موسى عمران بن موسى أعلام ذوي تجلة من عبد الواد بهدية من عتاق الخيل المسومة ، أعد ملك المغرب السلطان أبي سالم لإنزالهم الدور الرحبة والفرش المرفهة وقد استقبلهم أعلام دولته وكبار قبيلته واحتفلوا للسلام وجمحوا للمصالحة و المهادنة والموالاة و المحاسنة وانعقد للصلح (2) ، فلم تزل المحاسنة والمهادنة والموالاة والكف على المفاتنة إلى أن وقع العكس وذلك بسبب بقاء الجزائر ووهران ودامت المهادنة أربعة أشهر كاملة ، نال كل واحد ،من الصلح أمله إلى أن وصل عمر بن عبد الله وزير أبي سالم لم يتأت له الجلوس بتلمسان انقلب على عقبيه ....) (3)

---

(1) المصدر السابق ، بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد ، يحي ابن خلدون ، ج2 ، ص 187-188

(2) المرجع نفسه بغية الرواد ليحي بن خلدون ج2، ص 195-196.

(°) تعرض لمعروفه من غير أن يسأله

(3) المرجع السابق . زهرة البستان ، لمؤلفها المجهول ص 198 .

وبذلك رحل إليها أبي حمو موسى في الخامس شوال ونازلها ثلاثة أيام ودخلها عنوة سيفه يوم الاثنين ثالث عشر شوال وأمسك قائدها علي بن أجانا وقفل راجعا إلى دار ملكه فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر شوال وفيه ورد على بابه الشيخ ونزمار بن عريف وسليمان بن عامر بن فتح الله رسولين من قبل ملك المغرب بتسليم الجزائر له فتأزر النصر وعز وتسنى الفتح وبان ومضى سليمان بن عامر المذكور بكتاب ملك المغرب الى قومه بالجزائر ، المرؤوسين بعلي بن يعلي وشعيب بن وادرار، بأن يخرجوا عنها لابي حمو موسى الثاني ، وتسلم البلد من يدهم أبوه أبو يعقوب في الثامن لذي القعدة وانصرف بنو مرين (1) .

المطلب الثالث : حركة السلطان عبد العزيز على تلمسان واستيلائه عليها ونكبه أبي حمو وبني عامر بالدوس من بلاد الزاب

أ) الخبر عن حركة السلطان أبي حمو على ثغور المغرب

كان ونزمار بن عريف متولي كبرا الفتن على أبي حمو ، وبعث عليه الأعياص (المتشددة) عليه واحدا بعد واحد لما كان بينهم من العداوة المتصلة كما قدمناه وكان منزله بجرسيف من ثغور المغرب ، وكان جاره محمد بن زكراز كبير بني علي من بني ونكاسن المستوطنين بجبل دبدو (°) ، وكانت أيديهما عليه واحدة ، فلما سكن ، غرب الثوار عنه وأزاحهم عن وطنه إلى المغرب ، وانعقد سلمه معهم ، رأى أن يؤدب هاذين الأميرين في ثغورهما ، فاعتمل الحركة الى المغرب فاتح سنة 766هـ وانتهى إلى دبدو وجرسيف ، وأجفل (هرب) ونزمار وامتنع بمعاقل الجبال ، ونهب أبو حمو الزروع وشمل بالتخريب والعيث سائر النواحي ، وقصد بن زكراز أيضا في معقل دبدو فامتنع بحصنه الذي اتخذه هناك ، وعاج عليه أبو حمو بركابه ، وجاس خلال وطنه ، وشمل بالتخريب والعيث نواحي بلاده ، وقفل راجعا الى حضرته ، وقد عظمت في تخوم بني مرين وثغورهم نكايته ، وثقلت عليه وطأته ، وانعقد بينهما بعد ذلك المهادنة والسلم . (2)

ب) في سنة 772هـ /1371م في أول هذه السنة كان ابتداء التمحيص (الابتلاء و الاختبار) الأكبر و الابتلاء الأشهر، بما لم نعرف لملك من ملوك الإسلام نظيره، ولا عد في مثلات الأمم الخالية شبهه، (3) السبب هو أنه لما قبض أبي حمو على محمد بن عريف وفرق شمل قومه سويد ، وعاث في بلادهم أجمع ، رأى أخوه الأكبر الصريخ بملك المغرب ، وارتحل إليه برفقة بني مالك أجمع من أحياء سويد و الديالم و العطاف حتى حل ببسائط ملوية (°) ؟ وسار إلى أخيه الأكبر ونزمار بمقره من قصر مرادة الذي اختطه بإرجاع وادي ملوية في ظل دولة بني مرين وتحت جوارهم لما كان ملاك أمرهم بيده ،ومصادرهم عن آرائه ، خطة ورثها عن أبيه عريف بن يحي مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وأبنه أبي عنان ، فتقبل ملوك المغرب مذاهب سلفهم فيه وتيمنوا برأيه واستأمنوا إلى نصيحته ، فلما قدم عليه أخوه أبو بكر مستحفيا بملك المغرب ، وأخبر باعتقال أخيه الآخر محمد ، قدح عزائمه ، وأوفد أخاه أبا بكر و مشيخة قومهم من بني مالك على السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن الذي كان منصرفه في افتتاح جبل هنتاتة ، وظفر بعامر بن محمد بن علي النازع إلى الشقاق في معتصمه فلقوه في طريقه ولقاهم واستصرخوه لاستنقاذ أخيهم فأجاب صريخهم ورغبوه في ملك تلمسان وما ورائها (4) .

---

(1)المرجع السابق ، زهرة البستان لمؤلفها المجهول ، ص 199-200.

(°) هي مدينة في المغرب ، وقد بنيت على منحدر جبل شاهق منيع باستحكامته الطبيعة ، يقال انه تم بنائها من طرف الأفارقة .

(2) عبد الرحمن ابن خلدون ، ديوان المبتدأ و الخبر في في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، الجزء 7 ، دار الفكر للنشر ، بيروت لبنان ، ص 170

(3) المصدر السابق . بغية الرواد ج2 ، ص 443

(4) المصدر نفسه ، عبد الرحمن بن خلدون ، ديوان المبتدأ و الخبر ، ج7 ، ص 176.

فثارت أفاعي العداوة، وجمع السلطان المريني أهل مغربه كافة من السوس الأقصى إلى صحراء درعة، إلى سبته من بحر الزقاق (جبل طارق) ، ونهض ميمما (°) تلمسان بالجراد المنتشر، أو السحاب المسخر بين السماء و الأرض ، فأحتمل أبي حمو كل ما اشتمل عليه قصره من مال وحرم وذخائر وفرش، مما لا يحويه الحساب ولا يصدق ناقل خبره ولا يحيط به الفكر 'وارتحل بقبيلته وأحلافه ، وكافة بني عامر عن الحضرة مشرقا ، يوم الأربعاء 14محرم فنزل البطحاء وتلوم فيها 8 أيام (1) ، واتصل الخبر بالسلطان أبي حمو وكان معسكرا بالبطحاء ، فقفل راجعا إلى تلمسان وبعث في أوليائه عبيد الله والأحلاف من عرب المعقل ، فصموا عن إجابته كونهم نزعوا إلى ملك المغرب ، فأجمع رأيه إلى التحيز إلى بني عامر وأجفل أول أيام محرم ، وفي الأحد الخامس والعشرين من محرم سنة 772هـ ، دخل ملك المغرب عبد العزيز المريني تلمسان، وأشار ونزمار بن عريف بتسريح العساكر في أتباع أبي حمو ، فسرح السلطان وزيره أبا بكر بن غازي بن الكائس ، ومضى بكافة قبيلته ، وأحلافهم المحشودة ، وجميع عربهم المستجاشة (طلب الجيش) من : المنبآت والعمارنة وأولاد حسين و الهداج وبني يعقوب وسويد في أثر أبي حمو ، وارحل أبي حمو بدوره عن البطحاء مارا بمنداس (°) ثم ببقود ، تابعة لقبيلة الديالم الهلالية ثم ارتدت عنه إلى بلادها توجين أي من بني بادين قبيلة زناته ، وبنو راشد ، سوى رجال صبر منهم ، فنزل وادي ورك من بلاد العطاف ، ثم إلى نزل إلى سبخة زاغر (°) وتلوم (توقف وانتظر) إلى أن وصلته عيونه المبثوثة عن العدو باقترابه فارتحل مشرقا (2). وسارا إلى مسيلة وتوقف لإيلاف أولاد يحي (عرب رياح) فأحسن إلى جميعهم بالكاسي العديدة والمال ثم رحل أخذا على مشارع وادي مسيف (°) ونزل ظاهر الدوسن (بسكرة) من قرى الزاب أول شهر ربيع الأول تحف (احتفل) به أشياخ بني عامر وخيم ستائرهم بوادي شدى (°) وأقام هناك ثلاثة ليالي لاستلاف أولاد محمد من رياح ، فهنالك فجأه العدو ، عقب النهار فاهرب كل من كان قربه أشياخ بني عامر و ترك خيامهم بما حوته ووقف أبي حمو لترحيل محلته وقد غشيها العدو من كل جانب، وانهبوا جميع معسكره من مال وأمتعة ، وولده الأمير أبو تاشفين يحمل على جميعهم كالأسد الهادي ، فيرد أولهم على أعقابهم ،... أجنه الظلام فانهار العدو ، فولوا الأدبار ونكبح طغيانهم ، ثم أدلج أي سار الليل كله أبو حمو مقبلا أثر قبيله الأعز وعربه فجد أبي حمو أربعة أيام بلياليها في مجاهل لا يهتدي بها ولا يسمع بها سوى عزيف الجن صوت، لم يرد بها ماء ولا استأموا أكلا ولا عرفوا غير برض القوت (قليل الغذاء) وفي الخامس اجتمع بقبيله وعربه على ماء قارة المهمر، شرق جبل الزاب(°) ومنه أرتحل إلى واد السمارة (غير معروفة) ومنها الى متليلي () فارتوى الناس، وصرف (سرحهم) عنه مشيخة بني عبد الواد وأرتحل مغربا. (3)

(°) قاصدا وظافرا

(1) المصدر السابق ، بغية الرواد في أخيار ملوك عبد الواد ، ليحي ابن خلدون ، ج2 ، ص344.

(°) منداس تقع بمدينة بغليزان

(°) سبخة زاغر ، موقعها بالجلفة حاليا

(2) نفس المصدر ، بغية الرواد ، يحي بن خلدون ، ج2 ص : 344-345.

(°) واد مسيف ، منطقة بالمسيلة

(°) وادي شدى، ينطلق هاذا الواد من جبل لعمورة بأفلوا مرورا بالأغواط ثم يواصل امتداده عبر ولاية بسكرة وصولا إلى واد سوف

(°) جبل الزاب يعرف الان بوادي ميزاب ويقع هاذا الوادي جنوب الأغواط

(°) متليلي الشعانبة تقع في واد متليلي جنوب غرداية

(3) نفس المصدر ص 346_347.

و مر بماء قفافة (مكان تابع لمتليلي) ناحية قصور بني عامر ومكث فيها سبعة أيام حتى علم نزول بني مرين وعربهم بقصور بني عامر بالصحراء قبلة جبل راشد التي منها ربا ولون ساعون إليها فأنتهبوها وخربوها وعاثوا فيها و عاد راجعين إلى تلمسان ، فارتحل إلى وادي درمل (يربط ولاية النعامة ببشار) ومكثت فيه ثمانية أيام وصعد إلى نبقة الخبا قريبا من وادي فيجيج (فجيج مدينة مغربية تبعد وجدة 384كلم) ذي القرى الجريدية ثم إلى مجهل يكاثبها (يجمعها)، وميز (فضله على غيره) به بني عامر وأعطى مرتباتهم المعتادة سوى عبد الله بن شيقر بن عامر، في أخلاط منهم بايعوا ملك المغرب .(1) ولهاذا المنزل في رجب أتت أبي حمو رسل عبيد الله من المعقل يعرضون طاعته ، ويدعونه إلى دخول التل والحركة إلى تلمسان ، بعد أن خلعوا طاعة السلطان عبد العزيز ، وشنوا على بلاده الغارة ، فاستبشر الناس بقدومهم وسروا بنقض عدوهم . وارتحل أبي حمو وبنو عامر إلى وادي مسيف ، فتلاحقت به العرب ، فقدم بين يديه إلى التل محمد بن عمر البريطل 'وكذا خالد بن عامر رفقت قبيلهم ، فجاءه من عبيد الله وفد آخر باستعجاله فنازلهم باليتيمة ، (2)، وخشي حصين مغبة أمرهم من السلطان بما تسموا به من الشقاق و العناد ، فمدوا أيديهم إلى سلطانهم أبي زيان ، و أوفد مشيختهم لاستدعائه من حلة أولاد يحي بن علي ، فاحتل بينهم و أجلبوا به على المرية فملكوا نواحيها ، وأستمر الحال على ذلك واضطرب المغرب الأوسط على السلطان ، وانتفضت به طاعته وسرح الجيوش و العساكر إلى قتال مغراوة و حصين ، فأجمع أبي حمو وبنو عامر على قصد بتلمسان حتى إذا احتلوا قريبا منها دس السلطان عبد العزيز بعض شيعته إلى خالد بن عامر و زغبة بالمال والحظ منه ، وكان أبي حمو قد آسفه بمخالطة بعض عشيره وتعقب رأيه برأي من لم يسم إلى خطته ، ولم يرتض كفائته ، فجنح خالد بن عامر إلى ملك المغرب ، ونزع يده من عهد أبي حمو ، وسرح السلطان عبد العزيز عسكره إليه فأوقع بأبي حمو ومن كان معه من العرب عبيد الله وبني عامر ، و أنتهب معسكره وأمواله واحتقبت حرمه وحظاياه إلى قصر السلطان ، وتقبض على مولاه عطية ، فمن عليه السلطان و وضعه في حاشيته ووزرائه ، و أصفقت زغبة على خدمة ملك المغرب وافق هذا الفتح عند السلطان عبد العزيز فتح بلاد مغراوة ، و تغلب وزيره أبو بكر بن غازي على جبل بني سعيد ، وقبض على حمزة بن علي بن راشد في لمة من أصحابه ، فضرب أعناقهم وبعث بها إلى سدة السلطان ، وأمر كذلك السلطان المريني وزيره أبي بكر بن غازي بالنهوض إلى حصين ، فحشد أوليائه من الزواودة ورياح والتقى الوزير و العساكر على حصن التيطري ، فدارت بينهم النزال و نهزم وفروا من حصنهم .(3) أما عن أبي حمو فقد انسل إلى درج ومنه الى عيون النشاب قبلة جبل بني ورنيد المطل على تلمسان، ورحل مغربا فأخذ بمخنق وجدة ، فأرسل إليه السلطان أبو فارس وزيره أبا بكر بن غازي ، بكافة بني مرين وأحلافها وجميع زغبة من سويد وبني يعقوب والديالم والعطاف وأقبلت أيضا عرب عزيه من أولاد حسين والعمارنة والمنبات كل بقائده فنزلوا مع الشيخ أبي يعقوب ونزمار بن عريف ، فما أثر عن إقدام أبي حمو ولم يبالي بكثرة الأعداء القاصدين إليه من يمينه وشماله واستمر حركا ، على العرب الغربية، فوافقوه ، واشتدت المعركة مليا، ثم أجلت الوغى (ساحة الحرب)عن هزيمة عدو أبي حمو موسى وأسر خمسة وعشرين من أجوادهم كا: سعيد بن عثمان وأخيه رحو وعبد الرزاق بن عبد الواحد وغانم بن موسى وغيرهم فصفح أبي موسى عنهم جميعا وسرحهم ، اقتضى نظر أبي حمو موسى على الوزير ابن الغازي وجموعه فثنى العنان قصده ونزل بتملحت فهربو من بين يديه(4)

---

(1) بغية الرواد ، يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2، ص 345

(2) المصدر السابق ، بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد ، يحي ابن خلدون ج2 . ص 449

(3)المصدر السابق ، ديوان المبتدأ والخبر ، لعبد الرحمن بن خلدون ، ج7، ص 179.

(4) بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد ، يحي بن خلدون ، ج2 ص 451.

و نزل وجدة ثم غرب إلى دبدو من بلاد مرين ، فمر بدياره واستباح (نهب) زرعه وضرعه وسارا قاصدا تلمسان فنزل أيلوان قبلتها إلا رحو من منصور بن عبد الله الخراجي (°) ارتد عليه بقومه ، فشرق أبي حمو غازيا إلى عمر بن مسعود التيربعي وزير ملك المغرب وكان على البطحاء بالألف من مرين فنزل أبي حمو إلى البطحاء فأسرع الوزير وفر متحججا إلى مستغانم فسيطر على البطحاء وأراح ظهره واستجمع قواه وارتحل إلى منداس، وأنهض أليه ملك المغرب جيش بقيادة وزيره و في أثره و وقبيل زغبة ،فاحتمى بجبل راشد ليخفف به عن الظهر ويرجع الأنفاس ويعود للحرب وهناك نفذت السنة .(1) بزغ هلال سنة 773هـ ، والفتنة بحالها و العدو لازال باسط جناحيه على الحضرة ، وكان أبي حمو ملازما لجبل راشد وفي محرم نهض للقاء العدو فارتحل إلى قلعة ابن سلامة (تيارت) ، وثنى العنان ناهضا على زغبة ،سويد والديالم والعطاف ، واللافت في هذه السنة كثرة الخداع والنفاق من القبائل العربية ، فقد وصل رسول أبي بكر بن عريف إلى أبي حمو طالبا الدخول في طاعته سرا ، وتخلت عنه فيها قبيلة عبيد الله وانصرفت إلى صحرائها ، ثم غرب عنه خالد بن عامر مكرا وخيانة وركونه إلى ملك المغرب ، فرجع أبي حمو إلى جبل راشد ، فامتنع عنه شيخ الجبل فعاد أبي حمو موسى إلى محلته مصحرا فأمسى مجهلا فوصلته شيعة الأوفياء ،أولاد عسكر بن معروف وخلطائهم من بني عامر وعبد الله بن شقير وارتحل الى عين العنب و بها وافته رسل بني يعقوب بعرضهم طاعته فرتحلوا ميممنا التل فخيم بإيفني(°) (2) وأرسلت إليه زغبة خداعا بخدمتها وطلب الاجتماع فناورهم أبي حمو ونهي إلى علمه الشريف ما أخفوه من الغدر، فأمر بحربهم وداهمهم بما لا قبل لهم به كثرة وحزما وأقداما فأنزل بهم الهزيمة ، وفرا هاربا وأخذ أبي حمو في أثره حتى أغار عليه بجبل جزول واستباح غدر القوم وذلك في شهر ربيع الثاني ، أهل رجب وقد أدبر فصل الشتاء فجمع السلطان أبو حمو موسى الثاني قبيله وعربه بني عامر وقصد عازما على تلمسان وارتحل حتى وصل بني ورنيد (°) وجمعها على ولده أبو تاشفين ثم ارتحلوا جميعا حتى وصلوا تافروت جنوب المغرب ، رفقة قبيله وبني عامر وولده ابو تاشفين والمعقل من بني ورنيد وارتحلوا إلى أماكرا من تل بني راشد ومنها أرتد خالد بن عامر بطائفة من أهل الضلال قومه وانحاز إلى ملك المغرب بإغراء من محمد البريطل ووادفل بن عبو وسعيد بن تصاليت فارتحل أبي حمو حتى وصل تالوين مغربية و التي تقع بين اكادير و ورزازات ، وهناك وصله الخبر بنهضة بني مرين وخالد بن عامر في أثره فثنى إليهم العنان وفي اليوم الخامس والعشرين من شوال كان الملتقى الأكبر أوماكرا ببني راشد واندلعت الحرب وانهزموا هو ومن معه وجعل يضرب بالحسام أعناق الخائنين وحالت بين أبي حمو وولده أبو تاشفين طائفة من خيل العدو فافترقا وانحرف أبي حمو إلى واد مجرف استبطنه ناجيا وترك ولده أبو تاشفين يكافح العدو دونه بشجاعة وإقدام ، وركب الليل محملا بأثقاله وارتحل في رحلة كانت مليئة بالمشقة والصعاب حيث كان بنو مرين رفقة خالد بن عامر يقتفون أثره إلا أن الرعاية الإلهية أرادت خيرا بأبي حمو ونزل إلى أيفني ثم إلى قصر أبي سمغون فوجد ولده الأمير أبو تاشفين قد مر بها وحمل إخوته الصغار: الأمير محمد المنتصر وأبا زيان محمدا ويوسف وتوجه أبي حمو مع عرب المعقل إلى فجيج مغربية تبعد عن وجدة حوالي 384كلم (3)

(°) عبد الله الخراجي : بطن من ذي عبيد الله من قبيلة المعقل

(1) المصدر السابق ، بغية الرواد ، يحي ابن خلدون ، ج2 ، ص 452

(°) أيفني : مدينة مغربية تبعد عن اغادير ب 160كلم

(2) المصدر نفسه بغية الرواد ، يحي ابن خلدون ، ج2 ، ص 460-461.

(3) بني ورنيد / عرش في جنوب تلمسان

(4) المصدر نفسه ، ص 462- 469.

وأقام بها شهرا يستعد لدخول الصحراء حيث كان يتزود بالزاد الكثير إلى أن وصله ابنه أبا تاشفين وإخوته واجتمع الشمل وجاء الخبر أول ذو الحجة بقص بني مرين وخالد بن عامر إليه فارتحل أبي حمو لا يملك إلا نفسه وبنيه فأمسى بمجهل من الحمادة واستمر بالمشي حتى بلغ تجورارين قصور متكاثبة وسبخة مستطيلة تعمرها قبائل مختلفة من زناته وبني يالدز ونزنجة وسوفة ، في رحلة ذاقه الويل فيها من العطش والتشريد ، حيث أفاضوا عليهم بالماء وتلقوا السلطان أبي حمو بالترحيب و الإجلال و التعظيم وعرفوا لمنصبه الملوكي قدره وبايعوه بالخلافة وخيروه فاختار قصر أولاد أدم واستقر به . حلت سنة 774هـ (1)

ولازال أبي حمو قائم بتلك البلاد يتنسم هبوب الفرج ،ستة أشهر، فلكل بداية نهاية كما يقال : في الثاني والعشرين من ربيع الثاني، قضى ملك المغرب السلطان أبو فارس نحبه من جراء مرض السل ، وانكفأ بنو مرين راجعين إلى ممالكهم بالمغرب ،بعد أن بايعوا لولده السلطان أبو فارس، ولقبوه بالسعيد ، وجعلوا أمره إلى الوزير أبي بكر بن غازي ، فملك أمرهم عليهم ، ونصبو من آعياص بني يغمراسن لمدافعة أبي حمو من بعدهم عن تلمسان ، إبراهيم بن السلطان أبي تاشفين ، كان ناشئا بدولتهم منذ مهلك أبوه ، وتسلل من جملتهم عطية بن موسى مولى السلطان أبي حمو وخالفهم إلى البلد غداة رحيلهم ، فقام بدعوة مولاه ودافع ابراهيم بن تاشفين عن مرامه ، وبلغ الخبر أولياء السلطان أبي حمو من عرب المعقل أولاد يغمور بن عبيد الله فطيروا إليه النحيب على حين غلب عليه اليأس ، وأجمع الرحلة إلى بلاد السودان لما بلغه من اجتماع العرب للحركة عليه ، فأغذ أبي حمو السير من مطرح اغترابه . وسابقه ابنه ولي عهده في قومه عبد الرحمن أبو تاشفين مع ظهيرهم عبد الله بن صغير فدخلوا البلاد ، ونزلوا على حضرتهم ففي الرابع والعشرين من جمادى الأولى كان دخول أبي حمو دار خلافته مانحا صفحه عن كل من أخطئ في حقه إلا ما كان من خونته الذين اصطفاهم من أوليائه وأشركهم في الحلو والمر من أمره حتى جحدوا ، ثم شرع أبي حمو في جبر قبيله وإركاب جيوشه المظفرة و إقامة العدد وإيلاف العرب الشرقية والغربية لخدمته ، وفي أخر جمادى أنهض عطية بن موسى بالجيوش العديدة لاستئصال مغراوة وتطهير البلاد من دنسهم ، فلقيهم بظاهر مازونة هزمهم ونكث قواهم ، حيث لجؤا إلى المعاقل مستحصنين ، ورجعت تنس ومليانة لبيعة السلطان أبي حمو موسى الثاني ، و لكل فعل ردة فعل في وقت كان أبي حمو يرمم مملكته و ينظف محيطه ،أخذ هارون المغراوي بعد هزيمته السابقة في إيلاف المخالفين عن أبي حمو كخالد ابن عامر ومن تبعه من قبيله وسويد والديالم والعطاف وتوجين بجامع الدعوة لأبي بكر بن غازي ،المتغلب على ملك بني مرين وتم له ذلك فاستنفرهم لمصارخته فنهض معه المذكورين وباغتوا عطية بن موسى وحاصروه في تنس واخذ خالد بن عامر على تل بني راشد قاصدا تلمسان ، فأنهض إليه السلطان أبو حمو موسى ولده أبا تاشفين بقبيله وحلفائه من زناته والعرب وذلك شهر شوال فهزم خالد بن عامر وقومه هزيمة استئصال ورحلهم عن القطر بأسره إلى الصحراء مهزومين وهربوا من حصار تنس إلى جبل بني يلسيت واستأصلهم السلطان أبو حمو وولده أبو تاشفين عن أخرهم . (2)

---

(1) المصدر نفسه بغية الرواد ، يحي ابن خلدون ، ج2 ، ص 469-470

(2) المصدر نفسه بغية الرواد ،ص 470-500.

المطلب الرابع : نهوض السلطان أبي العباس صاحب المغرب إلى تلمسان واستيلاؤه عليها واعتصام أبي حمو بجبل تاحجموت

أ) حركة أبي حمو على ثغور المغرب الأوسط ودخول ابنه أبي تاشفين إلى جهات مكناسة

كان أبو العباس بن السلطان أبي سالم ملك بني مرين بالمغرب الأقصى قد نهض في عساكره سنة 783هـ الى مراكش ، وبها الأمير عبد الرحمن بن يفلوس ابن السلطان أبي علي ، مقاسمه في نسبه وملكه ، وكان قد سوغ (أعطى له) مراكش وأعمالها عند ما أجلب معه على البلد الجريد سنة 775هكما في أخبارهم . واستقر الأمير عبد الرحمن بمراكش ، ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أحمد ، ونهض إليه من فاس فحاصره أولا وثانيا يفرج فيهما عنه ، ثم نهض إليه سنة 784هـ، فحاصره وأخذ بمخنقه وأطال حصاره ، وكان يوسف بن علي بن غانم أمير المعقل من العرب منتقضا على السلطان وقد بعث السلطان العساكر إلى أحيائه ، فهزموه وخربوا بيوته وبساتينه بسجلماسة ورجعوا ، وأقام هو بصحرائه منتقضا ، فلما أجهد الحصار الأمير عبد الرحمن بمراكش ، بعث أبا العشائر ابن عمه منصور بن السلطان أبي علي ، إلى يوسف بن علي بن غانم ، ليجلب به على فاس وبلاد المغرب ، فيأخذ بحجزة السلطان عنه وينفس من مخنقه ، فسار يوسف بن علي مع أبي العشائر الى السلطان أبو حمو بتلمسان يستنجده على هذا الغرض لقدرته عليه دون العرب ، بما له من العساكر والأبهة ، فأنجده على ذلك السلطان أبو حمو موسى الثاني ، وقد إبنه أبا تاشفين معهم ، وخرج هو في أثرهم ، فساروا إلى المغرب ، ونزل يوسف بن علي بقومه قريبا من مكناسة ، ومعه الأميران أبو العشائر وأبو تاشفين ، وجاء أبي حمو من خلفهم ، فحصرا تازى سبعا ، وخرب قصر تازروت ، المعد هنالك لنزل السلطان ، وكان السلطان قد استخلف على فاس في مغيبه على بن مهدي العسكري من عمال دولته ووجوه قبيله ، وكان هنالك عرب المنبأة من المعقل قد أخذوا المبادرة ، فأهاب بهم ونزمار بن عريف ولي الدولة من عرب سويد ، وهو نازل بقصر مرادة من جوار تازى ، فا ستألفهم لمدافعة أبي حمو و ابنه ، وخرج بهم علي بن مهدي ، ثم وصل الخبر باستيلاء السلطان على مراكش منتصف 785هـ ، فأجفل أبو تاشفين وأبو العشائر ومن معهما من العرب ، واتبعهم علي بن مهدي بمن معه من المنبأة ، وأجفل أبي حمو على تازى ومر بمرادة على قصر ونزمار فهدمه وعاث فيه ، وانكفأ راجعا إلى تلمسان ، وفارق أبو تاشفين أصحابه أبا العشائر والعرب ولحق بأبيه .(1)

ب) إستلاء السلطان أبو العباس وما أل بعد ذلك لم استولى السلطان أبو العباس على مراكش كما قلناه ، رجع إلى دار ملكه بفاس وقد آسفه السلطان أبي حمو بإتيانه على وطنه هو وابنه أبو تاشفين مع العرب أيام مغيبه بمراكش ، فأجمع الرحلة إلى تلمسان وخرج في جيشه ، وراجع يوسف بن علي الطاعة ، ورحل معه في جموعه ، وبلغ الخبر إلى السلطان أبي حمو فتردد بين الحصار بتلمسان أو مفارقتها ، وكان بينه وبين ابن الأحمر صاحب الأندلس مواصلة ، ولابن الأحمر دالة **على** السلطان أبي العباس ، فكان يحفظ له الشأن في قصد تلمسان ، ويلبثه عنها فيعطيه المقادة في ذلك ، فيعلل السلطان أبو حمو بأن السلطان أبا العباس لا يصل إليه ، ثم أجمع السلطان أبو العباس أمره ، ونهض على حين غفلة مسرعا الى تلمسان وتقدم الخبر إلى أبي حمو فأجمع مفارقة تلمسان بعد أن أظهر لأوليائه وأهل دولته أنه على الحصار ،(2)

---

(1)المصدر السابق ، ديوان المبتدأ والخبر لعبد الرحمن ابن خلدون ، ج7 ، ص 188_189.

(2) المصدر نفسه ، ديوان المبتدأ و الخبر لعبد الرحمن بن خلدون ، ج7، ص ، 189.

ثم خرج في غشية الليل الى معسكره بالصفيف ، وافتقده أهل بلده في صبيحتهم ، فتبادر أكثرهم إليه متعلقين بأذياله خوفا من سطوة العدو ، ثم ارتحل يطوي المراحل إلى البطحاء ، ودخل السلطان أبو العباس تلمسان واستولى عليها ، وجهز العساكر لإتباع أبي حمو وقومه ، فأجفل من البطحاء ولحق بتاحجموت ، فاعتصم بمعقلها ولحق به ابنه المنتصر من مليانة بما كان معه من الذخيرة ، فاستمد بها وأقام هناك عازما على الامتناع ، وكان السلطان أبو العباس لما استولى على مملكة تلمسان ، طير كتبه ورسله بفتحها إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس ، ويعتذر إليه من مخالفة رأيه في الحركة إليها ، وقد كان ابن الأحمر آسفه ذلك إلى ما انتظم إليه من النزعات الملوكية التي يؤسف بها بعضهم بعضا وهو يطوي جوانحه عليها ، واطلع على فساد طاقة السلطان أبي العباس في أهل دولته ، وفقد ضمائرهم له فأزعج لوقته موسى ابن السلطان أبي عنان من أعياص ملكهم ، وكان عنده بالأندلس وجهزه بما يحتاج إليه وبعث في خدمته مسعود بن رحو بن ماساي وزيرهم المشهور ، وأركبه السفن إلى سبته ، فنزلوا بساحتها أول ربيع سنة 786هـ ، واستولوا عليها ، ثم تقدم إلى فاس فنازلوا دار الملك أياما و بها محمد بن حسن كاتب محمد بن عنان القائم بدولة السلطان أبي العباس والمستبد عليه ، واشتدوا في حصارها ، وتوافدت إليهم الإمداد والحشود فداخله الخور (الضعف) وألقي بيده ، ودخل السلطان موسى إلى دار الملك تاسع عشر ربيع الأول من ذات السنة ، وجلس على أريكته ، وآتاه الناس طاعتهم ، وطار الخبر إلى السلطان أبي العباس بتلمسان وقد تجهز لإتباع أبي حمو ، ونزل على مرحلة من تلمسان ، وكانت لا يعبر عن حسنها ، اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين ، واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان ، فبعث إليها السلطان ، أبو الوليد صاحب الأندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس ، فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتو بمثله ، فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاما بزعمه من أبي حمو ، وأخذ بالثأر منه فيما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازى ، وتخريب قصرع هو بمرادة ، فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر ، وبينما هو في ذلك وهو يروم السفر لإتباع أبي حمو ، إذ جاءه الخبر بأن السلطان موسى ابن عمه السلطان أبي السلطان عنان قد استولى على دار ملكهم بفاس ، واقتعد أريكتهم ، فقفل راجعا إلى المغرب لا يلوي على شيء ، وترك تلمسان لشأنها ، وكان من أمره ما يأتي ذكره في أخبارهم ، وطار الخبر إلى السلطان أبي حمو بمكانه من تاحجموت ، فاغذ السير إلى تلمسان ودخلها ، وعاد إلى ملكه بها وتفجع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها ، وارجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان (1)

---

(1) المصدر السابق : ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، لعبد الرحمن ابن خلدون ، ج7 ، ص 190-191.

المبحث الثالث : الصراعات العائلية حول العرش (أبناء عمومته)

وهنا لم يسلم أبي حمو موسى الثاني من الصراعات العائلية حول العرش ، إذ توالت عليه أبناء عمومته في الكثير من المرات لغزوه ، وذلك نتيجة مؤمرات التي يدبرها له أعدائه من بني مرين ، ولم يتوقف الأمر في هذا الحد و إنما تعد ذلك ليصل إلى أبنه ، حيث عملوا في الكثير من المرات على توسيع الخلاف حتى بين أبي حمو وولي عهده أبي تاشفين الثاني وبعض مساعديه و إخوته وغذوا هذا الخلاف بتشجيع أبي تاشفين للنهوض ضد والده ، ليس هذا وحسب و إنما كان عندما يتطور الخلاف ويشتد يجد التعضيد الكافي و المساعدة القوية من المرينيين الذين بدورهم وجدوها فرصة ثمينة للإطاحة بعرش أبي حمو موسى الثاني (1)

المطلب الأول : قدوم أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد من المغرب لطلب ملكه وما كان من أحواله

كان أبو زيان هذا ، وهو محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمرا سن ، لما قبض عليه مع عمه أبي ثابت ووزيرهم يحي بن داود ، ببجاية ، وسيقوا إلى السلطان أبي عنان ، فقتل أبا ثابت ووزيره واستبقى محمدا وأودعه سجن سائر أيامه ، وبموت أبي عنان ، رجع أمر المغرب لأخيه أبي سالم ، حيث أمتن عليه الأخير وأطلقه من الاعتقال ، ونظمه بمجلس ملكه في مراتب الأعياص، وأعده لمزاحمة أبن عمه أبي حمو موسى ، فسما له أمل في أبي زيان أن يستأثر بملك أبيه ورأى أن يحسن الصنيع فيه فيكون حليف له ، فأعطاه الآلة ونصبه للملك ، وبعثه إلى وطن تلمسان ، وأتى إلى تازى ولحقه هنالك الخبر بمهلك السلطان أبي سالم ....) وبعد موسم الأضحى ،انتبذ كافة مرين من عمر بن عبد الله (°) المتملك المغرب ، حيث قاموا بدعوة الأمير عبد الحليم ابن السلطان أبي علي ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق ، إلى فاس ، وبعثوا رسلهم لاستقدامه من تلمسان ، فكساه السلطان أبي حمو موسى الثاني شارة الملك وأمر بني مرين الواصلين من الجزائر ببيعته وأرحله المغرب ، واشترط عليه كبح ابن عمه أبي زيان ، فاعتقله مرضاة له، (2) إلا أن أبي زيان اخذ يحوم كل يوم على الفرار خارج البلاد ، وهو ما كان له ، فسار إلى البلاد السجلماسية ، إلى أن لحق بالأعراب وتحديدا أولاد حسين من المعقل، وطلب منهم أن يجيروه من الانتكاث ، وتوعدهم إن أعانوه على أخذ بلاده ، فيجعلهم من أنصاره وإنجاده ، ثم تسامعت به الأعراب وانجلبت إليه ، وتبادرت صعاليك العرب من حينها إليه ، فأطمعهم بما لم يقدر على الوفاء ، ثم اتصل خبره ببني عامر ، أنه بالمعقل الأعراب ، فأتاه خالد بن عامر لينال به سمو وينال به مراده ، كون أبي حمو أعطى الشياخة لأخيه شعيب ، لما علم من وفائه وكذلك كونه حاقدا على أبي حمو ، وبدر خالد المذكور بالخدمة لمحمد بن السلطان أبي سعيد ، وقرب له البعيد ، وقال له أنا أمكنك من تلمسان فإنها خالية على من الفرسان ، وأن وزير السلطان أبي حمو متوغلا بالبلاد الشرقية ، ونحن العرب في عصابة قوته ، وزين له أساطيره التي سطرها ، وأنزله بظاهر بني ورنيد من حوز تلمسان ، وحوله جميع العربان .(3)

---

(1) المرجع السابق ، عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ص 59

(°) عمر بن عبد الله ، وزير الدولة المرينية المستبد بالحكم ،

(2) المصدر السابق ، العبر جزء 7 لعبد الرحمن بن خلدون ص168- 169.

(3) المصدر السابق ، زهرة البستان لمؤلف مجهول ، ص 18-80. كذلك أنضر ديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن ابن خلدون ، ج7،ص 168

فلما سمع السلطان أبي حمو موسى الثاني الخبر ، أمر من حينه بإخراج المحال ، وحشد أهل حوز تلمسان ، ومن بقي به من الأبطال ، فتيسرت له محلة وافرة و أحشاد متكاثرة ، خرج على المحلة وزيره عمر بن موسى ، وحل بضاهر بني ورنيد المذكور وقاتله قتالا شديدا ، إلا أن أبي حمو أخرج محلة أخرى عصابة من بني عبد الواد سرية ، قدم عليها ولده الأمير أبا تاشفين ، وأرسله إثر وزيره عمر بن موسى للحين واختلطت المحال بالمحال ، وأشتد القتال ، ورأت الأعراب بأن لا قبل لها بيه ، ورأى خالد بن عامر ما لم يكن في حسابه ، ففرت الأعراب على أعقابها نكصا ، فجفلوا إجفال النعام ، وتبعهم الأمير ابو تاشفين بالحسام ، فوقع فيهم القتل الذريع ، وفي أموالهم النهب الشنيع ، وفر محمد ابن السلطان ابي سعيد ، يطلب النجاة برأسه ، وفرح أبي حمو وزف البشارة لأبنه أبو تاشفين بالنصر والأموال التي غنموها من العرب .(1) بذل أبو زيان المال لخالد بن عامر على يقصيه إلى بلاد رياح ، ففعل وأوصله إلى الذواودة فأقام فيهم ثم دعاه أبو الليل بن موسى شيخ بني يزيد وصاحب وطن حمزة وبني حسن ....) ووصل الخبر لأبي حمو وأنهض إليه الوزير عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الوادي وحشود العرب وزناتة فأيقن أبو الليل بالغلب ، وبذل له الوزير المال وشرط له التجافي عن وطنه على أن يرجع عن طاعة أبي زيان ففعل ، وانصرف إلى بجاية ونزل بها على السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي يحي أكرم نزل ، ثم وقعت المراسلة بينه وبين السلطان أبي حمو وتمت المهادنة وانعقد السلم على إقصاء أبي زيان عن بجاية فارتحل إلى حضرة تونس وتلقاه الحاجب أبو محمد بن تافراكين ، قائم الدولة الحفصية لذلك العهد ورحب بيه ورفع منزلته (2)

المطلب الثاني : الخبر عن قدوم أبي زيان حفيد السلطان أبي تاشفين ثانية من المغرب إلى تلمسان لطلب ملكها

وكان ملك المغرب ووزيره ، وإن أظهرا صداقة السلطان أبو حمو وصانعاه بالجميل إلا أنهم كان يخفون حقد كبير ، وحرب منظرة لمظاهرته كذلك ، كان العرب من سويد إحدى بطون زغبة وفية لبني مرين وشيعة من عهد عريف بن يحي مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان ، فكانوا عند بني عبد الواد في عداد عدوهم من بني مرين مع طاغية الدولة لبني عامر أقتالهم ، فكانوا منابذين (معادين) لبني عبد الواد آخر الأيام ، وكان كبيرهم ونزمار بن عريف مقربا من بني مرين منذ موت السلطان أبي عنان ، وكان مرموقا وذا شأن يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى قوله ، وأهمه شأن إخوانه في موطنهم ومع أقتالهم بني عامر ، فاعتزم على نقض الدول من قواعدها ، وحمل صاحب المغرب عمر بن عبد الله على أن يسرح محمد بن عثمان ابن أبي تاشفين لمعاودة الطلب لملكه ، ووافق ذلك نفرة استحكمت بين السلطان أبي حمو وأحمد بن رحو بن غانم كبير أولاد حسن من المعقل بعد أن كانوا أوفياء له ولوزيره عبد الله بن مسلم ، فاغتنمها عمر بن عبد الله وخرج أبو زيان محمد بن عثمان سنة 765هـ فنزل في حلل المعقل بملوية ، ثم نهضوا به الى وطن تلمسان وارتاب السلطان أبو حمو بخالد بن عمر أمير بني عامر فقبض عليه وأودعه المطبق (°) ثم سرح وزيره عبد الله بن مسلم في عساكر بني عبد الواد والعرب ، فأحسن دفاعهم وانفضت جموعهم ورحلهم الى الناحية الشرقية ، وهو في أتباعهم حتى نزلوا المسيلة من وطن رياح ، وصارو في جوار الذواودة ، ثم نزل بالوزير عبد الله بن مسلم داء الطاعون الذي عاود أهل العمران بعد ما أهلكهم سنة 749هـ ، فانكفأ به ولده وعشيرته راجعين ، وهلك في طريقه وأرسلوا جثته الى تلمسان ودفن بها ، وخرج السلطان أبي حمو إلى مدافعة عدوه وقد فت (°)موت عبد الله عضده ، (3)

---

(1) المصدر السابق ، زهرة البستان لمؤلف المجهول ، ص 18-80. أنظر أيضا ديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن ابن خلدون ج7، ص168.

(2) المصدر السابق ، ديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن ابن خلدون ج7، ص 169.

(°) المطبق : سجن تحت الأرض .

(3) المصدر نفسه ، ديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن ابن خلدون ج7، ص 169-170.

ولما انتهى إلى البطحاء وعسكر بها ، ناجزته (نازلته) جموع السلطان أبي زيان الحرب وأطلت راياته على المعسكر فداخلهم الرعب ، وانفضوا ، وأعجلهم الأمر عن أبنيتهم وأزوادهم ، فتركوها وانفضوا وتسلل أبي حمو يبغي النجاة إلى تلمسان واضطرب أبو زيان فسطاطه بمكان معسكره ، وسبقه أحمد بن رحو أمير المعقل إلى منجاته بسيك وكر إليه السلطان أبو حمو فيمن معه من خاصته وصدقوه الدفاع فكبا به فرسه وقطع رأسه ، ولحق السلطان أبي حمو بحضرته وأرتحل أبو زيان والعرب في أتباعه إلى أن نازلوه بتلمسان أياما ، وحدثت المنافسة بين أهل المعقل وزغبة ، واسف زغبه استبداد المعقل عليهم وامنفرد أولاد حسين برأي السلطان دونهم ، فاغتنمها أبي حمو موسى وأطلق أميرهم عامر بن خالد من محبسه وأخذ عليه الموثق من الله ليخذلن الناس عنه ما استطاع ، وليرجعن بقومه عن طاعة أبي زيان وليفرقن جموعه ، فوفى بذلك العهد ونفس عليه المخنق وتفرقت أحزابهم ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني مرين واستقام أمر السلطان أبي حمو موسى الثاني وصلحت دولته . (1)

المطلب الثالث : تجدد المنافسة بين أولاد السلطان أبي حمو ومجاهرة أبي تاشفين بذلك لهم ولأبيه وانقلابه على أبوه واستبداده بالحكم

كان التنافس بين هؤلاء الأولاد خفيا على الناس بما كان السلطان أبوهم يؤامل بينهم بينهم ويداري بعضهم عن بعض ، فلما خرجوا أمام بني مرين وعادوا إلى تلمسان صار تنافسهم إلى العداوة ، واتهم أبو تاشفين أباه بتعبئة إخوته عليه ، فشمر لعقوقه وعداوته ، وشعر السلطان بذلك فأعمل الحركة إلى ناحية البطحاء موريا بإصلاح العرب ، ومعتزما على لقاء ابنه المنتصر بملياني جناحه ، ويتخطى إلى الجزائر فيجعلها دار ملكه بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين وحالفه على المناصحة ، واطلع موسى بن يخيلف على خبيئة السلطان بذلك ، فدس بها إلى أبي تاشفين على عادته ، فطار به الأسف كل مطار وأغذ السير من تلمسان فيمن معه من العساكر ، وصبح أباه بأسفل البطحاء قبل أن يتصل بالمنتصر ، وكشف القناع عن التكبر والتسخط على ما بلغه ، فحلف على السلطان على ذلك وأرضاه بالرجوع معه إلى تلمسان فرجعا جميعا . (2)

ولما رجع السلطان من البطحاء وبطل ما كان يؤمله من الاتصال بالمنتصر ، دس إليه مع خالصة من أهل دولته يعرف بغلي بن عبد الرحمن بن الكليب بأحمال من المال يودعها إلى أن يجد السبيل لحاجة نفسه ، وكتب له بولاية الجزائر ليقيم بها حتى يخلص إليه . وأطلع موسى على ذلك فأطلع أبا تاشفين على الخبر ، فبعث في أثره حاشيته من اغتال ابن الكليب وجاء إليه بالمال والكتب ، فاطلع منها حقيقة أمرهم وأنهم متربصون به ، فاستشاط وجاهر أباه وغدا عليه بالقصر ، فأوقفه على الكتاب وبالغ في عذله (لومه) . وتحيز موسى بن يخلف إلى أبي تاشفين ، وهجر باب السلطان وأغرى به ابنه فغدا على أبيه بالقصر بعد أيام وخلعه ، وأسكنه بعض حجر القصر ، ووكل به واستخلص ماكان معه من الأموال و الذخيرة . ثم بعث به إلى قصبة وهران فاعتقله بها ، واعتقل من حضر بتلمسان من إخوته ، وذلك آخر 788هـ . بلغ الخبر إلى المنتصر بملياني وأبي زيان وعمير ، فلحقوا بقبائل حصين واستذموا بهم ، فأذموهم وأنزلوهم عندهم بجبل تيطري ، وجمع أبو تاشفين العساكر وستألف العرب من سويد وبني عامر ، وخرج في طلب المنتصر وإخوانه ، ومر بملياني فملكها ... (3)

---

(1) المصدر نفسه ، ديوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن ابن خلدون ج7، ص 169-170.

(2) المصدر نفسه العبر وديوان المبتدأ و الخبر ، لعبد الرحمن بن خلدون ، ج7 191.

(3) نفسه ، ص ، 191-193.

ثم تقدم إلى جبل تيطري وأقام في حصارهم به ، وهم ممتنعون عليه. فلما طال مقام أبي تاشفين على تيطري لحصار إخوته ، ارتاب بأمر أبيه وطول مغيبه عنه ، وشاور أصحابه في شأنه ، فأشاروا بقتله واتفقوا على ذلك ، فبعث أبو تاشفين ابنه أبا زيان في لمة من حاشيته فيهم ابن الوزير همران بن موسى ، وعبد الله ابن الخرساني ، فقتلوا من كان معتقلا بتلمسان من أبناء السلطان أبي حمو ، وتقدموا إلى وهران ، وسمع أبي حمو بمقدمهم ، فأوجس الخيفة منهم واطلع من جدران القصبة ينادي بالصريخ في أهل البلد ، فتبادرو إليه من كل جهة ، وتدلى لهم بجبل وصله من عمامته التي كان متعمما بها ، فشالوه حتى استقر بالأرض واجتمعوا إليه ، وكان الرهط الذين جاؤا والقتلة بباب القصر ، وقد أغلقه دونهم . فلما سمعوا الهيعة واستيقنوا الأمر ، طلبوا النجاة بدمائهم ، واجتمع أهل البلد على السلطان ، وتولى كبر ذلك خطيبهم ، وجددوا له البيعة وارتحل من حينه إلى تلمسان ، فدخلها أوائل 789هـ وهي يومئذ عورة بما كان بنو مرين هدموا من أسوارها وأنزلوا حصنها ، وبعث فيمن كان مخلفا بأحياء بني عامر من أكابرهم ووجوههم ، فتقدوا عليه وطار الخبر إلى أبي تاشفين بمكانه من حصار تيطري ، فقفل راجعا إلى تلمسان فيمن معه من العساكر والعرب ، ودخل أبو تاشفين القصر ، وبعث في طلبه ، وأخبر بمكانه فجاء إليه بنفسه واستنزله من المأذنة ، وأدركته الرقة ، فجهش بالبكاء وقبل يده ، وغدا به إلى القصر واعتقله ببعض الحجر هنالك ، ورغب إليه أبوه في تسريحه إلى المشرق بقضاء فرضه ، فشارط بعض تجار النصارى المترددين إلى تلمسان من الثيطلان على حمله إلى الإسكندرية ، وأركبه السفن معهم بأهله من فرضة وهران ذاهبا لطيبة موكلا به وأقبل أبو تاشفين على القيام بدولته . (1)

---

(1) المصدر السابق ، العبر ودبوان المبتدأ والخبر ، عبد الرحمن ابن خلدون ، ج7 ، ص 191_192

الفصل الثاني
العلاقة الثقافية للدولتين

المبحث الأول : المقومات الثقافية للدولة الزيانية

المبحث الثاني : المقومات الثقافية للدولة المرينية

المبحث الثالث : العلاقات الثقافية بين الدولتين

المبحث الأول : الحياة الثقافية في الدولة الزيانية في عهد أبي حمو موسى الثاني

عرفت الحياة الثقافية في المغرب الأوسط على عهد الدولة الزيانية تطورا علميا وازدهار ثقافيا وفكريا هاما ، برزة معالمه من خلال النشاط العلمي الذي عرفته البلاد و الذي ترجمته حركة العلماء وشغفهم في التحصيل وانتهال العلوم وإقبالهم على الإبداع و التأليف ، والذي ظهر جليا من خلال المصنفات و الكتب التي ألفت في تلك الفترة والتي تنوه عن المشاركة الفعالة لعلماء بني زيان في مختلف العلوم العقلية و النقلية . ومن مظاهر هذه الحركة الثقافية و الفكرية اهتمام سلاطين بني زيان بالعلم والعلماء والعمل على تقريبهم من مجالسهم وحضور دروسهم و إجراء الأرزاق عليهم ، وبماء المدارس و المساجد ومختلف المؤسسات التعليمية للخوض في مختلف العلوم ، والسماح لهم بالتنقل لانتهال العلوم واستقدامها إلى بلدهم ، مما جعل تلمسان الزيانية عاصمة الدولة حاضرة علمية وثقافية هامة تتوافد عليها قوافل العلماء وطلبة العلم من المشرق و المغرب الأندلس للاستزادة و التحصيل و الإجازة من كبار شيوخها وعلمائها . ومن معالم هذا التطور العلمي تلك المنشآت التعليمية والثقافية الي خلفها بنو زيان و التي كانت شاهدا على رقيهم وازدهارهم ، إضافة إلى حركة العلماء و المناظرات العلمية الجادة وخوضهم في مختلف العلوم العقلية والنقلية .

المطلب الأول : المؤسسات الثقافية و التعليمية الزيانية :

عمل السلاطين الزيانيون على تشييد المؤسسات النظامية بالمشرق (1) ليتعلم فيها طلبة العلم و النعرفة مختلف العلوم النقلية والعقلية ، وتتخرج منها الإطارات التي تدعم الجهاز السياسي و الإداري والمالي و القضائي ، ومختلف مصالح الدولة ومؤسساتها حتى الجيش .

1) المساجد : كانت المساجد قبل تأسيس المدارس و الزوايا في المغرب الإسلامي عموما ، هي المؤسسة التي تستقبل الطلبة و المصلين في حلقات دراسية داخل المسجد ، فكان بذلك عبارة عن جامعة أو معهد بالإضافة إلى كونه مقر للعبادة تلقى فيه الدروس وتعقد فيه حلقات البحث ، وتنظم فيه المناظرات العلمية ، و الحوارات الفقهية والمطارحات الأدبية و اللغوية ودروس الوعظ و الإرشاد و الإفتاء ، ويجمع فيه أصحاب المصالح العامة

و الخاصة ، كما كانت تقرأ فيه البلاغات الرسمية للدولة ، ويجتمع فيه الأولياء لتدبير زواج بناتهم و أبنائهم

و تمضي فيه العقود التجارية وتؤخذ إليه الجنائز قبل الدفن للصلاة عليها (2) ورغم أن النصوص و الوثائق التاريخية ، قد أحجمت عن إعطائها جميع أسماء المساجد التي شيدت في مدينة تلمسان وضواحيها ، إلا أن بعض الإحصائيات تكشف لنا عددها الذي بلغ ستين مسجدا (3). وقد انتشرت المساجد عبر أحياء المدينة ، منذ دخلها الفاتحون في النصف الثاني من القرن الأول الهجري (7م) مادتها الأولى تحفيظ القرآن و الحديث ثم تدريس النحو والفقه واللغة والأدب حتى أصبحت كالمعاهد العليا التي تدرس مختلف العلوم الإسلامية (4)

كالفقه وأصوله و الحديث و القرآن وتفسيره واللغة و النحو و الأدب ، ومن بين هذه المساجد الجامعة (5) نذكر :

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج1، ص 141. و أيضا عبد الحميد حاجيات و أخرون ، الجزائر في التاريخ ، ص438.

(2) أبو قاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري ،ج1 ، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، ص34

(3) يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد، ج1، طبع بمطبعة بيير فونطانا الشرقية في الجزائر، 1903،ص 211

(4) محمد منير موسى : التربية الإسلامية أصولها وتطورها فب البلاد العربية ، القاهرة ، 1983، ص 221.

(5) رشيد بوروبة ، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية ترجمة شبوح إبراهيم ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1979.

أ) المسجد الجامع بأغادير: يبدو أنه أقدم مسجد في المدينة يعود تاريخ تأسيسه إلى ما قبل استيلاء الأدارسة على مدينة تلمسان بقيادة إدريس الأكبر سنة 174هـ / 790م الذي أعادوا بناءه ورمموه أكثر من مرة في عهد كل من إدريس الأول (1) ،وابنه إدريس الثاني وزينوه ووسعوه وأضافوا له المنبر و المحراب (2) ، كما حظي هذا المسجد بعناية الأمير يغمراسن الذي قام بترميمه وبماء مئذنته (3) ، وقد استأذن في كتابة اسمه بها فقال بالزناتية " يسنت ربي ، أي عرفه الله، (4)

ب) المسجد الأعظم بتاجرارت : من أبرز المساجد المغربية شيده الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي ، أثناء بنائه لمدينة تاجرارت سنة 473هـ /1080م، وأعاد بناءه ابنه علي بن يوسف سنة 530هـ/1135م، وقد غلبت عليه لمسة فنية أندلسية ، حتى صاؤر تحفة معمارية رائعة تدل على إعادة بنائه في عهد علي بن يوسف الكتابة الموجودة على المحراب : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم ، هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل ... أيده الله وأعز نصره وأدام دولته ، وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأزل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم ، فتح في شهر جمادى الأخير عام ثلاثين وخمسمائة (5) وكان لهذا المسجد دورا عظيما إذ أصبح يضاهي أكبر الجامعات في تلك الفترة كجامع الزيتونة بتونس وجامع القرويين بالمغرب ، فأصبح معهدا للتدريس ، خاصة بعد الهجرة الأندلسية ، وتوافد العلماء وطلاب العلم ، حيث صارت تلمسان حاضرة من حواضر الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي . (6)

ج) مسجد سيدي أبي الحسن : يقع هذا المسجد بالقرب من المسجد الأعظم ، قام ببنائه السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سمة 696هـ /1296م (7)، ويحمل المسجد اسم أحد مشاهير علماء تلمسان و هو أبو الحسن بن يخلف التنسي ، الذي كان يلقي دروسه به ، وقد نسبه إليه السلطان أبو سعيد عثمان لأنه كان من أفضل علماء عهده وأتقاهم وأروعهم ، والمسجد هذا صغير الحجم إذا ما قورن بالمساجد التلمسانية الأخرى .(8).

د) مسجد أولاد الإمام : أنشأه السلطان أبو حمو موسى الأول سنة 710هـ /1310م ليكون ملحقا بالمدرسة القديمة التي بناها لابني الإمام ، وهما عالمان كانا قد قدما من مدينة برشك (9) ، وقد فقد هذا المسجد زينته الزيانية ولم يبق منه إلا القبيبة المزينة بالمقرنصات التي تكلل مشكاة المحراب ومئذنتها الجميلة ، وهو يقع بالقرب من مسجد أبي الحسن ، وتوجد بعض القطع الأثرية منه في المتحف البلدي بتلمسان (10)

---

(1) ابن أبي زرع ، ؟ ص 68.

(2) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 21-50. و أيضا ، رشيد بوروبة ، جولة عبر مساجد تلمسان ،

(3) يحي بن خلدون ، المصدر السابق، ج1، ص207.

(4) محمد بن عبد الله التنسي ، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان . ص 125.

(5) رشيد بورويبة جولة عبر مساجد تلمسان ، ص 172

(6) مبخوت بودواية ، ص، 69.

(7) محمود بو عياد ، جوانب الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع هجري (15م) ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص 81.

(8) محمد بن رمضان شاوش ، ؟ ص 213، و أيضا رشيد بورويبة و أخرون ، الحياة الفنية في عهد الزيانيين و المرنيين ، الجزائر في التاريخ ، ج3، ص 496.

(9) ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، نشره محمد بن أبي شنب وقدم له عبد الرحمن طالب ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986، ص 123-127.

(10) رشيد بوريبة ، الجزائر في التاريخ ، ص 496.

هـ) مسجد سيدي إبراهيم المصمودي : شيده السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني إلى جانب القبة والزاوية و المدرسة (1) ، وهي المباني التي بناها تكريما لوالده أبي يعقوب ، لذلك كانت تحمل اسم المدرسة اليعقوبية ، غير أن هذه الأخيرة اندثرت مع الزاوية ولم يبق سوى المسجد و القبة (2) الذي ضم مئذنة مربعة الشكل وقبة مزينة بأخاديد تشبه قبة حمام الصباغين بتلمسان التي يرجع عهدها إلى العهد المرابطي ، ون ثم يتضح تأثر هذا المسجد بالعمارة المرابطية وكذا الموحدية ، إذ أن أبوابه تماثل أبواب مسجد تينملل بالمغرب الأقصى (3) .

2) المدارس:

ظهرت المدرسة كمؤسسة ذات نظام تعليمي وإداري ومالي مع مطلع القرنالخامس الهجري الحادي عشر ميلادي بالمشرق الإسلامي (4) ، ومنه امتدت إلى مختلف أنحاء العالم على فترات متفاوت .

وقد تأخر ظهورها في بلاد البمغرب إلى النصف الأول من القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي ، أن النشاط التربوي و التعليمي الذي كان سائدا قبل هذه الفترة كان ينحصر بين الكتاتيب والمساجد و المؤسسات التعليمية الصغيرة ، وظل الوضع قائما دون تنظيم (5) ، إلى القرن السابع حيث ظهرت أول مدرسة نظامية بإفريقية ، وهي تلك التي عرفت بمدرسة الشماعين أو مدرسة الشماعية ، والتي أسست من قبل السلطان الحفصي أبي زكرياء 625_647هـ . (6) وقد عرفت بأم المدارس (7) ، أما المرينيون فقد عرفوا هذا النوع من المدارس النظامية في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني حيث أسس مدرسة الصفارين سنة 675هـ (8) ، أما في تلمسان الزيانية ، فلم تظهر إلا مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي ، حيث أهتم السلاطين الزيانيون بإنشائها رغم تأخرها عن بلاد المشرق ، وعن إفريقية والمغرب الأقصى (9) ، وكان هدفهم نشر التعليم والثقافة ورفع درجة الوعي بين الرعية و توجيهها وجهة تخدم الصالح العام و المجتمع ، وكذا بعث الاستقرار و السكينة و الأمن و الهدوء بينهما (10) ، وقد كانت هذه المدارس تعتمد في تمويلها على الأحباس بالدرجة الأولى (11) ، ثم على الإعانات التي تأتي من التجار ، و العلماء وميسوري الحال ومن السلاطين و الأمراء ، حيث يذكر الحسن الوزان أن تلمسان الزيانية قد عرفت عددا لا بأس به من المدارس وصل عددها إلى خمس حسب قوله : "...وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة ، لها أئمة وخطباء ، وخمس مدارس حسنة ، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية ، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس ..."(12) ،

---

(1) يحي بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد ، ج2 دار الأمل للدراسات ، الجزائر ، ص 136

(2) رشيد بورويبة ، جولة عبر مساجد تلمسان ، ص 176، و أيضا ، عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى ، ص، 182.

(3) رشيد بورويبة ، الجزائر في التاريخ ، ص 497.

(4) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج1، ص 141.

(5) الغبريني ، عنوان الدرية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ، 1981، ص 100-101.

(6) الزراكشي محمد بن إبراهيم ، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، تحقيق محمد ماصور ، الكتبة العتيقة ، تونس ، 1966، ص 26.

(7) القلصادي ، رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع، 1978، ص 115.

(8) عبد العزيز لعرج ، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الآثار ، جامعة الجزائر ، 1998. ص 313-314.

(9) عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ج2 ، ص 324.

(10) نفسه ، ج2، ص 326.

(11) عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج1، ص 141.

(12) الحسن الوزان ، وصف ‘إفريقيا ، جزءان .الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ، ج2 ، ص 19.

بالإضافة إلى مدارس أخرى تنتشر عبر أرجاء المغرب الأوسط كافة كمدارس وهران مثلا و التي يقول عنها أيضا : "وهران مدينة كبيرة فيها ستة ألاف كانون ، بناها الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر المتوسط ... و بها من البنايات و المؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة من مساجد و مدارس ..." (1) ، وعلى الرغم من انشغال السلاطين الزيانيين بحروبهم الداخلية و الخارجية إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاهتمام بالجانب الثقافي و التعليمي ، فقد كانوا يحبون العلم ويقربون العلماء من مجالسهم ، وقد شيدوا لهذا الغرض عددا من المدارس التي كانت بمثابة المعاهد العليا يتكون فيها الإطارات العليا في شتى المجالات .

من أهم المدارس الي اشتهرت في تلمسان نذكر :

أ) مدرسة الإمام : هي أول مدرسة أسسها الزيانيون في تلمسان(2)، أسست من قبل السلطان أبو حمو موسى الأول مابين 707هـ و718هـ بناحية المطمر (3) سميت على اسم العالمين الأخوين أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام و أخيه أبي موسى عيسى بن الإمام(4)، وهما أبناء الفقيه الخطيب أبي عبد الله بن عبد الله بن الإمام من أهل برشك ، وقد كانا إمامين مشهورين بالعلم و الرياسة ، لهما سلف صالح ، نزلا بتلمسان أيم السلطان أبي حمو بن أبي سعيد بن يغمراسن ، الذي بناء لهما هذه المدرسة وكلفهما بإدارة التدريس بها فحملت اسمهما (5)

ب) المدرسة التاشفنية : أمر بتشييدها السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول بن أبي حمو موسى الأول ، لما أصبحت المدرسة التي بناها والده لا تستوعب عدد الطلاب وتهافتهم على العلم والأدب ، فكانت بجانب المسجد الجامع الأعظم(6)، تكريما للفقيه أبي موسى عمران المشذالي(7) ، سخر لبنائها أشهر البنائين والفنانين ، فأصبحت مدرسة شيدت بالمغرب الإسلامي ، نموذجا فريدا للزخارف التي احتواها قصور تلمسان ، في ذلك العهداحتفل السلطان أبو تاشفين بتشييدها احتفالا كبيرا ، حضرته مشيخة تلمسان من علماء وفقهاء وأدباء ، وأهمهم الفقيه أبو موسى عمران المشذالي الزواوي أعرف أهل زمانه بمذهب الإمام مالك . (8)

ج) المدرسة اليعقوبية : أسسها السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني9)760 هـ –791هـ سنة 765هـ تخليدا لوالده أبي يعقوب المتوفي سنة 763هـ/ 1362م ، وكان أبو حمو قد أمر بدفن أبيه برياض يقع بالقرب من باب إيلان ، ونقل رفاة عميه أبا سعيد وأبا ثابت من مدفنهما بالعباد إلى جوار ضريح والده ، ثم شرع في بناء مدرسة جانب أضرحتهم ، عهد للتعليم فيها إلى أشهر علماء تلمسان آنذاك الشيخ الشريف الحسني أبي عبد الله (توفي سنة 771هـ/1370م) (10).

---

(1) الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 30.

(2) يرى جورج مارسيه أن هذه المدرسة كانت تقع غرب مسجد أولاد الإمام و شماله، وكانت تشتمل على قاعتين كبيرتين يتلقى فيها طلبة العلم ، بجانبهما بيتان يقيم فيهما شيوخ المدرسة: Marcais (G) et (W) Blian. Les monuments . op cit . p.168

(3) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 34. 123–126.

(4) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 130. أيضا التنسي المصدر السابق ، ص ، 139.

(5) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 130 ، و أيضا ، عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7، ص821–824.

(6) التنسي المصدر السابق ، ص 141، و أيضا عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى ، ص 61.

(7) يحي أبن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 130، أيضا التنسي ، المصدر السابق ، ص 141.

(8) نسي ، المصدر السابق ، ص 141،

(9) المقري ، المصدر السابق ، ج8، ص 154–157.

(10)يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2 ، ص ، 104، و أيضا عبد الحميد حاجيات ، أبو موسى الزياني ، ص 159,182.

(11)يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 120.

وقد جعل أبي حمو موسى الثاني هذه المدرسة ملحقة بزاوية ومقبرة خصصها لرفاة ملوك تلمسان وأمرائها من بني زيان ، ولسوء الحظ فإن هذه المدرسة قد اندثرت ولم يبق منها إلا ذلك الوصف الجميل في النصوص التاريخية . (1)

مدارس وهران والجزائر ومازونة : انفرد بذكر هذه المدارس الحسن الوزان دون تفصيل حيث ذكر : " ..

وهران مدينة كبيرة فيها ستة ألاف كانون ، بناها الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر ... بعيدة بنحو مائة وأربعين ميلا من تلمسان ... بها من البنايات و المؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة ، من مساجد ومدارس ..."، أما مازونة فقد ورد أن بها مدارس تشبه إلى حد كبير مدارس تلمسان ، أما مدرسة الجزائر (2) فقد أسسها أبو الحسن المريني ، فكانت عبارة عن مسكن للطلبة يقيمون به .(3)

ومما يلاحظ على هذه المدارس أنها كانت تدرس المذهب المالكي ، وقد كانت مدارس حكومية رسمية تابعة للدولة التي ظلت تشرف عليها بالتمويل ، وتعين الأساتذة والمدرسين وكان كل مدرسيها من المالكية (4) . أما عن طبيعة التعليم واتجاهه في هذه المدارس في بدايتها فيبدو أن الاهتمام كان موجها إلى العقيدة أكثر منه إلى التشريع الديني ولم يعد الاهتمام في المقام الأول عند العلماء موجها إلى الكلام ومعطيات العقيدة كما كان الحال أيام الموحدين ، لكن مع مطلع القرن السابع هجري عرف علم الأصول نشاطا كبيرا من دراسة الحديث و القرآن (5) إلى جانب العلوم المساعدة من نحو ولغة وبلاغة ومنطق وتاريخ ، وطب وحساب وعلم وفلك(6) ، وقد اختلفت طرق التدريس في هذه المدارس باختلاف الشيوخ الذين كانوا يشرفون عليها ، فمنهم من كان يعتمد على الطريقة التقليدية (الإلقاء والشرح) كأن يقوم أحد الطلبة بقراءة نص ما في المادة المدروسة ويتولى الأستاذ شرحه فقرة فقرة ويقوم الطلبة بتقييد مايهمهم من شروح وأجوبة ، وكانت هذه الطريقة تعتمد على النقل والحفظ(7) .

لكن في النصف الثاني من القرن السابع الهجري حدثت ثورة في أساليب التدريس وعرفت طريقة أخرى تعتمد على الحوار والمناقشة و التعمق في البحث و التعليل وهي طريقة طبقها بعض أعلام الفقه المالكي ، بعد أن درسوا المنطق واستفادوا من علم الخلافيات ، كابتن زيتون ، وأبي عبد الله شعيب الدكالي وابني الإمام ، وناصر الدين المشدالي ، وكانت طريقتهم تعتمد على أعمال النظر وكثرة البحث ، وإثارة وجوه الخلاف و الرد عليها .(8) وقد خصصت السلطة الرواتب و الأجور للمدرسين ومصاريفهم ، كما حرص المشرفون على المدارس على إنشاء المكتبات ، وعمروها بالكتب حتى تساعد الطلبة في تحصيل مختلف العلوم. (9)

---

(1) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2، ص 104-136. و أيضا ، عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى ، ص 182-183.

(2) الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج2، ص 30. ص 37.

(3) مفدي زكرياء ، النشاط العقلي و التقدم الحضاري بالجزائر في عهد الزيانيين ، مجلة الأصالة ، عدد 26، 1975، ص 166.

(4) بيل ألفريد ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1987، ص 354.

(5) محمد مكيوي ، المرجع السابق ، ص 141.

(6) عبد الحميد حاجيات و أخرون ، المرجع السابق ، ص 438,439.

(7) محمد مكيوي ، المرجع السابق ، ص 139، و أيضا ، بودواية مبخوت ، المرجع السابق ، ص 87.

(8) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، 1968، ص 772-773.

(9) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 326.

المكتبات : كانت المدارس و المساجد تحتوي على مكتبات أو خزانات ساعدت الأساتذة والطلاب على التعلم والتحصيل ، وهي عموما كتب نادرة يصعب الحصول عليها ، أو اقتناءها لارتفاع أثمانها(1) ، كما لم تنحصر هذه المكتبات في المؤسسات التعليمية والثقافية (المدارس و المساجد و الزوايا والكتاتيب) بل أيضا لدى الخاصة وفي البيوت الأسر العريقة بالعلم (2) ، ولدى الوراقين . (3) ولم تقتصر هذه المكتبات على الكتب المتداولة في المغرب الأوسط و الأندلس فحسب بل كانت تشتمل على مصنفات من كل العالم الإسلامي وفي شتى المجالات خاصة أمهات الكتب الدينية ، المكتوبة بخط جميل ، والمجلدة تجليدا رفيعا ، وكذا المصاحف وكتب الوعظ و التصوف و الفقه وعلم الكلام (4) . ومن أهم المكتبات التي أنشأها سلاطين بني زيان بالمغرب الأوسط نذكر :

المكتبة التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني : سنة 760هـ /1359م .بالجامع الكبير بتلمسان على يمين المحراب بالمكان منالجدار القبلي الذي لازالت تتواجد فيه الخشبة التي كانت مثبتة فوق باب المكتبة مع النص المكتوب عليه : أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السلطان أبو حمو بن الأمراء الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه بما وصل ونوى وجعله من أهل التقوى وكان الفراغ من عملها يوم الخميس ثالث عشر لذي القعدة ،وكانت هذه المكتبة تزخر بنفائس المخطوطات في جميع العلوم والفنون (1). ولم تفقد تلك الكتب إلى حوالي 1266هـ /1855م ، حينما قامت مصلحة الآثار التاريخية بترميم الجامع الكبير بعد تغبر طرفيه الجنوبي و الشمالي ،

المكتبة التي أنشأها السلطان أبو زيان محمد الثاني : سنة 796هـ /1394م ، وكانت هذه المكتبة بالقسم الأمامي من الجامع الكبير وكانت تضم نفائس المؤلفات منها نسخ باليد كالمصحف الشريف وصحيح البخاري . ونسخ البخاري ونسخ من كتاب الشفاء (2) ، وللقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي(3) ، وقد نسخت هذه الكتب من قبل السلطان أبي زيان محمد الثاني وأوقف عليها أوقافا تكفل حسن سير عمالها واستمرار نشاطها التعليمي و الفكري و قد نقلت هذه المكتبة إلى المدرسة الدولية عام 1323هـ/ 1905م . (4)

الكتاتيب : تعد الكتاتيب من المؤسسات التعليمية القديمة التي عرفها المغرب الإسلامي عامة و المغرب الأوسط خاصة ، حيث كان التمدرس فيها يمثل مرحلة التعليم الابتدائي ، وقد انحصر التعليم في بادئ الأمر على حفظ القرآن الكريم باعتباره أصل التعليم ومنبع الدين و العلوم ، فجعلوه بذلك في مقدمة مايتعلمه الطفل حفظا وكتابة لأن تعليمه للصغار أشد رسوخا وحفظا حسب تعبير ابن خلدون (5) ، الذي يقول في هذا الصدد : فأما أهل المغرب فمنهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدرسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه ،

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 350.

(2) بودواية مبخوت ، المرجع السابق ، ص 88.

(3) بن الخطيب في الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق و تقديم ، محمد عبد الله عنان ، ج3 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص27.

(4) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2، ص 350.

(5) عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى ، ص 183

(6) التنسي ، المصدر السابق ، ص 211.

(7) القاضي عياض ابن موسى من كبار علماء عصره في الفقه و الحديث ، من أشهر تصانيفه " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " الذي نسخه أبو زيان محمد بن أبي حمو موسى بيده ، انظر التنسي ، المصدر السابق ، ص 211.

(8) محمد بن رمضان شاوش ، المرجع السابق ، ص 400.

(9) عبد الرحمن بن خلدون المقدمة ، ص 1038.

أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعهم في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة ، وهذا أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم ، الى أن يجاوز حد البلوغ (1) ، وكانت هذه الكتاتيب تنتشر في المدن و القرى ، حيث كانت عبارة عن حجرات مجاورة للمساجد حيث كانت عبارة عن غرف بسيطة أثاثها الحصير المصنوع من السمار أو الحلفاء وكان لكل تلميذ لوح من خشب المصقول ودواة للحبر وقلم من القصب الجاف و إناء يمحون فيه ألواحهم(2)

الزوايا : وإلى جانب المساجد والمدارس و الكتاايب انتشرت الزوايا في نواحي عديدة من المغرب الأوسط ، وهي عبلرة عن أبنية ذات طابع ديني ثقافي ، تقام فيها الصلوات الخمس ، فضلا عن تحفيظ القرآن و التعليم وإلقاء الدروس على الطلاب ، وقد قال عنها ابن مرزوق : " إن الزوايا عندنا في المغرب تأوي المتجولين ، ودار مجانية تطعم المسافرين (3) . ومن ثم فقد كانت الزوايا مدرسة يقصدها المريدون ومقرا لإقامة الطلبة ، وعابري السبيل كما كانت تضم مسجدا لإقامة الصلوات. و إلى جانب دورها التعليمي ، فقد كانت الزاوية تؤدي خدمات اجتماعية لأهل القرية أو البلدة فقد كانت تؤسس من قبل أهل الخير ورجال الطرق الصوفية أو كبار رجال الدولة ومن أموالهم الخاصة. أو تنشأ من قبل جماعة ، يوقفون عليها أوقافا لتغطية نفقاتها (4)، وقد اشتهر المغرب الأوسط بالعديد من الزوايا و الأضرحة ، لاسيما بعد انتشار التصوف ، وكثرة رجاله ، بعد أن صارت الزاوية تنافس المدرسة والكتاب في التعليم ولعل من أشهر هذه الزوايا نذكر :

× زاوية أبي يعقوب : التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده

× زاوية سيدي الحلوي : التي أنشأها أبو عنان شمال المدينة × زاوية أبي زيد × زاوية أبي مدين بالعباد (5)

× زاوية سيدي السنوسي(6): وهي زاوية أحمد الغماري وزاوية عين الحوت (7)،

× زاوية أبي عبد الله ، وهو أشهر الأعلام . أسس زاوية ألزم كل من يدخلها أن يكون سلوكه وفق السنة والسلف الصالح ، كما فرض عليهم سلوكا معينا في المأكل و الملبس (8)، × وزاوية ابن البناء بتلمسان .

أما الجزائر فكانت هي الأخرى تضم العديد من الزوايا و الأضرحة والقباب المقامة على الأولياء الصالحين منها: زاوية وضريح عبد الرحمن الثعالبي وزاوية عبد القادر الجيلاني (9) كما اشتهرت وهران بزاويتين : زاوية سيدي الهواري ، وزاوية الولى الصالح إبراهيم التازي نزيل وهران .(10)

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، طبعة القاهرة ، 1958، ص 397.

(2) الأخضر عبدلي ، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان (633-962) هـ (1236-1554) م رسالة دكتوراه دولة قسم التاريخ تلمسان ، 2005/2004، ص 160.

(3) ابن مرزوق ، السند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق مريا خيسوس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع

(4) بودواية ، مبخوت ، المرجع السابق ، ص 77. (الجزائر ، 1918، ص 406-411.)

(5) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 127، و أيضا عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى ، ص 182-183.

(6) يحي بم خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ص 203. و أيضا التنسي ، المصدر السابق ، ص 256.

(7) أبو قاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج1، ص 40.

(8) نفسه ، ص 264.

(9) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 149.

(10)أبو قاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 263.

(11)محمد المنوني ، الشيخ إبراهيم التازي نموذج بارز للتبادل الثقافي بين المغربين (ق 9هـ / 15 م) ، مجلة الثقافة ، السنة السادسة ، العدد 91 ، يناير – فبراير ، 1986 ، ص 159.

المطلب الثاني : أصناف العلوم النقلية و العقلية :

انتشرت هذه العلوم عبر أرجاء المغرب الأوسط لتصل إلى المغربين الأدنى و الأقصى ولتشمل مختلف مجالات و الميادين وتعرف تقدما وتنوعا ملحوظا ، حيث ومع ظهور الدولة الزيانية دخل المغرب الأوسط عهدا حافلا بالأمجاد ، خاصة بعدما تضافرت عدة عوامل أدت إلى ازدهار الحياة الفكرية التي ساهمت فيها بشكل كبير عناية ملوك بني زيان بالعلم والعلماء (1) ، طيلة ما ينيف عن ثلاثة قرون ، نتيجة المنافسة الشديدة التي كانت قائمة بينهم وبين ملوك المغرب الإسلامي عامة في شتى العلوم (2) ، وعنايتهم بإنشاء المؤسسات العلمية وتقربهم من العلماء وإجراء الأرزاق عليهم واستدعاء بعضهم من المشرق وباقي أنحاء المغرب الإسلامي للاستفادة منهم ، إضافة إلى وفد من علماء الأندلس الفارين من الاضطهاد المسيحي ، والذين استقروا في المغرب الأوسط يدرسون و يتدارسون ما جلبوا معهم من مصنفات هامة في مختلف العلوم ، كلها عوامل ساهمت في ازدهار الحياة الفكرية و الثقافية وتنوع العلوم (3) :

× العلوم النقلية :

أ) العلوم الدينية: (التفسير، الحديث، الفقه و التصوف)

غلب على المغرب الأوسط في العهد الزياني الطابع الديني ، فتميز هذا العصر بتأثير الدين على الحياة الفكرية ولذلك وجه الفقهاء و العلماء اهتمامهم بهذه العلوم التي عرفت تطور وازدهار كبير ، خاصة في التفسير والحديث والفقه فكثر المشتغلون بها ' لاسيما وأنها كانت تمكن الطلبة من الحصول على وظائف هامة في القضاء

و الدواوين الإدارية ، والأهم كونها من العلوم المحمودة التي يقبل عليها الناس حتى تصبح عبادتهم وتستقيم معاملاتهم(4) ، ولهذا الغرض فقد خصصت الدولة مجالس للتفسير و الفقه و الوعظ و الذكر ، فكان القرآن الكريم على رأس هذه العلوم حيث اهتم أهل تلمسان بدراسته وحفظه و تفسيره باعتباره المصدر الأول لتشريعهم ، فكانوا يدرسونه في الكتاتيب و المساجد و المدارس (5) ، إضافة إلى دراسة بعض المصنفات ك "أنوار التنزيل" للبيضاوي و "الكشف و البيان" لأبي إسحاق أحمد بن محمد التغلبي و " أحكام القرآن " لأبي الحسن علي بن محمد الطبري ، و "الكشاف عن حقائق التنزيل " لأبي القاسم محمد الزمخشري ، و "التهذيب" للبيهقي ، وكتاب "التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل " لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (6) .

1) في الحديث : × كتاب الموطأ للإمام أبي عبد الله مالك بن أنس × ، جامع البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري ، × مسند مسلم لمسلم بن الحجاج ، × جامع الترميذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترميذي ، × التمهيد و الاستذكار لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ، × المنتقى للقاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي ، × المختار الجامع بين المنتقى و الاستذكار لأبي عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمساني . (7)

---

(1) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 216، وأيضا التنسي ، المصدر السابق ، ص 171-211.

(2) محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ص 396.

(3) عبد الرحمن ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 232، أيضا عبد الحميد حاجيات و أخرون ، مرجع سابق ص 437.

(4) أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، دار الثقافة ، الجزائر ، 1991، ص 26-27.

(5) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 437-438.

(6) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 786-788.

(7)نفسه ، ص 26.

دون ‘إهمال المصدر الثاني في التشريع و هو الحديث الذي لقي نفس الاهتمام من أهل تلمسان حيث توسعوا في دراسة السنة النبوية ، وكانوا يعقدون لعلم الحديث مجالس عديدة بعد صلاة الصبح يحضرها الشيوخ للطلبة وعامة الناس (1) ، فكان القراء يحتفلون بختمة قراءة كتب الصحاح ، أما عن الفقه وأصوله فلم يكن اهتمامهم به أقل من العلوم الدينية الأخرى غير أنهم اقتصروا عموما على اتباع مذهب مالك بن أنس لأن رحلتهم كانت تتجه نحو الحجاز أكثر من غيره ، و هو غاية سفرهم لأداء فريضة الحج ، فكانوا يميلون إلى مذهب الحجاز مهد السنة النبوية . (2) وقد اعتمد أهل تلمسان في تدريسهم لهذه العلوم الدينية على العديد من أمهات المصادر و الكتب ، ولعل أشهر الكتب تداولا في هذه العلوم نذكر :

2) في التفسير :

"الوجيز في شرح كتاب الله العزيز " لأبي محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي و "لامية الشاطبي " وتفسير ابن عطية .

3) في الفقه و أصوله :

× كتاب المدونة و المختلطة لسحنون عبد السلام بن سعيد ، التهذيب لأبي سعيد البرادعي ،× كتاب التفريغ لأبي القاسم غبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري القرطبي ،× كتاب الواضحة لعبد الله بن حبيب القرطبي ،× كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني ، × كتاب التلقين للقاضي أبي محمد عبد الوهاب ، × كتاب المقدمات لأبي الوليد محمد بن أحمد بن راشد ، × كتاب التبصة لأبي الحسن اللخمي . (1)

من أشهر العلماء في ذلك العهد :

× أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي (3) ، التلمساني الشهير بالخطيب وكنيته شمس الدين :

ولد بتلمسان أواخر سنة 711هـ (4) ونشأ بها حيث تعلم مبادئ العلوم التي أخذها عن علمائها أمثال : أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي وابني الإمام ، وأبي عبد الله بن هدية القرشي ، وأبي عثمان سعيد بن علي المعروف بابن إسحاق الخياط وأبي محمد المجاصي و الآبلي ، وأبي علي حسن بن يحيى الحسن ، وفي سنة 718هـ ارتحل الى المشرق مع والده حيث أقام بالحجاز مدة ، ثم عاد إلى القاهرة فأخذ بها على برهان الدين الصفاقصي (5) ، وبعد عودته إلى المغرب الأوسط سنة 735هـ وجد السلطان أبو الحسن المريني محاصرا لتلمسان ، وهو الذي شيد بها مسجد العباد وكان عمه محمد بن مرزوق خطيبا فيه ، وبعد وفاة عمه ولاه السلطان خطابة المسجد ، حيث نال حظوة كبيرة عنده حتى صار من المقربين منه ، وجعله يلازم العلماء و الفضلاء و الأكابر ، وحضر معه معركة طريف ، حيث بعثه السلطان أبو الحسن للتفاوض مع ملك قشتالة من أجل تحرير ابنه أبي عمر تاشفين من الأسر ، وقد استطاع الخطيب إبرام الصلح بين السلطان أبي سعيد الزياني و السلطان أبو الحسن المريني ، الأمر الذي دفع بأبي ثابت الزياني إلى إلقاء القبض عليه وسجنه (7) ،

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 442.

(2) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 805.

(3) يحي بن خلدون ، المصدر السابق . ج2، ص 36-38.

(4) المسند ، ص 15.

(5) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص115.

(6) التنسي ، المصدر السابق ، ص 184.

(7) الأخضر عبدلي ، المرجع السابق ، ص 145.

وبعد الإفراج عنه تولى ابن مرزوق الخطابة بمسجد الحمراء بغرناطة وسنة 754هـ استدعاه السلطان أبو عنان في مهمة إلى تونس ووشى به إلى السلطان فسجنه مدة ثم أطلقه ، وفي عهد السلطان أبي سالم المريني عظم نفوذ ابن مرزوق مما أثار حقد رجال الدولة ضده ، حيث بعد الإطاحة بأبي سالم المريني من قبل وزيره عمر بن عبد الله سنة 762هـ سجن ابن مرزوق وكاد يقتل لولا أن أطلق سراحه الوزير عمر ، فرحل إلى تونس سنة 766هـ ، ونزل على السلطان أبي إسحاق الحفصي ، فأكرم وفادته وولاه خطابة جامع الموحدين ، و التدريس ببعض المدارس ، وفي سنة 722هـ ارتحل إلى المشرق فنزل بالإسكندرية ثم بالقاهرة ، فاتصل بالسلطان الأشرف فأكرم مجلسه وولاه التدريس وقضاء المالكية إلا أن توفية سنة 781هـ ، ومن أشهر تلامذته : أبو إسحاق الشاطبي وابن قنفذ القسنطيني ، ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهم (1) . ومن تأليفه : "عجالة المستوفر و المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب و الحجاز "و " تسيسير المرام في شرح عمدة الأحكام "في خمسة أجزاء وشرح على بن الحاجب الفرعي عنوانه "إزالة الحاجب على رفع بن الحاجب" "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن (2) " "إيضاح المرشد فيما تستمل عليه الخلافة من الحكم و الفوائد "ديوان خطب وقصائد" كتاب في التنجيم"جني الجنين في فضل الليلتين القدر و المولد"

× أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحي بن عبد الرحمن القرشي الشهير بالمقري (3) : ولد ونشأة بتلمسان ، أخذ عن كبار علمائها أمثال ابني الإمام و أبو موسى عمران المشذالي ، و القاضي ابن عبد النور و أبو عبد الله التميمي ومحمد المجاصي وغيرهم ولما أحتل أبو الحسن المريني تلمسان سنة 737هـ جلب معه جمعا من علماء فاس ، فأخذ عنهم المقري الحديث واللغة العربية و الفقه و الفرائض أمثال : أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي والسطي و الآبلي ...) (4) ، ثم رحل بعدها إلى بجاية فلقي بها عددا من العلماء أمثال : أبا عبد الله محمد بن يحي الباهلي المعروف بابن النسفر ، ثم توجه نحو تونس فأخذ عن ابن عبد السلام ، وعن عبد الله بن هارون والشيخ الصوفي أبي الحسن ...) ثم عاد إلى تلمسان ، ومنها إلى فاس فأخذ عن علمائها كأبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي و أبي العباس المكناسي ثم انتقل إلى سبتة ومنها عاد إلى تلمسان ، ليرتحل مرة أخرى إلى المشرق ، (5) ، وفي سنة 744هـ توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج ، حيث إحتك بالكثير من العلماء في المشرق العربي ثم عاد الى المغرب الأوسط ، ليصطحبه السلطان أبو عنان إلى فاس فولاه القضاء و التدريس . من تأليفه : القواعد ، و الحقائق الرقائق ، و التحف و الطرف في غاية الحسن ، وعمل من طب لمن حب ، و المحاضرات ، و شرح جمل الخونجي ، من أشهر تلامذته : الشاطبي ، ولسان الدين بن الخطيب و عبد الرحمن بن خلدون ، وابن زمرك ، وأبو محمد بن جزي والقيجاطي ....) (6)

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7، ص 242- 248.

(2) المسند ، ص 48-50.

(3) المقري نسبة إلى مقرة القريبة من قرى زاد إفريقيا ، سكنها أجداده ثم ارتحل منها جده إلى تلمسان صحبة الشيخ أبي مدين .

(4) ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 154-160. يحي بن خلدون ، المصدر ، ج 1، ص 121.

(5) التنبكتي أحمد بابا، نيل الأبتهاج بتطريز الديباج ، على هامش ديباج ابن فرحون ، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية ، ج1 ، 2004، ص 250-255.

(6) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 121.

× أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقابي (°) : ولد بتلمسان سنة 720هـ / 1360م ، وأخذ العلم عن ابني الإمام و الآبلي والسطي ، نبغ في العديد من العلوم العقلية و النقلية ، حتى لقب برئيس العلماء و العقلاء بتلمسان (6) ، تولى الخطابة بالجامع الأعظم و التدريس بالمدرسة التاشفنية بتلمسان (1) ، كما تولى القضاء ببجاية أيام السلطان أبي عنان المريني ، ثم نقل منها إلى قضاء مراكش (2) ، وفي عهد أبي حمو موسى الثاني تولى قضاء وهران وهنين ثم قضاء تلمسان ، واستمر قاضيا مدة تزيد عن الأربعين سنة ، أخذ عنه جمع كثير منهم : أبنه قاسم العقباني و أبو الفضل بن الإمام ، وابن مرزوق الحفيد ، و إبراهيم المصمودي ، ويحي الشريف ، وأبو العباس أحمد بن زاغو المغراوي ، وبالإجازة الإمام النظار محمد بن عفان الجذامي ، وغيرهم ، ومن مؤلفاته : عدة شروح وتفاسير منها تفسير سورة الفاتحة و تفسير سورتي الأنعام والفتح وشرح البردة و شرح الجمل للخونجي في المنطق و شرح الحوضي في الفرائض وشرح أرجوزة ابن الياسمين في علم الجبر و المقابلة وشرح العقيدة البرهانية في أصول الدين توفي بتلمسان سنة 811هـ (3) .

× أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد : ولد بتلمسان سنة 766هـ /1354م ، ونشأ بها ينهل العلم عن والده وعميه ابني مرزوق وعن علماء عصره كأبي إسحاق المصمودي و أبي الحسن الأشهب الغماري ، وأبي محمد عبد الله بن الشريف التلمساني وسعيد العقباني ، ثم ارتحل إلى تونس حيث لقي بها الإمام ابن عرفة و أبو العباس القصار ، ثم توجه إلى المشرق فدخل مصر و أخذ عن أجلة علمائها كأبي السراج البلقيني و الزين الحافظ العراقي ، والفيروز بادي صاحب القاموس ...)ثم عاد إلى موطنه (4) ، وفي سنة 790هـ التقى في مكة المكرمة بالبهاء الدماميني والنور العقيلي فاستمع إليهما وروى عن ابن الصديق صحيح البخاري ، وفي حجته الثانية سنة 819 هـ استمع إلى الإمام ابن حجر (1) . و بلغ ابن مرزوق الحفيد مبلغا عظيما ، حيث بلغت شهرته كل حدب وصوب وصار يدعى شيخ الإسلام رحل إليه الكثير يطلبون من علومه كابن العباس ونصر الزواوي والحسن آبركان وعبد الرحمن الثعالبي ، وعمر القلشاني ....) (2) و من مؤلفاته المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية ، وإسماع الصم في إثبلت الشرف من جهة الأم ، و المفاتيح القرطاسية في شرح السقراطيسية و المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج ، وجزآن في علم الحديث الكبير المسمى بالروضة جمع فيه بين الفتيا لابن ليون و العراقي و مختصر الحديقة و المقنع الشافي... توفي سنة 842هـ ودفن بالجامع الأعظم بتلمسان . (1)

(°) العقباني ، نسبة لعقبان ، وهي قرية من قرى الأتلس .

(1) ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 107 .

(2) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 133،

(3) ابن مريم ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 106-107. أيضا يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 133.

(4) التنسي ، المصدر السابق ، ص 14، أيضا التنبكتي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 179.

(5) قال عنه ابن حجر : نعم الرجل معرفة بالعربية و الفنون وحسن الخط و الخلق و الوقار ، والمعرفة و الأدب التام انظر ، التنبكتي ، نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 179.

(6) التنسي ، المصدر السابق ، ص 14. أيضا التنبكتي ، المصدر السابق ، ج1، ص 180-182.

(7) التنبكتي ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 304-312.

× أحمد بن حسن بن علي الخطيب بن قنفذ القسنطيني : ولد سنة 740هـ ، وهو والد ابن قنفذ صاحب الفارسية ، أخذ عن العديد من العلماء كأبي علي حسن ابن أبي القاسم بن باديس ، والإمام الشريف أبي القاسم السبتي ، و الإمام الشريف أبي عبد الله التلمساني ، و الشيخ الحافظ أبي عمران موسى العيدوسي والحافظ القباب ...)(1) قضى حياته في التنقل مابين بجاية و إفريقية و المغرب الأقصى و الحجاز، مكث بالمغرب الاقصى 18 عاما حيث حصل علما كثيرا إذ أخذ عن الشريف أبي القاسم السبتي و أخذ عنه وقال في وفاته بعد الثناء عليه "...فهو ممن يحصل الفخر بلقائه " ومن آثاره : شرح الرسالة في أسفار وشرح الخونجي في سفر صغير وشرح أصلي بن الحاجب ، وشرح تلخيص ابن البنا و شرح ألفية ابن مالك ، وأنوار السعادة في أصول العبادة في شرح بني الإسلام على خمس ، وتيسير المطالب في تعديل الكواكب ، وله كتاب بغية الفارض من الحساب و الفرائض . ...) توفي عام 810هـ (2)

× أبو عبد الله محمد الشريف لتلمساني (710-771هـ) (1310-1371) م (3) : هو محمد بن أحمد بن علي بن يحي من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد بتلمسان سنة 710هـ ، ونشأ بها شغوفا بطلب العلم يتردد على المجالس العلمية ، أخذ عن ابني الإمام و الآبلي (4) ، ثم ارتحل إلى تونس سنة 740هـ ، فلقي الشيخ ابن عبد السلام و أخذ عنه التصوف و الحساب و الهندسة و الفرائض ، ثم عاد ‘لى تلمسان ليمتهن التدريس ، ولما استولى السلطان أبو عنان المريني عليها سنة 753هـ ، ألحقه بمجلسه العلمي و أخذه معه إلى فاس ، وبعد موت أبي عنان عاد إلى تلمسان في عهد أبي حمو موسى الثاني ، حيث استقبله بحفاوة وابتنى له المدرسة اليعقوبية التي انقطع للتعليم بها ، إلى أن وافته المنية ليلة الأحد 4 ذي الحجة سنة 771هـ/1370م (5). حيث أمر أبو حمو موسى بدفنه قبر والده تبركا به (6) ، أخذ عنه جمع كبير من العلماء الأجلاء كعبد الرحمن بن خلدون ،وابن السكاك و الإمام الشاطبي و إبراهيم المصمودي وولده أبو محمد وابن زمرك و إبراهيم الثغري والفقيه ابن محمد بن علي الميورقي وغيرهم ، من آثاره : كتاب في علم الأصول ، وشرح جمل الخونجي (7) ، شهد له العديد من أجلة العلماء بغزارة علمه وتفقهه ، فقال عنه عبد الرحمن بن خلدون : الإمام العالم الفذ فارس المعقول و المنقول وصاحب الفروع و الأصول أبو عبد الله الشريف . (8)

---

(1) نيل الأبتهاج ، ج1 109.

(2) نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 110. و أيضا ، عبد الحميد حاجيات ، الجزائر في التاريخ ص 441.

(3) البستان ، ص 179.

(4) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 120.

(5) التنسي ، المصدر السابق ، ص 179 .

(6) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 120.

(7) البستان ، ص 164، و أيضا ، نيل الابتهاج ، ج2، ص 94-95.

(8) ابن خلدون عبد الرحمن ، التعريف بابن خلدون رحلته شرقا و غربا ، تحقيق و تعليق محمد بن تاوية الطنجي ، نشر لجنة التأليف و النشر ، القاهرة ، 1951. ص 64.

× أبو عبد الله محمد بن عمر بن عثمان بن منبع بن عياشة بن سيد الناس بن أمين الناس الغياري(1) ص87 ، المغراوي (2) ، المعروف بسيدي الهواري(3) : هو فقيه وزاهد من أقطاب الصوفية في بلاد المغرب (4) ، ولد بمغراوة سنة 751هـ /1351م ونشأ بها اخذ علومه الابتدائية في إحدى كتاتيبها ، فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ علي بن عيسى ، ودرس مبادئ القراءة والكتابة ثم ارتحل إلى بجاية فأخذ عن عبد الرحمن الوغليسي (5) ، و أحمد إدريس المتوفي سنة 760هـ/ 1359م (6) ، ثم انتقل بعدها إلى فاس وفيها أخذ عن الشيخ موسى العبدوسي المتوفي سنة 776هـ (7) والشيخ القباب ومن فاس انتقل إلى المشرق ، فنزل بمصر التي أخذ فيها عن الحافظ العراقي ، ثم انتقل نحو الحجاز فمكث بمكة و المدينة ينهل من علموها ، ثم سافر نحو بيت المقدس فبلاد الشام ليعود إلو المغرب الأوسط ، فاستقر بوهران عالما ومرشدا . (8) من تلامذته الشيخ إبراهيم التازي (9) والشيخ أبركان بن مخلوف المزيلي الراشدي . له عدة مؤلفات منها : التنهيل و تبصرة السائل و التبيان وكتابه الشهير السهو و التنبيه توفي سنة 843هـ . (10)

ورغم كل ما أتينا على ذكره من علماء أجلاء أبدعوا وبرعوا في مختلف العلوم وخاصة في مجال العلوم الدينية ،إلا أننا لم القائمة زاخرة بالعلماء ، وقد صاحب هذه العلوم انتشارا واسعا لتيار التصوف الذي لقي كل الترحاب من أهل تلمسان لاسيما بعد دفن الشيخ القطب أبي مدين الغوث بتلمسان ، حيث شهدت هذه المدينة حركة نشيطة لهذا التيار بعد أن صار أبو مدين وليا لها(3) ، فأخذ التصوف ينتشر في الأوساط الشعبية والخاصة ، بل حتى عند بعض الأمراء و السلاطين ، فبرز في مدينة تلمسان مجموعة كبيرة من شيوخ التصوف خلال العهد الزياني لكنهم لم يرتقوا إلى مصاف أسلافهم و إلى المستوى الذي بلغوه ، وقد كانوا حريصين على العمل بالكتاب و السنة و الاعتناء بالجوانب التربوي العملي من التصوف (1) ، لأن العديد من سلاطين المغرب الإسلامي كانوا يعتقدون بالأولياء ويقدرونهم ويحترمونهم ، ويتقربون إليهم بمختلف الوسائل لنيل بركاتهم ، فصار الاعتقاد بالمرابط تعتنقه العامة و الخاصة ، وقد أطلعتنا المصادر الزيانية على حشد هائل من الزهاد و المتصوفة الذين أنجبتهم مدينة تلمسان في العهد الزياني ، لاسيما بغية الرواد ليحي بن خلدون ، والمجموع لابن مرزوق و البستان لابن مريم . وقد كان لهؤلاء المتصوفة زوايا تخضع لنظام دقيق يلزم الطلاب والمديرين التحلي بالانضباط و الطاعة و التقيد بتعاليم الزاوية في نظام الدراسة و الملبس و الأكل(2).

---

(1) ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق المهدي البوعبدلي ، قسنطينة ، 1973، ص 433.

(2) نسبة إلى قبيلة مغراوة البربرية الزناتية ، راجع في ذلك ، الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج1، ص 45.

(3) نسبة إلى إلى قبيلة هوارة البربرية الزناتية ، إحدى بطون قبائل البربر القاطنة بالمغرب الأوسط .

(4) البستان ، ص 228.

(5) نيل الابتهاج ، 1 ، ص 192.

(6) من علماء القرن 8هـ ، ومن المتصوفين الذين عرفتهم بجاية ، تتلمذ على يد العلامة عبد الرحمن بن خلدون و أخيه يحي بن خلدون ، انظر ، نيل الابتهاج ، ج1، ص 96.

(7) نيل الابتهاج ، ج1، ص 300.

(8) البستان ، ص 228-229.

(9) البستان ، ص 229، أيضا ، نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 192.

(10)نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 194.

(11)عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ص 387.

(12)عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2، ص 387.

(13)نفسه ، ص 391.

× وقد برز من المتصوفين في تلمسان الزيانية : أبو محمد المجاصي المعروف بالبكاء (1) ، وأبو إسحاق الطيار(2) ، والشيخ العلم أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق ، الذي اشتغل بالقراءة الفقه و الحديث ثم تفرغ لكتب التصوف وانقطع للعبادة ونسخ الكتب و المصاحف ، أخذ التصوف عن جماعة من أصحاب أبي مدين منهم الفقيه المتصوف محسن اللجام ، الذي كان يلازمه كثيرا (3) ، والشيخ أبو العباس أحمد المغربي صاحب أبي مدين..) واستمر الفكر الصوفي في الانتشار بمدينة تلمسان خلال القرن الثامن الهجري ، فبرز من رجاله ، أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق ، و الذي نشأ في كنف والده السابق الذكر سنة 681هـ (4) .

وفي مجال التصوف ألف علماء تلمسان العديد من المصنفات أمثال : الإمام أبو عبد الله محمد المقري الذي صنف رسالة في التصوف سماها "الحقائق و الرقائق (5) ص90" وكتبا هامة منها "إقامة المريد" و رحلة المتبتل (6)، وكتاب النجم الثاقب فيما لأولياء من المناقب لابن صعد و لمحة الفارض لتكمله ألفية ابن الفارض وهي منظومة شعرية تشتمل على مائة وسبعة وتسعين بيتا .(7) ونظم الإمام ابراهيم بن محمد التازي نزيل وهران قصائد شعرية رائعة في هذا الباب وصنف أحمد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو التلمساني تأليف كثيرة ، إذ كان يضرب به المثل في الزهد و العبادة معرضا عن زخرف الدنيا ، كما ألف الفقيه العالم قاسم بن سعيد العقباني أرجوزة في التصوف، (8) والكثير ممن اشتهروا بهذا اللون من العلوم

ب) العلوم اللسانية و الاجتماعية (علوم اللغة، الأدب، الشعر، التاريخ، الجغرافيا الرحلات)

حظيت العلوم اللسانية و الاجتماعية باهتمام و إقبال كبيرين من قبل علماء تلمسان و أدبائها في العهد الزياني ، حيث برز خلال هذه الفترة الكثير من النحاة و اللغويين و الأدباء و الشعراء والكتاب والمؤرخين و الجغرافيين و المتصوفين ، و المتكلمين وعلماء المنطق وغيرهم ، (9)

فبالنسبة لعلوم اللغة وفروعها فقد لقيت إقبالا كبيرا من طرف الزيانيين ، حيث اهتموا بالبلاغة لارتباطها بعلوم القرآن و الحديث خاصة ، وبالعلوم الدينية عموما ، فكانت المجالس اللغوية تعقد لدراسة النحو و العروض و البيان ، وتقام من أجل ذلك المناظرات بين الأدباء وعلماء اللغة و النحاة ، للتأكد من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من التلحين و التصحيف ، كما نحا علماء اللغة نحو علماء الحديث فكانوا يذكرون السند ويرتبون الأفصح بالفصيح ، ويجمعون المفردات التي كان العرب يستعملونها معتمدين في ذلك على القرآن الكريم ، المصدر الأول للغة وقمة البلاغة و البيان ،(10)

---

(1) سمي بالبكاء في مكة . لكثرة خشوعه وخشيته حتى كف بصره من كثرة بكائه ، كان يؤم الناس ويخطب بجامع القصر الجديد بتلمسان ما يقرب عن عشرين سنة ، وقبره يقصده الزوار في طريق العباد ، بعين وانزونة ، انظر ، نيل الأبتهاج ، ج1 ص 142.

(2) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 114- 115.

(3) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2، ص 393،

(4) نفسه ، نفس الصفحة .

(5) عبد القادر زمامة ، الحقائق و الرقائق ، مجلة دعوة الحق ، عدد (8-9)، صفر 1386هـ ، ص 95.

(6) ابن الخطيب ، الإحاطة في اخبار غرناطة ، دار الأمل للدراسة ة النشر و التوزيع ، الجزائر ، 2009 ، ج2، ص 203.

(7) أبو الأجفان محمد الهادي ، الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ، 1988 ص 123.

(8) ابن مريم ، المصدر السابق ، ص45-47.

(9) نفسه ، ص 58، 148.

(10)عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، ص 1063-1064-1065.

كما اهتم التلمسانيون في هذا العهد بالأدب و الشعر ولعل من عوامل ازدهاره اهتمام السلاطين و الملوك الزيانيين بهما ، حيث كان منهم الأديب و الشاعر ، إضافة إلى الأموال للشعراء واهتمامهم بأهل العلم و الأدب وتشجيعهم لهم ، هذا وقد كان للمناظر الطبيعية لمدينة تلمسان وضواحيها دور في شحذ قريحة الشعراء ودفعهم إلى نظم القصائد متغنين بجمالها وروعتها دون أن ننسى التأثير الديني في هذا المجال ، حيث برع الزيانيون في المدائح الدينية و الابتهالات ، فكان الأثر الصوفي واضحا في أدبهم و شعرهم . (1) وبذلك يمكن القول بأن بلاد المغرب الأوسط عرفت نهضة أدبية هامة في عهد الدولة الزيانية ، خاصة في فترة حكم سلطان أبي حمو موسى

ومن أبرز العلماء في هذا المجال نذكر :

× أبو محمد عبد المنعم بن محمد يوسف بن عتيق الغساني : من أهل مدينة الجزائر ، تولى قضاء بجاية مدة طويلة ، قال عنه الغبريني : " كانت له نزهة ووجاهة ونباهة ، وله شعر رائق ، وكاتب أدبي فائق ، تخطط بالقضاء ببجاية و طالت مدته فيه ، وكان حاله فيه حال نزاهة وطهارة و عفاف ، وقيام بحق الله على الواجب ، صحبناه واستفدنا منه ، توفي بعد سنة 670هـ ، وكان كثيرا ما يشاور أهل العلم و الفضل ويقف عند قولهم ويعمل رأيهم ، وكانت له فصاحة اللسان ، وتمام بيان وكان معظما عند أهل بلاده وعند ولاة الأمر ، وكان كثيرا مايجري على لسانه هذا البيت : فيا ليت شعري أين أو كيف أو متى ....يقدر ما لابد أن سيكون . (2)

× علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعي أبو الحسن التلمساني (710-789هـ)/ (1310-1387) : هو من أسرة أندلسية معروفة انتقلت إلى المغرب الأوسط ، ولد بتلمسان سنة 710هـ / 1310م ، فأخذ بها العلم عن القاضي ابن الحاج البلفيقي ، وابن مرزوق الخطيب وغيرهما ، وقد نبغ في الأدب و التاريخ والفقه و الحساب ، فتنافس عليه ملوك المغربين الأوسط والأقصى ، فاتخذه أولا السلطان إبراهيم بن علي المريني صاحب علامته ، ثم عين كاتبا للأشغال قريبا لقلم الدولة في البلاط المريني ، فنال حظوة لم ينلها أحد قبله ، توفي الخزاعي بفاس سنة 789هـ وخلف مآثر عدة منها كتاب "تخريج الدلالات السمعية على ماكان في رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف و الصنائع و العمالات الشرعية " ألفه للسلطان أبي عنان المريني(3)

× عبد الله بن محمد بن احمد الشريف الحسيني التلمساني نجل العلامة الشريف التلمساني : ولد بتلمسان سنة 748هـ ونشأ بها ، وأخذ العلم عن عدد كبير من علماء عصره منهم : العالم النحوي أبي عبد الله بن زيد الذي كان يعلم أبناء الشرفاء بفاس ، عرف بنجابته في حفظ القرآن الكريم بقراءة الإمام نافع ، فختم عليه جمل الزجاجي ، وألفيه ابن مالك كما أخذ على الفقيه النحوي أبي عبد الله بن حياتي الجمل و النغرب وكاتب النحو لسيبويه وعن ابن مرزوق الخطيب جملة من البخاري ، وجملة من المدونة على أبي عمران موسى العبدوسي ، و عن أبي العباس القباب كتاب التلقين و الرسالة و منظومة الكفيف في أصول الدين ، وعن الحسن الونشريسي و أبي العباس ابن الشماع كتاب ابن الحاجب الفرعي ، ثم أخذ عن والده الاقتصاد في الاعتقاد للغزلي.ارتحل عبد الله بن محمد إلى غرناطة فاستقر بها مدة يشتغل بالتدريس و أثناء عودته وافته المنية سنة 792هـ (4)

---

(1) الأخضر عبدلي ، المرجع السابق ، ص 183-185.

(2) الغبريني ، المصدر السابق ، ص 123-124.

(3) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 113-115

(4) ابن مريم ، المصدر السابق ، ص 117-121-126-128.

× محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري: هو أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري من أصل أندلسي ، ولد ونشأ بتلمسان ، أخذ العلم عن شيوخها أمثال عبد الله الشريف التلمساني وغيره من علماء عصره (1) ، حتى أصبح أشهر شعراء تلمسان الزيانية و أبرز بلغاتها ، ولذلك قربه ملوك بنو زيان إلى بلاطهم ، فكان أحد الملازمين للسلطان أبي حمو موسى الثاني اشتهر بنظمه قصائد شعرية بمناسبة احتفال السلطان بليلة المولد النبوي الشريف ، والتي كان يلقيها بنفسه . (2)

وصفه المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الإمام العالم ، العلامة الأديب الأريب الكاتب (3) تنوع شعره بين مدح ووصف ورثاء وغيره ، وله عدة قصائد ألقاها بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف منها ما قاله سنة 711هـ : ياليلة الاثنين افتخر ....بالبدر الطالع من مضر .....في ليلة اثني عشر

من شهر ربيع المشتهر .....بالمولد فهو به علم

كالشمس سناه وكالقمر .....وبدت كالزهر .....أنوار هدى خير بشر

ونبي الرحمة والبشر .....فجميع الخلق به رحموا

يا شهر بك افتخر الدهر ..... ياشهر جمالك مشتهر .....ياشهر كمالك منتشر

وله قصائد عدة في وصف تلمسان ، منها هذه الأبيات التي رفعها إلى السلطان أبي حمو موسى الثاني سنة 776هـ : أيها الحافظون عهد الوداد ،،،،، جددوا أنسنا بباب الجياد

وصلوها أصائلا بلياي ،،،،، كلال نظمن في الأجياد

في رياض منضدات المجاني ،،،، بين تلك الربى وتلك الوهاد (4)

× محمد بن أبي جمعة التلاسي (5) : هو أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة بن علي التلاسي أصلا ، التلمساني دارا ، كان الطبيب الخاص للسلطان أبي جمو موسى الثاني ، كما كان شاعرا و أديبا بارزا . نظم العديد من القصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي مدح أبي موسى ، كما كان يحب فن التوشيح ، ومن نظمه موشحة مطلعها :

يا ويح صب بان عنه الشباب وأودع

لهيب وجد عندما وأودع ...) . وله قصيدة في وصف ربوع تلمسان جاء فيها :

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا .....ربوع تلمسان التي قدرها استعلى

ربوع كان الشباب لها مصاحبي ..... جررت إلى اللذات في دارها الذيلا

فكم نلت فيها من أمان قصية ..... وكم منح الدهر المنيف بها النيلا

وكم ليلة بتنا بصفصيفها الذي..... تسامى على الأنهار إذ عدم المثلا

وكدية عشاق لها الحسن ينتهي....يعود المسن الشيخ في حسنها طفلا

وغدير الجوزة السالب الحجا .....نعمة به طفلا وهمت به كهلا (6)

---

(1) ابن مريم ، النصدر السابق ، ص 222-223.

(2) محمد بن رمضان شاوش ، المرجع السابق ، ص 498.

(3) البستان ، 222 .223.

(4) المقري ، المصدر السابق ، ج7، ص 121-123.

(5) المقري ، المصدر السابق ،ج9 ، ص 336-337.

(6) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 17-18.

× عبد الرحمن بن خلدون : هو أشهر من أن يعرف ، غير أننا نقتصر هنا على ذكره لعلاقته بتلمسان حال إقامته بها ، فهو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، ولد بتونس عام 732هـ / 1332م (1) ، وهو شقيق أبي زكرياء يحي بن خلدون كاتب السلطان أبي حمو موسى الثاني ، تلقى تعليمه الأول بتونس على يد والده ثم غادرها متجولا في إفريقية ، ثم رحل إلى تلمسان حيث التقى بالسلطان أبي عنان فارس المريني الذي صحبه إلى فاس (2) ، و بها أتم تحصيله العلمي على يد علمائها أمثال: الشيخ أبو عبد المهيمن الحضرمي ، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي الذي أخذ عنه مختلف العلوم العقلية ، كما اعتنى ابن خلدون بالأدب وفنونه وأمور الكتابة و الخط ، فكان مقربا من البلاطات الملكية ، حيث تولى كتابة العلامة بالبلاط الحفصي ثم غادره ليلتحق بالبلاط المريني سنة 753هـ بتلمسان ثم دخل فاس عام 755هـ ، حيث انظم إلى المجلس العلمي الذي ضم مشايخ علماء المغرب و الأندلس فحصل منهم إفادة جمة ، غير أن المكانة الرفيعة التي أصبح يتمتع بها لدى السلطان أبي عنان أوقعت عليه عين الحاسدين و الواشين الذين حالوا بينه وبين علاقته بالسلطان المريني الذي غضب عليه فسجنه مرتين لعلاقته بالأمير محمد صاحب بجاية (3) ، وبوفات أبي عنان أطلق الوزير الحسن بن عمر ابن خلدون و أعاده إلى كرمته وفي سنة 760هـ استعمله السلطان أبو سالم المريني كاتب سره ، إلى أن توفي فغادر ابن خلدون المغرب نحو الالندلس ، فدخل غرناطة سنة 764هـ لينضم إلى مجلسها العلمي بعدما رحب به بن الأحمر ووزيره ابن الخطيب ، وكان سفيرا له لدى ملك قشتالة ، فنجحت سفارته ، فطلب منه هذا الأخير الإقامة عنده ، فلم يقبل فعاد محملا بالهدايا فأقطعه سلطان غرناطة قرية البيرة فحسنت حالته ، غيلا أن هذه الحالة لم تدم طويلا ، إذ سعى الواشون بينه وبين السلطان فتوجه إلى بجاية سنة 766هـ ، التي عاد إليها صاحبها ، فاستدعاه ليتدبر أمور مملكته ، فكان خطيب جامع القصبة . مكث في خدمة الحفصيين حتى بعد وفاة صاحبها الأمير محمد ،لكن و كما جرت العادة كثرة السعاية فيه للسلطان ، فشعر بذلك فطلب الإذن بالإنصراف ، فخرج إلى العرب ، ثم قدم الى بسكرة وكان بينه وبين شيخها أحمد بن مزني صداقة قديمة فأكرمه ، ثم أن السلطان أبي حمو كتب إليه ليتولى حجابته وعلامته ملحا عليه بلزوم القدوم ، وبعد أن تقلب ابن خلدون في عدة مناصب سياسية بالمغرب الأقصى و الأندلس استقر أخيرا مع أهله وولده في خدمة السلطان أبي حمو موسى الثاني فترة ليغادر البلاط إلى قلعة بني سلامة من بلاد توجين من أعمال تلمسان ، حيث أقام أربعة أعوام متخليا عن الشواغل ، وهناك شرع في كتابه تاريخه العام ، كما أكمل المقدمة (4) ، ليرتحل سنة 780هـ إلى تونس ومنها إلى مصر وافته المنية سنة 808هـ /1406م ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر . (5) ، من مؤلفاته كتابه التاريخي المشهور الذي عنونه "بكتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر و أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " ، و مقدمته التي تعرض فيها لفضل التاريخ وعلم الاجتماع و العمران البشري (6) ،

---

(1) محمد بن عمرو الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، ص 209.

(2) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص 493.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن السلطان أبي زكرياء الحفصي ، ولاه أبوه عنان إقليم بجاية ليقف – دونها في وجه ملوك تونس يومئذ ، راجع ، أخباره في العبر ، ج7، ص 282.

(4) علي علواش ، معجم مشاهير المغاربة ، دار الكتاب اللبناني ، ص195.

(5) التنبكتي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 143-145.

(6) محمد بن رمضان شاوش ، المرجع السابق ، ص 506.

و أيضا شرحه للقصيدة المسماة ب البردة " شرحا بديعا ، كما لخص الكثير من كتب ابن رشد ولخص محصل الإمام فخر الدين ابن الخطيب الرازي ، و ألف كتابا في الحساب ، أما نثره فقمة في البلاغة ومعدن فن وإبداع ، كما نظم الشعر ومن قصائده تلك التي كتبها في تهنئة السلطان أبي حمو موسى الثاني بعيد الفطر . (1)

× يحي بن خلدون : (734-780) هـ / (1344-1379) م :

هو أبو زكرياء يحي بن محمد بن خلدون شقيق عبد الرحمن بن خلدون ، ولد بتونس سنة 734هـ ، ونشأ بها وتلقى العلم عن علمائها ، أمثال : عبد المهيمن الحضرمي ، ومحمد بن إبراهيم الآبلي و أبو منصور الزواوي ، و السطي وغيرهم (2) ، وفي عهد السلطان أبي عنان المريني ، انصرف إلى خدمة الدولة المرينية بفاس ، وفي آخر سنة 761هـ رافق الأمير الحفصي أبا عبد الله محمد الذي نهض نحو بجاية ينتزعها من عمه السلطان أبي إسحاق بمساعدة قبيلة رياح ، فلم يحقق هذا الهدف إلا بعد أربع سنوات ، ولما استولى أبو عبد الله الحفصي على بجاية سنة 765هـ عين يحي بن خلدون في منصب الحجابة إلا أنه ترك هذا المنصب لأخيه عبد الرحمن الذي رجع من الأندلس سنة 766هـ وبقي ابن خلدون في بجاية إلى أن استولى عليها أمير قسنطينة أبو العباس الحفصي في شعبان من سنة 767هـ ، هذا الأخير أمر بسجن بن خلدون ، وذلك بعد أن غادر أخاه عبد الرحمن بجاية متوجها إلى الجنوب وملتجأ عند لبن مونى بناحية بسكرة ، وبعد مدة فر يحي من سجنه ولحق بأخيه (3) .

وفي سنة 769هـ التحق يحي بن خلدون ببلاط أبي حمو موسى الثاني الذي استكتبه وعينه على ديوان الإنشاء الذي ظل على رأسه إلى أن ساءت الأوضاع بين بني مرين و بني زيان واحتل السلطان عبد العزيز المريني تلمسان سنة 772هـ فتقرب يحي بن خلدون من بلاطه لينتقل رفقة أخيه عبد الرحمن ولسان الدين إلى فاس ، وعاد إلى تلمسان سنة 776هـ فرحب به ابو حمو وأعاده الى منصبه فألف يحي كتابه ة"بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. (4) ، ومكث يحي في خدمة البلاط الزياني إلى أن قتل في رمضان سنة 780هـ بتدبير من الأمير أبي تاشفين الذي اتهمه بالمماطلة في عقد ولاية وهران (5) ، وقد ساهمت البيئة العلمية التي نشأ فيها يحي بن خلدون في جعله يرتقي إلى طبقة الكتاب النبرزين أمثال : أبي القاسم بن رضوان ، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهما ، فكان كاتب وشاعر ومؤرخا يمتاز بثقافة أدبية واسعة ، وأسلوب زاخر بالمحسنات البديعية و السجع المستظرف ، إضافة إلى نبوغه في سائر العلوم اللسانية و الاجتماعية وخصوصا التاريخ . (6)، ومن تآليفه : كتاب بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد ناهيك عن قصائد عديدة نظمها في مدح السلطان أبي حمو موسى الثاني ، و في المناسبات الدينية : يا بدر بم بالأوج قد ظهرا .... فضاء بالخافقين واشتهروا (7)

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7 ، ص 234.

(2) المقري ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 349-341.

(3) عبد الرحمن بن خلدون المرجع السابق ، ج 7، ص 295-296.

(4) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الثاني ، ص 175-176.

(5) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7، ص 292.

(6) هبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الثاني ، ص 176.

(7) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 124.

× أبو حمو موسى الثاني الزياني :

هو السلطان أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب يوسف الزياني ، وهو الذي أخيى دولة بني عبد الواد ، وكان شاعرا فذا يقرض الشعر ويكرم الشعراء ، ولعل ماخلفه من آثار أدبية دليل على ثقافته الواسعة (1) . وأهم أثر لأبي حمو كتاب "وسائط السلوك في سياسة الملوك " (2) ، وقد أودع فيه آراءه السياسية ، وضمنه قصائده الشعرية ، وقد كان عموما يحتفل بليلة المولد النبوي الشريف ، حيث كان ينظم قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي أول ما ينشد في الحفل ثم تنشد بعدها ما رفع إلى مقامه في تلك الليلة من القصائد خاصة تلك التي تمدحه وتمدح بني زيان ، ومن شعر المولديات قصيدة أنشدها أثناء الاحتفال الذي أقيم في مولد سنة771هـ عنوانها خليلي قد بان الحبيب (3) : قال فيها

خليلي قد بان الحبيب الذي صدا .....وقد عاقنب صبري فلم أستطيع ردا

وسالت دموعي فوق خدي هوملا ....وقد صيرت فوق الخدود لها خدا

قد اصفر لوني بعد حسن شبيبتي.....كما ابيض رأسي بعدما كان مسودا

وقد مر عمري في عسى ولعلما.....تواصلني لبني وتهجرني سعدي

ويضاف إلى هؤلاء كثير من الأدباء و الشعراء البذين لم ينالوا مانالله هؤلاء من علو المنزلة ولم يشتهر شعرهم رغم مايبدو عند بعضهم من مواهب لا تجهر أمثال : القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد الحسني المعروف بابن يعلي و أبي محمد عبد المؤمن بن يوسف المديوني و أبي عبد الله محمد البطوي وأبي القاسم بن ميمون و أبي عبد الله محمد البطوي وأبي القاسم بن ميمون السنوسي وأبي الحسن علي ابن العطار و أبي العباس محمد بن سفيان ، و أبي محمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد القادر (4) ، ومحمد بن صالح شقرون (5) و أبي علي حسن بن إبراهيم بن سبع (6) و أبي عبد الله محمد بن علي العصامي(7) ، وقد حفظت لنا كتب التاريخ قصائد لهؤلاء الشعراء ، من دون أن تشير إلى حياتهم و تكوينهم الأدبي .

أما عن التاريخ فقد نال حظه الوافر في تلمسان الزيانية ، حيث برز في هذا العلم كتاب وأدباء وفقهاء من أبناء المدينة سخروا أقلامهم في هذا الاتجاه ، واتخذوا أسلوب فنيا يعتني بالتأليف في العبارة ، وإظهار الحادثة في ثوب الصياغة ، رجاله يعدون من صفوة الكتاب الذين تولوا مناصب سامية في دواوين الدولة الزيانية و المرينية ، وهي المناصب التي ساعدتهم على أن يكونوا قريبين من مصدر الخبر و الأحداث ، وجعله في متناولهم أرشيف بني زيان ووثائقهم . (8)

---

(1) عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الثاني ، 185.

(2) عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الثاني ، ص 185.

(3) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 224-226.

(4) عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الثاني ، ص 177.

(5) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 143- 145.

(6) نفسه ، ص 282-284.

(7) نفسه ، ص 315-316.

(8) عبد العزيز سالم ، التاريخ و المؤرخون العرب ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، مصر ، 1967، ص 75 وما بعدها .

العلوم العقلية :

أولى الزيانيون نفس الاهتمام و الرعاية بالعلوم العقلية و الطبيعية إلى جانب العلوم النقلية وعملوا على دراستها بتعمق ، وقد شملت هذه العلوم على الرياضيات بفروعها من حساب و جبر وفلك وهندسة وتنجيم ، بالإضافة إلى الطب و التشريح وعلم الهيئة و الفلاحة و الميكانيكا و الموسيقى و غيرها من العلوم المتنوعة ، وقد ساهمت العديد من العوامل على ازدهار و نطور هذه العلوم منها : التقدم الاقتصادي و الاجتماعي و الثقافي و العمراني الذي عرفه المغرب الأوسط خلال العهد الزياني ، وكذا اهتمام السلاطين بالعلوم و العلماء وتشجيعهم على العمل و ابحث و الاختراع ، إضافة إلى الصلات الثقافية التي كانت قائمة بين أقطار المغرب و المشرق ، ونشاط الرحلات الثقافية في سائر هذه الأقطار خاصة بين دويلات المغرب الإسلامي . كما أن هجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط واستقرارهم به قد أسهمت بشكل كبير في تطوير هذه العلوم ، ذلك أن من بين المهاجرين صناع وعلماء و أطباء وغيرهم ، مما ترتب عن هذه هجرة أثار حضارية في مختلف المجالات . (2) ، ومن أشهر التأليف التي كانت تدرس في هذه الفترة في الرياضيات كتاب " حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب " و تلخيص ابن البناء " ، وكتاب "كشف الأنوار و كشف الأسرار عن علم الغبار "، و"قانون الحساب" ،و شرح ابن ياسمين في الجبر و المقابلة " وفي كتاب القانون لابن سينا (1) ، و في الفلك و التنجيم : قصيدة الحباك"و "أرجوزة أبي إسحاق " ، و "بغية الطلاب في علم الإسطرلاب " للسنوسي . أشهر العلماء الذين برزوا في هذا المجال نذكر :

× أبو الحسن علي بن أحمد المشهور بابن الفحام : أخذ العلم عن أبي عبد الله بن النجار ، أعرف أهل زمانه بفنون التعليم ، اشتهر بصنع المنجانة التي ازدان بها قصر أبي حمو موسى الثاني ، وأشاد بذكرها شعراء بلاطه غير أن هذه المنجانة (2) ص 123 لم يصل إلينا منها وصفها . (3)

× محمد بن أبي جمعة التلاسي : ورد ذكره في العلوم اللسانية و الاجتماعية ، باعتباره شاعرا (4) و أديبا ، ويجيد فن التوشيح ، لكن كانت له مشاركة فعالة في العلوم العقلية و التعاليم ، إذ كان الطبيب الخاص لأبي حمو موسى الثاني ، وهو من أسرة جل أفرادها علماء و أطباء (5) .

× محمد بن أحمد الشريف الحسيني الشهير العلوي : أصله من قرية العلويين الواقعة شمال تلمسان (°) ، ولد بها عام 710هـ / 1310م ، وبها نشأ ودرس على يد علمائها كأبي زيد بن يعقوب ، وابني الإمام والآبلي ، و أبي موسى عمران المشدالي و أبي محمد عبد الله المجاصي ، وأبي عبد الله محمد بن عمرو التميمي ، و أبي عبد الله محمد الباروني ، و أبي عبد الله بن هدية القرشي ، و أبي العباس أحمد بن الحسن ، والقاضي أبي عبد الله محمد بن عبد النور ، فأظهر تفوقه في شتى العلوم العقلية و النقلية ، كما درس العلوم العقلية على يد محمد بن علي النجار . ثم رحل إلى فاس ولازم الآبلي فأخذ عنه التعاليم ليعود إلى تلمسان ، وفي سنة 740هـ / 1340م ارتحل إلى تونس فاجتمع بابن عبد السلام الهواري وابن عرفة وغيرهما من علمائها ثم عاد إلى تلمسان ، وتفرغ للتدريس بها

---

(1) عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الثاني ، المرجع السابق ، ص 52.

(2) عبد الحميد حاجيات ، المرجع السابق ، ص 53.

(3) التنسي ، المصدر السابق ، ص 162.

(4) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1، ص 119 .

(5) بغية الرواد ، ج1 ، ص 89-90.

(6) بغية الرواد ، ج1 ، ص 89.

(°) تسمى هذه القرية عين الحوت .

وبعد سنة 753هـ استولى أبو عنان المريني على تلمسان ، فقربه منه واصطحبه معه إلى فاس فكره الشريف هذا الاغتراب ، فوقعت وحشة بينه وبين السلطان فقبض عليه ثم أطلقه لكن وبعد وفاة أبي عنان رجع الشريف إلى تلمسان التي كان يملكها يومئذ السلطان أبو حمو موسى الثاني فاستقبله استقبالا حسنا و أنكحه ابنته وبني له مدرسة اليعقوبية التي ظل الشريف يلقي دروسه فيها ، ويحضر مجلسه طلبة كثيرون إلى أن وافته المنية عام 771هـ 1370م .(1) فكان الشريف علاوة على ما يحمله من علوم الشريعة إمام في العلوم العقلية كلها : كالرياضيات و التنجيم و الطب و التشريح ، والفلاحة و الموسيقى ، حتى قال عنه الآبلي : هو من أوفر من قرأ علي عقلا و أكثرهم تحصيلا "، كما قال عنه ابن عرفة " لقد ماتت بموته العلوم العقلية " وقال أيضا : غايتك في العلم لا تدرك ". (2) ومن مآثره : "كتاب في القضاء و القدر " و "شرح جمل الخونجي " ، وكتاب في "المعاوضات " و " مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول "المطبوع بتونس عام 1346م . (1)

× منصور الزواوي : هو منصور علي بن عبد الله الملقب بأبي على الزواوي ، ولد ببجاية سنة 710هـ و نشأ بها ، وأخذ عن والده وشيوخ مدينته ، منهم : منصور المشدالي ، وأبي العباس بن عمران ، ويوسف الزواوي ، وقاضي الجماعة ببجاية أبي عبد الله محمد يوسف (2)، وبتلمسان درس على يد محمد بن عبد المهيمن الحضرمي ، و أبي إسحاق بن أبي يحي ، و العباس بن يربوع وغيرهم ، ارتحل إلى الأندلس سنة 753هـ فلقي ترحيبا بها ، فاشتغل في التدريس و الإقراء بغرناطة ، كما أنه تلقى العلم عن ابن الفخار لبيري الذي أجازه كما أخذ عن قاضي الجماعة الشريف الحسن السبتي الذي قرأ عليه " تسهيل الفوائد لا بن مالك " (1) ، ارتحل إلى تلمسان سنة 765هـ حيث استقر بها يقرئ ويدرس سنوات عديدة . لع مشاركة في العديد من العلوم النقلية والعقلية، وهو على اطلاع بالأصول و المنطق و علم الكلام ، ودراية كبيرة بالحساب و الهندسة و الآلات .(3)

---

(1) البستان ، ص 165-166. و أيضا ، بغية الرواد ، ج1، ص 120 .

(2) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 261، أيضا ، البستان ، 170.

(3) البستان ، ص 164-184،

(4) علي علواش ، المرجع السابق ، ص 267.

(5) البستان ، ص 293.

(6) نيل الأبتهاج ، ج2، ص 379.

المبحث الثاني : الحياة الثقافية في الدولة المرينية :

لم يقل اهتمام المرينيين بالعلم و العلماء عن الزيانيين ، فقد أولوا هذا الجانب عناية فائقة ، وسخروا له كل الإمكانيات المادية و البشرية ، فقد اهتم سلاطين بني مرين بتقريب العلماء من مجالسهم ، وإجراء الأرزاق عليهم ، و منحهم مناصب هامة في الدولة واستشارتهم في أمورها وحضور حلقات دروسهم ، خاصة في فترة حكم السلطان أبو الحسن المريني ، و التي شهدت توسعا كبيرا للدولة على حساب أراضي المغربين الأوسط و الأدنى ، واكبتها ، نهضة عمرانية هامة ، خاصة بناؤه للمدارس و المساجد التي تميزت به فترة حكمه ، حيث كان يرعى المشاريع الكبرى في حياة والده عندما كان واليا للعهد ، فأسند إليه تشييد مدرسة الصهريج بفاس ، و التي دام العمل بها حوالي عامين وفي نفس الوقت أشرف على بناء "مدرسة السبعين" القريبة منها ، كما تابع بناء مدرسة العطارين بفاس ، ولعل اهتمام هذا السلطان بالعلم و العلماء ، وتهيئة كل الظروف و الوسائل لهم منها بناء المدارس ، كما يخفي وراءه حسب بعض المؤرخين رغبة المرينيين في إضفاء الشرعية التي كانت تنقصهم ، و إلغاء نظرة الغزاة، الطامعين من نفوس المغاربة . لكن مهما كانت الأهداف و النوايا ، فإن هذه المرحلة شهدت ازدهارا علميا وحركة فكرية نشيطة ، حيث ظهر من العلماء و الفقهاء و المؤرخين الذين أسهموا بشكل كبير في إثراء الحياة العلمية و الفكرية ، فسما المغرب الإسلامي بهم ، وتشهد لهم مؤلفاتهم ومصنفاتهم التي تنقل صورة واضحة عن ذلك العصر و ما عرفه من رقي وازدهار وتجربة علمية و معرفية هامة . (1)

المؤسسات الثقافية و التعليمية المرينية :

أ) المساجد :

× الجامع الكبير بتازا : أنشأ هذا الجامع الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي ووسعه السلطان المريني أبو يعقوب وأصلحه ورممه السلطان أبو عنان، وتعتبر من أجمل المساجد في شمال المغرب بعد القرويين بفاس(2)

× الجامع الكبير بفاس : نسب هذا الجامع إلى السلطان أبي يوسف يعقوب 674هـ/1275م ، حيث أمر ببناء هذا الجامع بفاس الجديد سنة سنة 676هـ (3) وسار العمل فيه سريعا واكتمل وصلى الناس سنة 1279م و هو المسجد مغربي أندلسي في هيئته ، يتكون من بيت صلاة فسيح يحتل نصف مساحته ، وصحن واسع يحتل النصف الثاني ولا تحيط بالصحن إلا مجنبة واحدة في كل ناحية ، و في المدخل ببيت الصلاة من الصحن تقوم قبة صغيرة فوق البلاط من الرواق الأوسط ،أما المئذنة فتقوم في الركن الأيمن من الجدار المقابل لجدار القبلة(4

× جامع الزهر بفاس الجديد : شيد هذا الجامع السلطان أبو عنان في سنة 759هـ/1357م ، ولهذا المسجد مئذنة عبارة عن برج مربع التخطيط طول ضلعها 3,50م ، وارتفاعها من أرضية المسجد حتى قمة الشرفات 16,85م مطموسة في جزئها الأسفل .

× جامع الشرابليين بفاس الجديد : يرجع تاريخ هذا المسجد إلى العصر المريني بالمغرب الأقصى ، وبالضبط إلى القرن الثامن هجري ، رمم في عهد السلطان مولاي سليمان (5)

---

(1) ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب ، المسند الصحيح الحسن في مأثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1918، ص 406.

(2) صالح بن قربة ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط ، ج7 ، ص 80.

(3) نفسه ، ص 102

(4) حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب و الأندلس ، ج2 ، ص 29.

(5) صالح بن قربة ، المرجع السابق ، ص105. 106.

× جامع أبي حسان بفاس الجديد : يرجع تاريخ ‘نشائه حسب النقش الكتابي الموجود على اللوحة الرخامية المتثبتة فوق المدخل من الحائط الغربي للصحن إلى سنة 742هـ /1341م . (1) . وتبرز الدراسات الأثرية الحديثة روعة الفن المعماري المريني الذي جعله منفردا و مميزا و لعل ما يميز المساجد المرينية عن سابقتها الموحدية بأن هذه الأخيرة كانت أكثر اتساعا منها عمقا ، غير أن المساجد المرينية كانت أكثر طولا منها عرضا ، و الذي زاد منها في الاتساع أكثر من غيره هو الصحن خاصة ، فهو يشغل ما يقرب من نصف البناء ، وتوسيع الصحن يرجع بدون شك إلى أسباب عملية وهو أنه جرت العادة أن تقام الصلاة في فصل الصيف ، في صحن المسجد و قد خصص لذلك في مدخل البهو المحوري محراب ثانوي ، هو ما يسمى بالعنزة . ومن التغيرات الفنية التي أدخلها المرينيون على جوامعهم ، علو هذه المساجد ، النموذجي ، وأقواس الأبهاء ذات ارتفاع مساو لارتفاع أعمدتها ، وقد ترك نهائيا القوس المتجاوز و المنكسر و الذي يتجاوز عرض مابين الأعمدة التي كان معمولا به في المساجد الموحدية أي عادوا إلى القوس ذي الإنحاء نصف الدائري النتجاوز كمسجد قرطبة .(2)

المدارس :

اختصت المدارس عموما في هذه الفترة بالمغرب الإسلامي بتدريس العلوم الدينية وخاصة الشريعة الإسلامية و الفقه على المذهب المالكي ، حيث تولى بنو مرين الدفاع عنه وحمايته (3) ، وقد انتقل نظام المدارس بشكله و وظيفته إلى مدينة فاس المرينية بعد ثلاثين سنة من تأسيس أول مدرسة حفصية بتونس وتعتبر المرينية ، أكثر دويلات المغرب الإسلامي نشاطا وحيوية في مجال التشييد العمراني بصفة عامة وبناء المدارس بصفة خاصة ، حيث أنفق سلاطينها على بنائها و تزيينها أمولا طائلة (4) ، واتخذوا حركة تشييد المدارس مظهرا لسياستهم الدينية و العلمية ، و بالتالي مظهرا للتأثير السياسي و الاجتماعي ، على رعاياهم ، رغبة في تحقيق أهدافهم الرامية إلى إعادة توحيد المغرب الإسلامي تحت لوائهم سياسا و دينيا و إداريا ، بعد قضائهم على دولة الموحدين (5)، ومحو تعاليم ابن تومرت و العودة بالمذهب المالكي إلى مكانته السابقة ، ولتحقيق ذلك أكثروا من إقامة المدارس في المغربين الأقصى و الأوسط ، وقد انتشرت هذه العملية خاصة على عهدي أبي الحسن و إبنه أبي عنان ومنها :

× مدرسة الصفارين : كانت أولى المدارس التي أنشئت بالمغرب الأقصى ، شيدها السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق بالقرب من سوق صناعة النحاس ، أقامها لطلبة العلم ، فأوقف عليها الأوقاف ، وأجرى المرتبات على الطلبة وكان ذلك حوالي سنة 670هـ /1271م (6) ، وكان قد زودها بخزانة كتب ، وصلت إليه الأندلس (7) ، و أنشأ السلطان أبو يعقوب مدرسة أخرى بمراكش ، ومسجدا جامعا بمكناس يضم ندرسة ، كما أنشأ مدرسة أخرى في فاس البالي في مسجد جامع القرويين وابتنى في هذه الأخيرة دارا لطلب العلم(8) .

---

(1) صالح بن قربة ، المرجع السابق ، ص 109.

(2) وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغربية ، الفن المعماري في المساجد المغربية حسب العصور ، على موقع الشبكة .
http : //www.habous. gov .ma.p1.

(3) شارل أندري ، جوليان ، تاريخ إفريقيا ، ج2 ، ترجمة محمد مزالي وبشري سلامة ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1969، ص 240.

(4) G. Marcais. L’architecture...p285/

(5) محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني ، ط2، الكويت ، 1987، ص 108.

(6) السلاوي ، أحمد أبو العباس الناصري ، كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955، ج3، ص 65.

(7) حسين مؤنس ، مرجع سابق ، ص 27.

(8) محمد عيسى الحريري ، مرجع السابق ، ص 324.

× مدرسة فاس الجديد أو مدرسة دار المخزن : شيدها السلطان أبو سعيد عثمان الثاني بن يعقوب (710-732هـ) / (1310-1331)م .

× مدرسة الصهريج أو المدرسة الكبرى : بناها الأمير أبو الحسن المريني في عهد والده السلطان أبو سعيد عثمان ، وستغرق بناؤها عامين (721-723هـ) (1) ، تقع بالقرب من جامع الأندلسيين بفاس ، و هي عبارة عن مجمع معماري متكون من مدرسة الصهريج " أو المدرسة الكبرى و المدرسة الصغرى أو مدرسة السبعين ، ودار للضيافة عرفت بدار أبي حبسة "،حسب اللوح التأسيسي للمدرسة ، لكن سقطت هذه الدار كليا و أعيد بناؤها سنة 1946م (2)

× مدرسة السبعين : بناها الأمير أبو الحسن ، في نفس الفترة التي بنيت فيها مدرسة الصهريج وتعد ملحقة لها لإتصالها بها وصغر حجمها الذي لا يتعدى نصف حجم مدرسة الصهريج ، وهي تتصل في الجدار الشرقي الجنوبي بواسطة باب يفتح على قاعة صلاة المدرسة الكبرى الصهريج في الجدار الشرقي لها و سميت بمدرسة السبعين لأنها خصصت للقراءات السبع (3) ، وتتكون هذه المدرسة من صحن مكشوف ، قاعة للصلاة وغرف للطلبة و المقرئين .

× مدرسة العطارين بفاس : بناها السلطان أبو سعيد ، وقد شرع العمل فيها سنة 723هـ /1323م وانتهت سنة 725هـ / 1325م . (4)

× المدرسة المصباحية بفاس : بناها السلطان أبو الحسن بالقرب من جامع القرويين وعرفت بهذا الاسم نسبة للعالم "مصباح بن عبد الله " الذي درس بها لأول مرة (5) ، وتحتوي هذه المدرسة على عدد كبير من الغرف التي تقدر 117 خصصت لإيواء الطلبة حتى بداية القرن الماضي ، غير أن الترميمات التي تعرضت لها أفقدتها جمالها الأصيل (6)

× المدرسة البوعنانية بمكناس : بعد إعتلاء أبي عنان عرش بني مرين شرع في بناء سلسلة من المدارس حملت أسمه ، ومنها المدرسة المذكورة ، وأهم ما يميز هذه المدرسة مدخلها الشاهق الملبس بالنحاس و الذي يشبه إلى حد ما بوابة جامع المنصورة بتلمسان (7) ،' وكذلك المدرسة البوعنانية بفاس وتدعى المدرسة المتوكلية (8) .

× مدرسة أبو الحسن – سلا : تعتبر هذه المدرسة من أحسن المدارس المرينية شكلا ورونقا و أرفع المباني القديمة و أتقنها وضعا و إحكاما و لطفا و ظرفا وقد أودعها الصناع من بديع الصنائع مالا مزيد عليه من الحسن و الإتقان وحالها اليوم شاهد على ذلك ، وقد كانت تدرس بها سائر العلوم الشرعية و سواها مابين رسائل من علوم اللسان ومقاصد من علوم الدين وكماليات من علوم التصوف و الفلسفة و الصنائع ، وأفاد أبن الخطيب "مثلى الطريقة في علم الوثيقة "(9) ،

---

(1) السلاوي ، مصدر سابق ، ج3، ص 175، 176.

(2) العربي لقريز ، مدارس السلطان أبي الحسن (مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا ، دراسة أثرية و فنية) رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية تلمسان ، 2000-2001، ص 34.

(3) محمد الزحيلي ، مجمع العلوم الإسلامية ، ط2 ، دار المعرفة ، دمشق ، ط2، 1992، ص 149.

(4) عبد العزيز لعرج ، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الأثار، جامعة الجزائر ،1998-1999.ص 314

(5) عبد الهادي التازي ، جامع القرويين المسجد و الجامعة بمدينة فاس ، ج 2 ، دار الكتاب اللبناني ، 1973، ص 359.

(6) شارل لأندري جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ج2، دار الكتاب اللبناني ، 1973، ص 359.

(7) العربي لقريزي ، مدارس السلطان أبي الحسن (مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا ، دراسة أثرية وفنية) و رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية ، تلمسان ، 2000-2001، ص 48'-49.

(8) الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج1، ص 215، ص 225-226.

(9) مجلة دعوة الحق ، العدد 293و السنة 33، 1992. ص 31.

أن أهل سلا في عصره أواسط المائة الثامنة للهجرة كانت لهم مشاركة في سائر العلوم واختصاص ببعضها التي لا يتعاطاها سواهم و الدليل على الاختصاص المذكور أن أعيان علماء فاس في ذلك الزمان كانوا يرحلون إلى سلا لأخذ الطب و التصوف عن أساتذتها كالعلامة الطبيب ابن الغيث السلوي و الطبيب الماهر أبي الفضل العجلاني السلوي، وكلاهما له تأليف في الطب و التشريح و العلاج ، وكانا يديران الأعمال العلاجية و الدراسة بمارستان أبي عنان المريني، بداخل مدينة سلا في حدود 760هـ ، ويأخذن علم التصوف حالا و مقالا عن الشيخ الصوفي سيدي الحاج أحمد بن عاشر الأندلسي، و الخطيب الصالح أبي الحسن سيدي علي بن أيوب ، والمولى الكبير سيدي عبد العزيز الصنهاجي (1) ، وذكر المؤرخ أبو عبد الله الحضرمي في تاريخ نسبه المسمى بلغة الأمنية (2) : " أن الإمام المشارك أبا عبد الله محمد بن المجراد السلوي (3) كان أهل المشاركة في الكثير من العلوم التي منها : الطب و التشريح ، وسواهما "

الزوايا : شيد المرينيون العديد من الزوايا سواء بالمغرب الأقصى أو المغرب الأوسط عند احتلالهم له كزاوية سيدي الحلوي . أما عن زوايا المغرب الأقصى فهي كثيرة ، مثل زاوية مقبرة سلا. و الزاوية المتوكلية التي بناها السلطان أبو عنان بنفسه وبنفس المدينة وهي معاصرة لزاوية سيدي الحلوي (4).

ويسبق ذلك كله رباط تافرطاست (5) ، التي بناها أبو يوسف يعقوب سنة 684هـ / 1285م (6) ، بالقرب من مكناسة ، و التي خصصت لتلاوة القرآن على روح الأمير المريني أبي محمد عبد الحق بن محيو و ولده إدريس اللذين قتلا في معركة واجرهان سنة 614هـ ، ضد بني عمومتهم بنو عسكر و مناصريهم عرب رياح (7) ، وقد اختلف ابن ابي زرع و ابن خلدون في التعبير الإصلاحي للمبنى الذي شيده أبو يوسف ، فالأول يسميه الزاوية و الثاني يسميه الرباط ، مما بنا إلى واحدية المعنى وتشابه الوظيفة ، ويقول أبن مرزوق في هذا الصدد : " والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين و إطعام المحتاج من القاصدين ، و أما الربط على ماهو المصطلح عليه في المشرق فلم أر في المغرب على سبيلها ونمطها إلا رباط سيدي أبي محمد صالح و الزاوية المنسوبة لسيدنا أبي زكريا يحي بن عمر (نفع الله بهم) بسلا غربي الجامع الأعظم منها . ولم أر لهما ثالثا على نحوهما في ملازمة السكان و صفاتهم و شبههم بمن ذكر نفع الله بهم " (8)

---

(1) دعوة الحق ، ص 31-32-34-35-36.

(2) هو كتاب بلغة الأمنية و مقصد اللبيب ، فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس و أستاذ و طبيب لمؤلف مجهول ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، المطبعة الملكية ، 140هـ- 1984م.

(3) G. Marcais . L'architecture... p 282

(4) ابن الحاج النميري ، فيض العباد ، وإفاضة قداح الأدب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب ، دراسة و إعداد محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990، ص 93-94 و ص 206-209.

(5) عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج7، ص 435.

(6) ابن أبي زرع ، علي بن عبد الله الفاسي ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، 1972 ، ص 257.

(7) الذخيرة السنية ، ص 33.

(8) ابن مرزوق ، المصدر السابق ، ص 413.

ب) أصناف العلوم النقلية و العقلية : رغم المكانة السياسية و العسكرية التي تبوأتها دولة بني مرين إلا أنها لم تركز جهودها على الجانب فحسب لضمان بقائها واستمراريتها ، بل أدركت أنها لا بد أن ترتكز على أسس متينة و قوية تحقق أهدافها البعيدة الرامية إلى توحيد المغرب الإسلامي تحت لوائها ، و إنشاء دولة مترامية الأطراف ، ولذلك أولى سلاطين بني مرين الجانب العلمي و الفكري اهتماما كبيرا ، فقربوا العلماء من مجالسهم و صرفوا عنهم أموال لتحفيزهم على الإبداع و النشاط ، وأعطوهم مطلق الحرية في التنقل لانتهال العلوم و التحصيل ، فتنوعت على عهدهم العلوم وازدهرت ، وتوافد الطلاب العلم من كل صوب وحدب على فاس وغيرها من حواضر المغرب الأقصى للإيجازة و التحصيل ، وكان اهتمام علماء بني مرين بمختلف العلوم النقلية والعقلية ، إلا أنهم أولوا العلوم الدينية كالتفسير و الفقه و الحديث عناية خاصة .

1) العلوم النقلية :

أ) العلوم الدينية : (الفقه ، التفسير ، الحديث): ومن أعلامها :

× القباب : الإمام الحافظ العلامة الصالح الزاهد ، أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن ، أحد الحفاظ المشهورين بالدين و الصلاح و التقدم في العلوم ، تولى الفتيا بفاس ، وله فتاوى مشهورة ، و هو أول من نقل الونشريسي عنه في المعيار ، أخذ عن الحفاظ السطي و أبي الحسن بن فرحون المدني و القاضي الفشتالي و عن الإمام الشاطبي ، والصالح عمر الرجراجي و غيرهم (2) 146، ذكره ابن الخطيب في الإحاطة فقال : هو من صدور عدول فاس فقيه نبيه جيد النظر سديد الفهم ، ولي قضاء جبل الفتح (جبل طارق) ، متصفا بجزالة ودخل غرناطة عام 762هـ موجها من قبل سلطان المغرب أبي سالم بن أبي سالم بن أبي الحسن ، ثم رفض العيش من الشهادة وتنسك على عادة الفضلاء (3) ، و قال عنه ابن الخطيب القسنطيني " شيخنا لبفقيه الحافظ ، الصالح المفتي الحاج أبو العباس ، حضرت مجلسه في الحديث و الفقه و أصول الدين ، توفي سنة ت779هـ ، هكذا في رحلته (1) ، من آثاره : اختصار أحكام النظر لابن القطان أسقط فيه الدلائل و الاحتجاج وشرحه على القواعد في غاية الإتقان ، وله مباحث مشهورة من الإمام الشاطبي في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب أحسن فيها غاية الإحسان ، ونقل عنه البرزلي في ديوانه ، و وصفه بالعلم و الصلح ، وقع بينه وبين الإمام سعيد العقباني مناظرة بل مناظرات و مراجعات في مسائل جمعها العقباني في كتاب سماه : لباب اللباب في مناظرة القباب " (2) .

× محمد بن موسى بن محمد بن معطي العبدوسي (2) : أبو عبد الله بن أبي عمران ، وصفه بعضهم بالفقيه المدرس العالم الخير الأزكى الورع الصالح العلامة ابن الإمام العلامة ، كان حيا بعد 790هـ ، وهو والد الإمام عبد الله العبدوسي ، و أخو أبي القاسم العبدوسي ، والده الإمام الحافظ موسى العبدوسي

× عبد الله بن محمد موسى بن معطي العبدوسي: الفسي مفتيها وعالمها ومحدثها وصالحها الإمام الحافظ العلامة الصالح ، ولي الفتيا بالمغرب الأقصى و إمامة جامع القرويين بفاس ، ومات فجأة و هو في صلاة سنة تسع و أربعين وثمانمائة (1)

---

(1) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 100.

(2) الإحاطة ، ج1 ، ص187 .

(3) نيل الإبتهاج ، ج1، ص 100.

(4) نفسه ،ص102 .

(5) نيل الإبتهاج ، ج2، ص 148-149.

(6) السخاوي ، أحمد أبو العباس الناصري ، كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955، ج5 ، ص 67.

وقال عنه الشيخ أحمد زروق : " كان أبو محمد العبدوسي عالما صالحا مفتيا حملت إليه و أنا رضيع ولم أزل أتردد إليه في ذلك السن لكون جدتي تقرأ عليه مع أختيه فاطمة و أم هانئ ، وكانتا فقيهتين صالحتين ، وكان قطبا في السخاء إماما في النصح الأمة أمات كثيرا من البدع بالمغرب و أقام الحدود و الحقوق ... وكان أكثر علمه فقه الحديث " له نظم حسن مشهور في مسألة شهادة السماع نقله ، و نقل عنه الونشريسي جملة من الفتاوى (1) .

× مصباح بن عبد الله الياصلوتي : أبو الضياء الفاسي ، من أكابر أصحاب أبي الحسن الصغير ، كان فقيها صالحا حافظا نوازليا ، و هو أول من درس بمدرسة أبي الحسن المريني بفاس فنسبت إليه ، وكانت أمه من الصالحات و لا ترضعه إلا على وضوء ، تفقه على أبي الحسن الصغير و غيره ، توفي بفاس سنة 750هـ ، وله فتاوى نقل بعضها في المعيار . (2)

× أبو عبد الله محمد الرندي الفاسي (3) : الفقيه الحافظ ، القائم على المذهب ، إمام في العربية مقدم في النظر ، انتفع به خلق كثيرا ، توجه مع السلطان أبي الحسن المريني لإفريقية فمات سنة 746هـ ، له تأليف حسن في شرح الجلاب أبان فيه عن فضله وتصرفه .

× محمد بن أحمد بن شاطر المراكشي : ذكر المقري بأنه كان من أصحاب أبي زيد الهزميري و ابن البناء ورزوق و غيرهم من الصالحين ، كان حيا سنة 757هـ .

× محمد بن أحمد بن عبد الملك الفشتالي الفاسي (4) : وقاضي الجماعة بها ، و سلفه من أهل الصلاح و الخير فيها ، كان من أكابر الفقهاء المشاركين في العلوم ، لكن غلب عليه الفروع واقتصر على حفظ المسائل و تقدم في علم الوثائق واشتهر بها ، كان متقبضا عن الناس كثير الصمت متحفظا للسانه لا يتكلم إلا في ضرورة ، تقلد خطة القضاء بفاس وسلك سيرة قضاة العدل ، له نظم حسن وكتابه رائق ينضم فيها (5) ، ويقول أبو زكرياء السراج في فهرسته بأن شيخه كان عالما بالفقه مشاركا في غيره من العلوم مسددا في الفتاوى عارفا بأخذ الشروط .... أخذ عن الأستاذ أبي الحسن بن سليمان و الشيخ الصدر قاضي الجماعة ابن عبد الرزاق ، سمع عليه الترمذي ، وعن الإمام السطي و الصدر المحقق أبي عبد الله بن آجروم ، و الحفاظ الناقد المحقق أبي زكرياء بن واثق والفقيه العلم أبي عبد الله الرندي و الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي ، و أبي جعفر الزيات ، و المحدث ابن جابر الوادي آشي ، وعبد المهيمن الحضرمي ، ويذكر ابن الخطيب القسنطيني بأن شيخه توفي سنة 779هـ وكان قد أخذ عن القباب (6) . له تأليف في الوثائق مشهور مليح وكلام في الدعاء بعد الصلاة على الهيئة المعهودة ، رد عليه فيه الإمام أبو يحيى بن عاصم الشهير في تأليفه الذي رد فيه شيخ الشيوخ ابن لب ، منصرا للإمام الشاطبي .

× يحيى بن أحمد بن محمد بن حسن القسي ، الرندي النفزي الحميري الفاسي أبو زكرياء عرف بالسراج (7) : فقيه محدث صالح ، ابن الفقيه الصالح أبي العباس ، أخذ عن جماعة كالفقيه المفتي المحدث القاضي أبي البركات ابن الحاج البلفيقي ، و القاضي عبد النور ، توفي بفاس سنة 803هـ .

---

(1) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 249-250.

(2) نيل الإبتهاج ، ج2، ص 306.

(3) نيل الإبتهاج ، ج2، ص 56.

(4) نيل الابتهاج ، ج2، ص 106.

(5) الإحاطة ، ج2، ص 187.

(6) نيل الإبتهاج ، ج2، ص ، 107- 106.

(7) نيل الإبتهاج ، ج2، ص 335، 336.

× الحسن بن عطية التجاني المكناسي المكناسي المعروف بالونشريسي : قال عنه ابن الأحمر في فهرسته : " شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي أبو علي ابن الشيخ الصالح عطية ، أجازني الموطأ رواية يحي بن يحيى ، توفي عام 781هـ ، أخذ عن الفقيه الإمام العالم المحصل المتكلم النظار المفتي المدرس البحر أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ الخزرجي المكناسي". (3) ص 160

× محمد بن علي بن البقال الأنصاري الفاسي : قال عنه ابن الأحمر في فهرسته : " الفقيه العدل الكثير الحياء و الصمت أبو عبد الله ابن الفقيه المدرس ، أخذ عن والده و عن الإمام أبي العباس بن البناء العددي ، و توفي بفاس عام 778هـ " (4) 161

× أبو عبد الله محمد بن سعيد بن محمد بن عثمان الرعيني الأندلسي الفاسي : مولدا ووفاة و من أعلامها ، فقيه فاضل متواضع مولع بالتقييد و التصنيف ، تفقه على أبي الحسن الصغير و الحافظ عبد الرحمن الجزولي ، و أبي سالم اليزناسي و أبي الحسن المزدغي ، و أخذ عن جماعة شرقا وغربا كأبي الحسن بن سليمان ، و المفسر عبد الله بن أيوب الصنهاجي ، والإمام ابن البنا الأزدي ، سمع عليه من تأليفه تفسير الباء من يسم الله ، والتفسير الإسم و تأويله ، وتفسير سورة الكوثر ، ومراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة ، ومقالة في المكاييل الشرعية ، والكلام على القبلة ، وعن الشيخ الفقيه الرواية الرحلة أبي القاسم التجيبي السبتي ، لقيه بفاس و أجازه برنامج روايته ومؤلفاته ، و الخطيب الراوية المحدث ابن رشد و الشيخ المسند الرواية أبي بكر محمد بن محمد بن أبي عمر محمد بن خليل السكوني ، و الأصولي النظار قاسم بن الشاط ، و عن القاضي أبي عبد الله القرطبي السبتي وابن عبد المنعم ، والناصر المشدالي و ابن عبد الرفيع ، وابن قداح و أثير الدين أبي حيان ، وابن سيد الناس وجماعة كثيرة توفي سنة 779هـ .

وقال بعضهم : كان من فقهاء فاس نسخ بخطة أزيد من مئة وخمسين كتابا و ألف في فنون عدة منها : تحفة الناظر ونزهة الخواطر في غريب الحديث ، و الجامع المفيد في سفرين و المغرب في حثالة صلحاء المشرق و المغرب ، و القواعد الخمس و المقامات وشرحا ، والوعظ و الشعر ، والمهاد و الإعتماد في الجهاد ، وتنبيه الغافل و تعليم الجاهل ، والروضة البهية في البسملة و التصلية ، اختصار مقدمات ابن رشد و الأسئلة والأجوبة و اختصار حدود الشيرازي و نظم مراحل الحجاز ، وروى عن نحو ستين شيخا غربا و شرقا منهم : ابن الشاط وابن رشد ، و أبو حيان و أبو الحسن الصغير و الناصر المشدالي و أبو الربيع اللجائي . (1) 162

---

(1) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 170، 171.

(2) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 120.

(3) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 120-122.

ب) العلوم اللسانية و الاجتماعية : '(الأدب والنثر ، النحو ، الشعر ، التاريخ)

× أبو عبد الله القشتالي : وهو محمد بن أحمد بن عبد المالك ، أبو عبد الله القشتالي ، قاضي فاس ، المتوفي سنة 777هـ / 1375م ، من العلماء بفقه المالكية و الأدب وأحد الكتاب البلغاء في عصره ، وهو الذي خاطبه لسان الدين بن الخطيب بأبيات ، أولها : " من ذا يعد فضائل القشتالي " ولاه سلطان المغرب قضاء فاس سنة 756هـ ، وكان له تأليف يعرف " بوثائق القشتالي " علق عليه الونشريسي في كتاب سماه "غنية المعاصر (1).

× أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي المكي الحسني والد قاضي المالكية بمكة تقي الدين: ولد سنة 754هـ ، و عني بالعلم فمهر في عدة فنون خصوصا الأدب فقال الشعر الرائق و فاق في معرفة الوثائق ودرس و أفتى وحدث قليلا ، سمع عز الدين بن جماعة و أبا البقاء السبكي و غيرهما ، توفي في الحادي عشر شوال سنة 819هـ (2) .

× إسماعيل بن الأمير يوسف بن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الرئيس الأمير أبي سعيد فرج أمير مالقة ابن الأمير إسماعيل ابن يوسف المعروف بابن الأحمر من ذرية سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي: عاش هذا الرجل هو و والده في كنف الدولة المرينية ، وارتسم في جندها ، أخذ العلم عن جماعة من الشيوخ منهم : أبو القاسم بن رضوان و أبي سعيد بن عبد المهيمن الحضرمي ، وابنه عبد المهيمن ، وأبي المكارم منديل ابن آجروم ، و الحسن بن عطية الونشريسي ، و أبي زيد المكودي ، والفقيه الزموي المعروف بأنقشابو و أبي زكرياء السراج و غيرهم .

وله مؤلفات كثيرة في الأدب كمستودع العلامة ومستبدع العلامة ذكر فيه من تولى العلامة من الكتاب عن الملوك ، وحديقة النسرين في أخبار دولة بني مرين تكلم فيها على بيوتات فاس ومشاهيرها و أخبارها ، و كتاب آخر سماه روضة النسرين في أخبار دولة بني مرين تكلم فيها على بيوتات فاس و مشاهيرها و أخبارها ، وكتاب آخر سماه روضة النسرين في أخبار بني عبد الواد و بني مرين ، ونظم وشرحه على منهاج رقم الحلل لإبن الخطيب ، وعرائس الأمراء ونفائس الوزراء ، وشرح البردة ، و تأنيس النفوس في إكمال نقط العروس ، ونثير الجمان فيمن ضمه و إياه الزمان من أهل النظم ، توفي بفاس سنة 810م .

قال عنه ابن الاحمر في فهرسته : " شيخنا الفقيه المتفنن الكاتب الشاعر المكثر المعمر ابن الفقيه أبي محمد ، أخذ عن الفقيه المحدث الحافظ الراوية المغربي أبي العباس بن موسى البطروني ، و توفي بفاس سنة 775هـ (3) .

× عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي ثم الفاسي : ولد سنة 718هـ ، قال عنه أبو زكرياء السراج في فهرسته "شيخنا الفقيه الخطيب البليغ النحوي اللغوي الراوية المتفنن الناظم الناثر الصدر الأوحد رئيس الكتاب أبو القاسم ابن الفقيه الوزير الجليل الماجد الأصل الفاضل ، كان متفننا في معارف شتى عارف بعقد الشروط آخذا بحظ وافر من الرواية ، شاعر مجيدا كاتبا بليغا ، حسن الخط ... محبا لأهل الدين معظما لهم ولمن ينتسب للصوفية ...." أخذ عن والده وخاله ابن الحاكم ابن القاضي أبي القاسم بن ربيع و الفقيه العالم قاضي مالقة أحمد بن عبد الحق الجدلي ، و الإمام الولي أبي عبد الله الطنجالي ، والقاضي أبو بكر بن منظور ، والعالم الصدر الخطيب ابن أبي الجيش الضريحي ....) (4).

---

(1) الإحاطة ، ج2، ص 133.

(2) نفسه ، ج2 ، ص 35.

(3) المقري أحمد بن محمد التلمساني ، نفتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر للنشر ، بيروت ج5، ص 7.

(4) نيل الإبتهاج ، ج1، ص 236، 237.

2) العلوم العقلية : (الطب ، الفلك .....) . و من الشيوخ العلوم الطبيعية في الدولة المرينية نذكر :

× ابن البناء : (654-721هـ / 1256-1321م) : عالم مراكشي متفنن في علوم جمة ، برز بصفة خاصة في الرياضيات ، و الفلك و التنجيم و العلوم الخفية ، وكذلك في الطب . وهو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بأبي العباس بن البناء المراكشي ، كان أبوه البناء ، ولد في مراكش عام 654هـ / 1256م و قضى أغلب فترات حياته بها وهذا هو السبب في انتسابه لها وبها درس النحو و الحديث و الفقه ، ثم ذهب إلى فاسرودرس الطب و الفلك والرياضيات ، وكان من أساتذته ابن مخلوف السجلماسي الفلكي و ابن حجلة الرياضي ، وقد حظي ابن البناء بتقدير ملوك الدولة المرينية في المغرب الذي استقدموه إلى فاس مرارا ، وتوفي في مدينة مراكش عام 721هـ / 1321م (1)

إسهاماته العلمية : من إسهامات ابن البناء في الحساب أنه أوضح النظريات الصعبة و القواعد المستعصية ، وقام ببحوث مستفيضة عن الكسور ، و وضع قواعد لجمع مربعات الأعداد و مكعباتها ، وقاعدة الخطأين لحل معادلات الدرجة الأولى ، والأعمال الحسابية ، و أدخل بعض التعديلات على الطريقة المعروفة "بطريقة الخطأ الواحد " ، وضع ذلك على شكل قانون ، مؤلفاته : ألف ابن البناء أكثر من سبعين كتابا في الحساب ، و الهندسة و الجبر ، والفلك و التنجيم ، ضاع أغلبها و لم يبق إلا القليل منها ، و أشهرها : - كتاب تلخيص أعمال الحساب : يعترف "سميث" و "سارطون" بأنه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب ، وقد طل الغربيون يعملون به إلى نهاية القرن السادس عشر للميلاد ، وكتب كثير من علماء العرب شروحا له ، واقتبس منه علماء الغرب ، كما اهتم به علماء القرنين التاسع عشر و العشرين ، وقد ترجم إلى الفرنسية عام 1864م على يد مار ، وانتشرت ترجمته في روما ، وقد أعاد ترجمته إلى الفرنسية الدكتور محمد سويسي ، ثم نشر النص و الترجمة مع تقديم و تحقيق سنة 1969م . مقالات في الحساب : وهو بحث في الأعداد الصحيحة ، والكسور ، والجذور ، والتناسب . كتاب الجبر و المقابلة، كتاب الفصول في الفرائض ، و رسالة في المساحات . كتاب الإسطرلاب واستعماله..(2)

× إبراهيم بن المصمودي : الفقيه الفرضي الحيسوبي متقدم في الفرائض و الحساب ، تصدر لهما بفاس ، أخذ عن جماعة من العلماء منهم عبد الحق الصمودي و غيره ، توفي سنة 913هـ (3)

× عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن يوسف بن محمد بن عطية المديوني : ثم الجاديري و به اشتهر ، الفاسي الشيخ الفقيه العالم الموقت الإمام ، ولد سنة 776هـ واستوطن فاس ، وكان بها عدولا مبرزا ، ولي التوقيت بجامع القرويين منها و كان متفننا مقرئا نحويا حيسوبيا موقتا . قرأ بالسبع على ابن عمر ، وعلى أبي عمر عثمان الوزروالي ، و أبي عبد الله الفخار و أبي عبد الله القيسي و روى عن الترجالي و برهان الدين بن صديق و أبي الحسن ابن الإمام البخاري و غيرهم . من تأليفاته : روضة الأزهار في علم وقت الليل و النهار ، و اقتطاف الأنوار ذكر فيه مسائلها نثرا كالشرح لها ، ومختصر الإقتطاف المذكور و كتاب جمع فيه بين العمل بآلة الإسطرلاب و بالصفيحة الشكارية و بربع الدائرة و العمل بالحساب و الجدول في إثنين و أربعين بابا ، وتنبيه الأنام على مايحدث في أيام العام ، وشرح رجز أبي مقرع ، ومختصر شرح الخاقانية للداني ، ورجز سماء النافع في أصل حرف نافع ، وشرح رجز شيخه القيسي في الضبط ، وشرح الدرر اللوامع ، وله أيضا المذكر و المؤنث وغيرها ، توفي سنة 840هـ (4)

---

(1) http://www. ; isesco. Org. Ma/ pub/ arabic / fikr . page39. htm

(2) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 84، 85.

(3) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 59.

(4) نفسه ، ص 277، 278.

× عمر بن محمد الرجراجي أبو علي الفاسي : إمام في الفرائض و الحساب ، قال عنه ابن الخطيب القسنطيني : " كان من أولياء الله تعالى و صدور العلماء و شهرته بالصلاح أكثر من شهرته بالعلم ، لازمته و قرأت عليه الحوفية في الفرائض ، وحضرت معه مجالس العلم كمجلس الحافظ الفقيه القباب في الحديث و الفقه و الكلام ، و إذا قصدته فيما عسر علي فهمه أجلسني مع السارية و جلس هو بين يدي كأنه السائل لتواضعه و إخفائه "تولى الخطابة بجامع الأندلس بفاس توفي سنة 810هـ (1)

× أبو العباس أحمد بن شعيب : أحد فضلاء وقته و نبلاء زمانه ، فقيه مشارك تعاليمي ، طبيب أديب و نباتي وطبقة في قرض الشعر ، و إمام في التعاليم ، له معرفة كبيرة بالأشجار و النبات ، بارع الخط يحسن الكتابة ولذلك استخدمه السلطان أبو الحسن المريني في ديوان الكتابة . (2)

× عبد الرحمن الهزميري أبو زيد: الولي الشهير ، شيخ الطائفة الهزميرية بالمغرب ، العالم العامل ذو المناقب . ذكر ابن الخطيب القسنطيني أن الشيخ أبا العباس ابن البناء كان يقصده فيما يشكل عليه من مسائل الهندسة وغيرها ، ثم قال فأجد الزمام عليه فيجبني من طرف الحلقة فأنصرف بلا سؤال ، ارتحل من بلده أغمات قاصدا السلطان أبي يعقوب المريني وهو في حصاره العظيم لتلمسان حاجة منه ، في ظاهر أمره ، ونيته باطنا صرفه عن ذلك الحصار لشدته ، فلم يقبل منه ، فرجع إلى فاس ونزل بجامع الصفارين ، وبعد أيام قتل السلطان أبو يعقوب ورجع جيشه ، فقال له خديمه ، ظنا منه ، أنه ما أقام إلا ليرغب إليه إلى الله في الفرج ، مات السلطان أبي يعقوب ، سنة 706هـ (3)

× الحسن بن عثمان بن عطية : وهو ابن الفقيه الحسن بن عطية المعروف بالونشريسي السالف الذكر ، كان فقيها عدلا من أهل الحساب و القيام على الفرائض و العناية بفروع الفقه يقرض الشعر وله أرجوزة في الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى . قال عنه ابن الأحمر : " شيخنا الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب الحاج أبو علي ابن الفقيه المفتي المدرس القاضي الفرضي الأديب الحاج أبو علي ابن الفقيه الصالح أبي سعيد عثمان التجاني المنعوت بالونشريسي ، أجازني عامة ، أخذ عن الفقيه المفتي الخطيب المعمر القاضي المحدث الرواية خاتمة محدثي الغرب أبي البركات بن الحاج البلفيقي (4) ، ولد في حدود 724هـ وكان حيا قرب 790هـ ، ومن شعره قصيدة رفعها إلى السلطان أبي عنان فارس يقول فيها :

نبدأ أولا بحمد الله .... ونستعينه على الدواهي

ثم نوالي بالصلاة و السلام ....على النبي دونه كل الأنام

وبعد ذا نسأل رب العالمين ....أن يهب النصر أمير المؤمنين ....) (5)

---

(1) نيل الإبتهاج ، ج 1 ، ص 339-341.

(2) المسند الصحيح ، ص 375.

(3) نيل الإبتهاج ، ج 1 ، ص 262-263.

(4) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 171

(5) نيل الإبتهاج ، ج1، ص 171، 172.

المبحث الثالث : العلاقات الثقافية بين الدولتين الزيانية والمرينية

على الرغم من أن علاقات الزيانين والمرينين السياسية كانت بين مد وجزر إلا أن علاقتهما الثقافية لم تتأثر بذلك الصراع السياسي والعسكري، وتاريخهما الثقافي الزاخر خير شاهد على تلك الروابط الثقافية والفكرية التي أغفلتها العديد من المصادر التاريخية التي أولت التاريخ السياسي كل اهتماماتها، لذلك كان من الضروري نفض الغبار عن هذا الجانب الذي يثبت وجود علاقات ثقافية كانت قائمة بين الدولتين والتي ترجمتها مجموعة من النشاطات العلمية والفكرية التي أثرت الحياة الثقافية في الإقليمين. ومن الأمثلة الحية عن هذا التواصل الفكري ،(1) الرحلات العلمية لعلماء الدولتين وتنقلهما بين العواصم العلمية للانتهال والتحصيل والتدريس والإجازة كذلك، وما نتج عنها من حوار فكري ومناظرات علمية هامة بين أجلة العلماء للخروج بالعلوم من قوقعة المحلية والركود إلى الخوض في مختلف العلوم حتى التي كانت فيما مضى علوما محظورة بالإضافة إلى المنشآت العمرانية الدينية والعلمية التي خلدها بنو مرين في تلمسان والتي كانت شاهدا حيا على رقيهم العلمي والحضاري، وصورة واضحة عن إسهاماتهم في التطور الفكري والعلمي بالمغرب الإسلامي ككل، والذي يمثله ذلك الجيل الهام من العلماء والفقهاء والأدباء الذين أنجبتهم هذه المدارس العلمية، لكن وبما أن هذه العلاقات الثقافية لم تتأثر بذلك الصراع السياسي الذي كان مستمرا بينهما، فقد كانت هناك عوامل ساعدت على إثرائها وازدهارها في الإقليمين. ولعل أهمها : تلك المنافسة الشديدة بين ملوك البلاطين الزياني والمريني في تقريب العلماء والأدباء والفنانين من مجالسهم، وإجراء الأرزاق عليهم، وإنزالهم أحسن المنازل والرفع من شأنهم، ذلك لأن سلاطين الدولتين كانت لهم رعاية مستمرة بالعلم والأدب ومختلف العلوم حيث كان من بينهم الفقيه والشاعر والأديب والفنان، مثل السلطان أبي تاشفين الأول المولوع بالفن والعمران(2) و الأمير الفقيه أبي عبد الله بن عثمان بن يغمراسن الشهير بأبي حفص ، والأمير الفقيه أبي سليمان داوود علي كبير بني عبد الواد وشيخ دولتهم، والفقيه أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي يحيى يغمراسن المعروف بابن شانشة، والسلطان الشاعر الأديب أبي حمو موسى الثاني ، و السلطان أبي زيان محمد الثاني (3) . أما السلاطين بني مرين فقد تفوق منهم في هذا المجال السلطان أبو الحسن المريني وإبنه أبي عنان فارس اللذان كانا من علماء عصرهما، لما أحرزاه من ثقافة متينة، حيث أسهما في مجالس العلم وأحاطاها برعاية فائقة ولعل ما خلفاه من منشآت علمية خير شاهد على اهتمامهما البالغ بالعلم وأهله. فقد أنشأ السلطان أبو الحسن المريني مدرسة العباد سنة 748 هس 1348 /م أثناء استلائه على المغرب الأوسط(4) وجلب لها الأساتذة وأجرى على طلابها المنح والأرزاق، واقتدى به ابنه أبو عنان في تشييد المدارس، فأضاف لتلمسان مدرسة أخرى بجانب مسجد وضريح الولي الصالح سيدي أبي عبد الله الحلوي سنة 754هس1343 /م (5)

---

(1) يحي إبن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج 1 تقديم و تحقيق و تعليق عبد الحميد حاجيات المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1985 ، ص216.

(2) نفسه ، ص 116-120.

(3) التنسي محمد بن عبد الله الجليل: نظم الدر و العقبان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق وتعليق محمد بوعياد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 ، ص ص 191 ، 211.

(4) إبن مرزوق الخطيب : المسند الصحيح الحسن في مآثر ومعاني مولانا أبي الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 ،ص 260.

(5) يحي بن خلدون ، المصدر السابق ، ج1 ص 127-128 وأيضا ،إبن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان نشر محمد بن أبي شنب وقدم له عبد الرحمن طالب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986 ، ص ص 68-

وقد وصف لنا ابن مرزوق اهتمام أبي الحسن بدراسة الحديث وكتب السيرة وتقريبه للعلماء ومحاورتهم ومشاركتهم في المجالس العلمية بقوله : "وكان أبر الناس بأهل العلم وأعرفهم بقدرهم استخلصهم لنفسه، وجمع من سائر بلاده في حضرته اذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته، وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا، فاجتمع بحضرته أعلام، ثم ضم لهم من كان بتلمسان وأحوازها حين استلائه عليها ثم استمر هذا العمل في دخوله بلاد افريقية".(1) ومع هذا الاهتمام والتشجيع نشطت الحركة الفكرية والتعليمية في تلمسان وفاس وتوافد عليهما أجلة العلماء، وتنافس أهل العلم على الانتهال من ينابيع الثقافة والعلوم من العاصميين (فاس وتلمسان) والاستفادة من علماءهما المقيمين والزائرين بصفة مباشرة، حتى صار لهم كما ذكر ابن خلدون "حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها".(2) مما أتاح فرصة للتلاقح الفكري والحوار بالمناظرة والتعمق في البحث، و الإقبال على دراسة مختلف المؤلفات الفقهية وغيرها، حتى صارت تلمسان وفاس مراكز إشعاع ثقافي تستقطب الطلاب وأهل العلم الوافدين عليها من الشرق والغرب ويضاف إلى ذلك الموروث الثقافي والحضاري للمرابطين والموحدين وكذا التأثير الثقافي الأندلسي خصوصا بعد توافد المهاجرين الأندلسيين على حواضر بلاد المغرب بعد ازدياد حركة الاسترداد الاسبانية في الأندلس واضطهادهم، فأقبلت أفواج كبيرة منهم فكان منهم العلماء الذين نقلوا علومهم ومصنفاتهم، وكذا أصحاب الحرف والصنائع وقد ساهموا جميعهم بشكل كبير في إثراء الحياة الثقافية بحواضر المغرب، وجلبوا وعلومهم وفنونهم ولقنوها للمغاربة و قد برزت واضحة من خلال المنشآت الدينية التي حملت الكثير من الفن الأندلسي العريق.(3) إضافة إلى ظاهرة التصوف(4) وآثارها على المجتمعين. وكذا الرحلات العلمية التي كانت قائمة بين العاصمتين.

المطلب الأول : الرحلات العلمية ودورها في توطيد العلاقة الثقافية كانت الرحلة في طلب العلم من المسائل المحمودة في المغرب الإسلامي عموما باعتبارها عاملا هاما في تمتين العلاقات والروابط مع أهل المغرب خاصة والمشرق والأندلس على وجه العموم. إذ تضاعف الاتصال عن طريق النشاط الديبلوماسي(5) وتبادل الرسائل الإخوانية (6)، وعن طريق الرحلة العلمية والحج إلى البقاع المقدسةبالحجاز وبيت المقدس، فأتاحت هذه العوامل تلقحا فكريا ودعما للروابط الثقافية بين علماء فاس وتلمسان. ونظرائهم من حواضر المشرق والمغرب والأندلس، على الرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية حينذاك، فنتج عن هذه الرحلات تبادل المعارف والآراء في مختلف العلوم، حيث كان علماء المغرب يتصلون بعلماء المشرقوالأندلس ويتبادلون معهم الكتب والمصنفات وشتى ألوان المعارف ويتدارسونها، فكانت الحركة مستمرة بين فاس وتلمسان وتونس وغرناطة والشام ومصر والحجاز للاستزادة من العلوم والإجازة والتعمق أكثر في دراسة الفقه وأصوله .(7)

---

(1) إبن مرزوق ، المصدر السابق ، ص 260.

(2) عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968 ص 106.

(3) عبد الرحمن بن خلدون،العبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج7 ، دار العلم بيروت1968 ص 297

(4) عبد العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج2 ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2002 ، ص 383 ،406.

(5) عطاء الله دهينة : مساعدة الزيانيين لمسليمي الأندلس ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد 13 جانفي 1976 ، ص ص 7-17.

(6) عن الرسائل الإخوانية والديوانية أنظر : المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، ج6 تحقيق إحساس عباس ،دار صادر بيروت 1968، ص47.

(7) رشيد الزواوي : التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي ، مجلة الحضارة الإسلامية ، العدد 1 ، 1993 ، ص ص 324 -339.

فكان التأثير الثقافي والفكري واضحا من خلال مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء والأدباء المغاربة والأندلسيين الذين تزودوا بمعارف المشرق لينقلوها إلى بلادهم، ومن بين المؤلفات الهامة التي أدخلت إلى بلاد المغرب عن طريق الرحلة "مختصر ابن الحاجب في الفروع" الذي جاء به إلى المغرب أبو علي المشذالي (ت 646 هـ) (1). كما أدخل الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني (ت818 هم 1415 / م) مختصر خليل بن اسحاق المالكي إلى بلاد المغرب. فنتج عن ذلك تكوين نخبة من العلماء الذين تميزوا بغزارة العلم ووفرة التحصل، حتى أصبحوا حجة في العلوم نقلية كانت أم عقلية(2). لينقلوها إلى أوطانهم وليلقنوها لأبنائهم مما ساعد على ازدهار الحركة الثقافية والفكرية وتنشيطها بين دويلات المغرب الإسلامي عامة وبين المغربين الأوسط والأقصى خاصة.والأمثلة كثيرة كالأخوين ابن خلدون وغيرهم.

وعلى الرغم من الصراع السياسي الذي كان قائما بين الإقليمين إلا أنه لم يمنع من تنقل الدارسين التلمسانيين لطلب العلم والاستزادة منه بجامع القرويين ولقاء كبار شيوخه المشهورين، فقد كانوا لا يكلون عن السعي في سبيل الدرس والتحصيل، وتبادل الأراء في مختلف العلوم كما ذكرن سابقا، ومد جسور العلم والثقافة عبر الأجيال، ولعل الفائدة المرجوة من هذا الإتصال تكمن في تداول المعارف والكتب وتبادل الإجازات، اعترافا متبادلا فيما بين الشيوخ أنفسهم لما يجدونه من معارف، ولما يحصلونه من علوم بعضهما سواء كان باللقاء المباشر أوعن طريق المكاتبة.(3)

فتنافس لذلك جميعهم في المداومة على المجالس والحلقات العلمية على اختلاف حظوتهم من التحصيل على أعلام المغربين والمساهمة من جهة أخرى في نشر ما عندهم من علوم ومعارف لطلاب هذين الإقليمين بمراكزه الثقافية الهامة(4)، كفاس وتلمسان ومراكش وغيرها من المدن، فكان لهم باع طويل في هذا المجال، فتركوا آثارا علمية وبصمات فكرية وسمعة طيبة في المغرب والمشرق الإسلاميين.(5) ومهما كانت دوافع هذه الرحلة ونوازعها، فان المقصد العلمي كان أقواها وأشملها.(6) حيث كان طلاب العلم من أهل تلمسان يشدون رحالهم إلى مختلف الحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية متجسمين مشقة السفر في سبيل الدرس والتحصيل والتعمق في العلم والمعارف. حتى صاروا شيوخا وأساتذة وعلماء ساهموا بقسط كبير في اثراء النهضة الفكرية والتعليمية في أقطار المشرق والمغرب، وخاصة في المغربين الأوسط والأقصى، فجعلوا بذلك العهدين الزياني والمريني من العهود المزدهرة ثقافيا وفكريا في تاريخ المغرب الإسلامي، وأعطوا صورة واضحة عن رغبة بني زيان وبني مرين في طلب العلم والسفر من أجله وركوب صعابه، خاصة أهل تلمسان، كآل مرزوق، وآل التنسي، وآل الإيمام، و آل المقري، وآل الشريف التلمساني، وآل النجار، وبنو أبي الحسن، وبنو أبي العيش، وآل زاغو و السراغنة وغيرهم من البيوتات والأسر التي أنجبت العديد من العلماء والفقهاء والأدباء، حتى أن بعض فقهاء تلمسان وعلمائها قرأوا في مختلف المدن التي زاروها قصد لقاء مشيختها، كما درسو فيها تطوعا ورفضوا المرتب والجرايات.(7) ،

---

(1) المقري ، المصدر السابق، ج 5 ، ص 212.

(2) إبن خلدون ، المقدمة ، ص 322.

(3) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 327.

(4) التعريف بإبن خلدون ، مصدر سابق ، ص 37.

(5) عبد العزيز فيلالي ، مرجع سابق ، ج2، ص 327.

(6) تعددت الأحاديث النبوية إلى طلب العلم ورغبت في الرحلة من أجله راجع في ذلك : صحيح البخاري : باب الرحلة في طلب العلم ، ص 27

(7) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص329.

والأمثلة كثيرة عن علماء تلمسان وفاس الذين تنقلوا بين الحاضرتين عن دورهم في تمتين الروابط الثقافية وتمتين العلاقات الفكرية والمساهمة في النهضة العلمية بالمغرب عامة ومنهم:

× أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي : (ت 757 هـ /1356 م): هو شيخ العلوم العقلية والنقلية في عصره، أصل أجداده من آبله بالأندلس ولد بتلمسان سنة 681 هم / 1282 م ، ونشأ بها حيث أخذ على أبي موسى بن الامام وعلى جده، وأبي الحسن التنسي(1) ولما استولى يوسف بن يعقوب المدني على تلمسان، استخدمه، إلا أنه قبل الوظيفة على مضض، لكن سرعان ما تركها.(2) وأثناء رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مر بمصر والشام والعراق، حيث التقى بعلمائها كابن رقيق العيد وابن الرفعة والصفي الهندي، و التبريزي وغيرهم،(3) ثم عاد إلى تلمسان حيث عرض عليه السلطان أبو حمو موسى ضبط جباية أمواله، غير أن الآبلي أعرض عن ذلك، ففر إلى فاس، حيث اختفى عند شيخ التعاليم خلوف المغيلي اليهودي، الذي هيأ له كل الظروف لاستكمال دروسه والتبحر في مختلف العلوم،(4) ومنها توجه إلى مراكش سنة 710 هم 1310 / م. ونزل عند العلامة الإمام أبو العباس أحمد بن البناء الذي أخذ عنه فنون التعاليم، فلازم الآبلي علماء فاس ومراكش وانظم إلى مجلسهم وانتصب للتدريس في عواصم بلاد المغرب وحواضره، فانهال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه واشتهر، وكان قد أقام في رحلته إلىتونس ثلاث سنوات، درس خلالها لعبد الرحمان بن خلدون وأجازه في علم الأصليين والمنطق، وسائر الفنون الحكمية والتعليمية(5)

× أبو علي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي، نزيل تلمسان (ت 770هـ/ 1368م) ولد ببجاية سنة 710 هم ونشأ بها، فأخذ عن والده وشيوخ مدينته، منهم : منصور المشذالي وأبي العباس أحمد بن عمران ويوسف الزواوي، وقاضي الجماعة ببجاية أبي عبد الله محمد بن يوسف.(6) و بتلمسان درس على أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، وأبي اسحاق بن أبي يحيى، وعلى العباس بن يربوع وغيرهم. ارتحل إلى الأندلس فأقرأ بها، وأخذ عن ابن الفخار البيري الذي أجازه، ثم انتقل إلى المغرب الأقصى، فأخذ عن القاضي الشريف الحسني السبي الذي قرأ "تسهيل الفوائد لابن مالك"(7). و بعدما استفتي في مسألة شرعية، خالف فيها فقهاء الفروع في زمانه في الأندلس، فاشتد هؤلاء، في معارضة وإذايته فاضطر إلى الارتحال إلى تلمسان سنة 765 هم حيث استقر بها يقرئ ويدرس.(8)

× أبو عبد الله محمد الحسيني الشهير بالشريف التلمساني (ت 771 هـ /1369 م) ولد بتلمسان سنة 710 هم ونشأ بها شغوفا بطلب العلم يتردد على المجالس العلمية، أخذ بها عن مشيختها كابني الإمام والآبلي.(9) ثم ارتحل إلى تونس فاجتمع بابن عبد السلام أبو عبد الله، وابن عرفة وغيرهما، ثم عاد إلى تلمسان في عهد السلطان أبي عنان .

---

(1) نفح الطيب ، ج5 ، ص 244 وأيضا البستان ، ص 215 وأيضا ، نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 66.

(2) التعريف بإبن خلدون ، ص 34، 35 وأيضا بغية الرواد ، ج1 ، ص 17

(3) البستان ، ص 214 ، 215.

(4) البستان ، ص 215 وأيضا، بغية الرواد ، ج1 ، ص 17 .

(5) التعريف بإبن خلدون ، ص ص 34-37.

(6) علي علواش : معجم مشاهير المغاربة ، تنسيق أبو عمران الشيخ ، إعداد فرقة البحث العلمي ، جامعة الجزائر 1995 ، ص 267.

(7) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 310 وأيضا ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 132 وأيضا ، البستان ، ص 293 وأيضا ، الإحاطة ، ج3 ص 328.

(8) الإحاطة ، ج3 ، ص 325.

(9) كما أخذ أبو عبد الله عن أبي زيد بن يعقوب ، والولي المجاصي وعمران المشندالي وإبن النجار ومحمد بن محمد البيروني.

فارس، فقربه منه واستصحبه إلى فاس حيث تتلمذ بها على يد العالم السطي. فدرس عليه أحكام عبد الحق الصغرى، والتهذيب والموطأ والصحيحين، ومن فاس راح يجوب سبتة وسجلماسة طلبا للعلم والتحصيل، ومنها إلى مصر والحجاز "فهرت إليه رباط الإبل شرقا وغربا"(1) ، حيث كانت تأتيه الأسئلة من غرناطة فيجيب عنها(2)، وكان الفقيه الكبير موسى العبدوسي شيخ فقهاء فاس في عصره، يبحث عما يصدر عن أبي عبد الله الشريف بتلمسان، من تقييد أو فتوى فيقيده وهو أكبر سنا.(3) وبتلمسان استقبله أبو حمو موسى الثاني استقبال حسنا وأنكحه ابنته وابتنى له المدرسة اليعقوبية، حيث استقر أبو عبد الله يلقي الدروس ويحضر مجلسه طلبة كثيرون إلى أن وافاه الأجل سنة 771 هم 1369 / م .(4) و هو الذي ملأ بلاد المغرب معارفا وتلاميذ.(5)

× أبو اسحاق التلمساني ابراهيم : ولد سنة 609 هم بتلمسان، ثم انتقل مع أبيه إلى الأندلس، فاستوطن غرناطة ثم مالقة التي قرأ فيها على أبي بكر بن دحمان وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد، وأبي عبد الله بن حفيد، وأبي الحسن بن سهل بن مالك، وأبي بكر بن محرز، وأبي الحسن بن طاهر الدباج ، ثم انتقل إلى سبتة واستقر بها ولقي بها الحسن بن عصفور الهواري وأبا المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة، وأبا يعقوب يوسف بن موسى الغماري المحسني فأصبح حينئذ فقيها عارفا مبرزا في الفلرائض والعدد، متضلعا في الأدب له أرجوزة محكمة بعلميها، ضابطة، عجيبة الوضع،(6) وله منظومات في السير والمدائح النبوية وقصائد في المولد النبوي، وأرجوزة في علم الفرائض تعرف بالتلمسانية لم يصنف في فنها أحسن منها.(7)

× أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب (ت 781 هـ /1379 م) ولد بتلمسان سنة 711 هم (8) ، و ارتحل مع والده إلى المشرق سنة 718 هـ، فأقام بالقاهرة و أخذ على برهان الدين الصفاقصي ثم عاد إلى بلاده سنة 733 هـ فوجد أبا الحسن المريني محاصرا لتلمسان، فالتحق ببلاطه ونال حظوة عنده، فصحبه في سائر تنقلاته، وفي سنة 752 هم أجاز إلى الأندلس، فخطب بجامع الحمراء بغرناطة وتناوب الخطابة مع قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف، كما تناوب الخطابة مع آخرين على منبر المسجد الجامع بغرناطة مدة ثلاث سنوات، ودرس بمدارسها فخطب على منبر مسجد مالقة وفاس ومراكش وتونس والقاهرة.(9)،وتشير المصادر إلى أنه خطب على أكثر من ثمانية وأربعين منبرا في المشرف والمغرب والأندلس،(10) وبعد عودته إلى تلمسان اتصل بالسلطان أبي عنان فارس ومكث في بلاطه، وفي أيام أبي سالم المريني، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب، وأصبح زمام الأمر في الدولة المرينية بيده، ولما قتل أبو سالم سجن ابن مرزوق بأمر من الوزير الثائر عمر بن عبد الله سنة 762 هـ وبعد اطلاق سراحه توجه إلى تونس، واستقر بها خطيبا بجامع الموحدين ومقرئا ببعض مدارسها (11) و أهم مؤلفاته كتاب "المسند الصحيح .

---

(1) البستان ، ص 167.

(2) نفسه ، ص 173. (3) نفسه ، ص 171

(4) البستان ، ص 166 وأيضا ، التعريف بإبن خلدون ، ص ص 64 –66 وأيضا ، نظم الدر ، ص 179.

(5) التعريف بإبن خلدون ، ص 63.

(6) بغية الرواد ، ج1 ، ص 109.

(7) الإحاطة ، ج1 ،ص 326 وأيضا ن لخضر عبدلي ، الحياة الثقافية للمغرب الأوسط في عهد بني زيان (633–962 هـ /1236 –1554)من دكتوراة دولة في التاريخ الوسيط ، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2004– 2005 ، ص 243.

(8) المسند الصحيح، ص 19.

(9) نفح الطيب ، ج5 ، ص 415 وأيضا ، التعريف بإبن خلدون ، ص 49–50.

(10) نفح الطيب ، ج5 ، ص 415.

(11) عبد الحميد حاجيات وآخرون ، الجزائر في التاريخ ، ج3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ن 1984 ، ص 442.

× عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 792 هـ / 1389م): من أكابر علماء تلمسان ومحققيهم، ولد سنة 748 هم ، نشأ حريصا على طلب العلم والاستزادة منه، قرأ على مشيخة تلمسان، ثم انتقل إلى فاس حيث أخذ عن الأستاذ النحوي أبي عبد الله بن زيد النجدي، وأبي عبد الله ابن حياتي وأبي عمران موسى العبدوسي، وأبي العباس القباب و الونشريسي، وأبي العباس ابن الشماع وغيرهم من الشيوخ والعلماء.(1) له مشاركة في العلوم العقلية والنقلية، دخل غرناطة فأخذ عن شيوخها وتوفي غريقا وهو عائد إلى تلمسان.(2)

× محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني (ت 818 هـ / 1415م) ولد و نشأ بتلمسان، وتعلم بها ثم انتقل إلى فاس سنة 805 هم لدراسة الفقه والتعمق فيه، وهو أول من أشاع فيها "مختصر خليل" ، وبها أخذ عن أبي موسى عيسى بن علال المصمودي الذي أجازه ودرس بمدرسة أبي عنان فارس، وعرضت عليه رئاسة الفقه بمدرسة العطارين، فاعتذر ورحل من فاس إلى مكناسة الزيتون فتوفى بها عام 818 هم (3)

× أبو يحيى عبد الرحمان بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 826 – 1422 م) : درس أبويحيى بتلمسان ثم توجه إلى فاس للاستزادة في التحصل والاحتكاك بعلماء فاس، فقرأ على والده، ودرس أصلي ابن الحاجب عن سعيد العقباني وكذلك التفسير والنحو والمنطق، وأخذ العربية عن ابن حياتي، فكان من طلاب العلم الذين ظلوا يشدون الرحال متنقلين بين الحواضر الإسلامية المغربية والمشرقية والأندلسية، من أجل الظفر بحضور المجالس العلمية التي كان يديرها كبار المشايخ والانتفاع من علمهم، متحملين مشقة السفر ومصاعب الطرق،(4) وقد نتج عن هذا الاختلاط والامتزاج تواصل فكري وتأثير ثقافي، وصارت المشيخة متبادلة ، فقد ذكر المقري أن تعداد أساتذة إبن الخطيب من بلدان المغرب ، بلغ أكثر من ثمانية وأربعين أستاذا كان قد تتلمذ عليهم فضلا عن أساتذته من الأندلس وكذلك ذكرا بن مرزوق الخطيب بأن عدد أساتذته بلغ مائتين و خمسين أستاذا من مختلف حواضر الأندلس و المغرب و المشرق....

× أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد (ت 842 هـ . 1438 م)، ولد بتلمسان سنة 766 هـ /1354 م ، ونشأ بها ينهل العلم عن والده و عميه إبن مرزوق و عن علماء عصره كأبي إسحاق المصمودي وأبي الحسن الأشهب الغماري وأبي محمد عبد الله الشريف التلمساني و سعيد العقباني ثم ارتحل إلى تونس فأخذ عن ابن عرفة ، وحج رفقته سنة 790 هـ وأخذ عن الشيخ القصار ثم توجه إلى المشرق فدخل مصر وأخذ عن أجله علمائها كأبي السراج البلقيني والزين الحافظ العراقي والفيروزيادي صاحب القاموس ، وابن هشام النويدي صاحب النهاية وغيرهم ، ثم سافر إلى فاس فأخذ عن مشايخها أمثال : إبن حياتي ، وأبي زيد المكوري ، والحافظ محمد بن سعود الفيلالي (5) اشهر بفضله وبعلمه في الأمصارالتي زارها حتى أحبته قلوب العامة والخاصة (6).

---

(1) البستان ، ص ص 117–120.

(2) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 303–304 وأيضا ، البستان ، ص 264.

(3) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 228 وأيضا ، محمد بن رمضان شاوش ، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995 ، ص 423.

(4) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 334.

(5) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 172 وأيضا عادل نويهض ، المرجع السابق ، ص 290–291 وأيضا معجم مشاهير المغاربة ، مرجع السابق ص 486.

(6) البستان ، ص ص 206–209.

× أبو عبد الله محمد بن محمد المقري: ولد ونشأ بتلمسان ، وبها درس علمائها أمثال إبني الإمام وأبي موسى عمران المشذاني ، وأبي محمد المجاصي ، وإبن هدية ، فأبي عبد الله التميمي ، رحل إلى بجاية وتونس وأخذ عن كثير من علمائها ثم توجه نحو المشرق ، فلقي بها أباحيان النحوي وشمس الدين الأصبهاني وإبن عدلان ثم رحل إلى الشام فلقي إبن قيم الجوزية وصدر الدين الغماري المالكي وغيرها. وأثناء الإحتلال المديني للمغرب الأوسط سنة 737 هـ ، اصطحب السلطان أبو الحسن جمع كبير من العلماء معه ، فأنتقل المقري إلى فاس ، فأخذ عن علمائها ، كأبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي وأبي العباس المكناسي ، ثم انتقل شمالا إلى سبتة ، وبعد رحلة إلى المشرق عاد إلى تلمسان ، ومنها توجه إلى الأندلس ، ثم رجع إلى المغرب الأوسط فصحب السلطان أبو عنان إلى فاس فولاه القضاء بها والتدريس إلى أن توفي بها سنة 759 هـ (1) فحمل إلى مسقط رأسه تلمسان ودفن بها.

× حمد بن مسن بن علي الخطيب بن قنفذ القسطيني : هو والد إبن قنفذ صاحب الفارسية ، ولد سنة 740هـ ، عاش متنقلا ما بين بجاية وإفريقية والمغرب الأقصى ، وزار الحجار (2) ، ومكث بالمغرب الأقصى ثمانية عشر عاما ، فحصل علوما كثيرة ، وقد إلتقى بالمغرب بالشريف أبي القاسم السبتي ، وأخذ عنه ، وقال في وفاته ، وبعد الثناء على علمه : " وبالجملة فهو ممن يحصل الفخر بلقائه "(3).

× أبو عبد الله محمد بن عمر بن عثمان بن منيع بن عياشة بن سيد الناس بن أمين الناس الغياري المغراوي الشهير بسيدي الهواري : هو فقيه متصوف ، زاهد متقشف ذائع الصيت في أقطار المغرب (4) ولد سنة 751 هـ / 1351 م بمغراوة ونشأ بها وأخذ علومه الأولى ، ثم إرتحل نحو بجاية فأخذ عن عبد الرحمن الوغليسي ، وأحمد إدريس ، ثم إنتقل نحو مدينة فاس ، وفيها أخذ عن الشيخ موسى العبدوسي المتوفي سنة 776 هـ (5) والشيخ القباب الذي أخذ عنه الكثير من العلوم الدينية والدنيوية ، ومن فاس إرتحل إلى المشرق للحج وزيارة حواضره العلمية للأخذ عن علمائه (6) ، كما أخذ عن الشيخ إبراهيم التازي المتوفي سنة 866 هـ الذي لازمه طويلا ، والشيخ أبركان من مخلوف المزيلي الراشدي ، وكان قد أخذ عنه الكثير من الطلبة خاصة عندما زار مدينة فاس ، حيث كانوا يقرؤون عليه القرآن والعربية والفقه ويتحدثون أنهم مارأوا وأبرك من قراءته توفي سنة 843هـ/ 1439 م .(7).

× علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود الخزاعي أبو الحسن التلمساني : من أسرة أندلسية ، ولد بتلمسان عام 710 هـ ، وبها نشأ وتعلم ، وقد برز في التاريخ والفقه والحساب فتنافس عليه ملوك المغربين الأوسط و الأقصى ، فأتخذه أولا السلطان إبراهيم بن علي المديني صاحب علامته ، ثم إنتقل إلى بلاط بني مرين كاتبا للأشغال قريبا لقلم الدولة ، ونال خطوة ما وصل إليها غيره من العلماء لدى الملوك ، توفي بفاس سنة 789هـ (8) ، كان قد ألف كتاب "تخريج الثلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعاملات الشرعية و أكمله786

---

(1) التعريف إبن خلدون ، ص 853-854 وأيضا ن البستان ، ص ص 154-160 وأيضا، نيل الإبتهاج ،ج1.ص 250 -255

(2) نيل الإبتهاج ، ج 1، ص 110 وأيضا عبد الحميد حاجيات، و آخرون ، المرجع السابق ، ج3، ص 441.

(3) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 110.

(4) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 192 وأيضا البستان ، ص 288 وأيضا عادل بويهض ، مرجع سابق ، ص 337

(5) نيل الإبتهاج ، ج2 ، ص 300.

(6) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 112 وأيضا البستان ، ص 228-229.

(7) البستان ، ص 228-229 وأيضا نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 192 وأيضا نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 192

(8) عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج2 ، ديوان المطبوعا الجامعية ، الجزائر ، 1982 ، ص ص 113 -115.

× إبراهيم التازي نزيل وهران : عالم أديب صوفي اسمه الكامل إبراهيم محمد بن محمد بن على ، نسبه في بني لنت من مضافات قبيلة التسول الزيانية ، وهم يتفرعون إلى ثلاثة بطون : الحرشة والخندق ومقورة : ولا يزال إسم ببني لنت معروفا قرب مدينة تازا ، حيث كان مولده بها في تاريخ ربما يرجع بها في تاريخ ربما يرجع إلىأوائل القرن التاسع الهجري وبنفس المدينة ، كانت نشأته ودراسته للقرآن الكريم على أستاذه الوازعي.

× وبعد هذه المرحلة الأولية فإن المصادر التاريخية لا تذكر شيء عن أساتذته بالمغرب ، ومن المؤكد أنه أخذ العلوم الدينية واللسانية ببلدته أو جهة أخرى من المغرب ، قبل أن يتم دراسته خلال رحلته للحج حيث تحصل على ثلاث إجازات من أساتذته .(1) ، وكان التازي قد تتلمذ على يد شيوخ كبار خارج المغرب وهم أبو الطيب الفاسي محمد بن أحمد بن علي المكي الحسيني الإدريسي (ت 828 هـ/ 1429 م) وأبو محمد الزواوي صالح بن محمد بن موسى الحسني الرياحي الدوكالي (ت 839هـ/1435 م) الذي لبس منه الخرقة القادرية و المدينية والشاذية وأبو الفتح المراغي محمد بن أبي بكر الحسين العثماني المديني (ت 859 هـ/ 1455) ، والعبدوسي عبد العزيز بن موسى بن معطي الفاسي نزيل تونس (837 هـ /1434 م) ، وإبن مرزوق الخفيد (2) (ت 842هـ /1439 م) ، وفي وهران إتصل بشيخه الذي طبع إتجاهه الصوفي ،و هو محمد بن عمر الهواري ،حيث لازمه نحو عشرة أعوام إلى وفاته سنة 843 هـ/ 1439 م) .وبعدما استقر التازي بوهران (3) يترسم النهج الصوفي لأستاذته ، ينشر فضائله وينسخ كلامه بخطه ، ويجمع متفرقة في دفاتر ، صار يفتتح مجالس إقرائه بتلاوة كتب شيخه فيمليها بتعبير مؤلفها ، ويفسر مجملها ويفتح مقفلها ، فنقل بذلك أهل مدينته عما كانوا فيه من التبدي إلى الحضارة وجلب إليها الماء من مسافة بعيدة بعدما كان قليلا بها ، فعظمت بذلك كل عمارتها ، و ارتحل إليها الكثير من الناس ولعل الزاوية التازية بوهران خير دليل على إنجازات هذا العالم المتصوف (4) روى عنه العديد من العلماء كالسنوسي محمد بن يوسف بن عمر التلمساني وإبن ذكري أحمد بن محمد المغراوي ، والراشدي نزيل تونس وأحمد حجي الوهراني (5) والقلصادي (6) الذي سجل اتصاله به وغيرهم كثير.

---

(1) محمد المنوني الشيخ إبراهيم التازي نموذج بارز للتبادل الثقافي بين المغربين 1519 م مجلة الثقافة ص ص 145 –148.

(2) ترجمته في نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص ص 293–299.

(3) محمد المنوني ، المرجع السابق ، ص 149.

(4) نفسه ، ص 149–150.

(5) البستان ، ص 140–141.

(6) القلصادي ، رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، 1978 ، ص 111.

ب) حركة الجدل والمناظرات العلمية:

إذا كانت الرحلة العلمية عاملا من عوامل تمتين الروابط الثقافية بين المدينين والزيانيين ، فإن المناظرات العلمية بين العلماء والفقهاء وكانت شكلا من أشكال التطور والتفوق العلمي ، ومسرحا لإثبات الذات وإبراز القدرات العلمية وإظهار الكفاءات وتأكيد استحقاق الإجازات التي منحت لهم من قبل المشايخة فكانت مظهرا من مظاهر الحركة الفكرية النشيطة التي سادت المغربيين الأوسط والأقصى خلال القرن السابع والثامن والتاسع الهجري (13،14،15م) ، إذ كانت تتم داخل الإقليمين وخارجهما ، مما جعلها عاملا أساسيا في توطيد العلاقات الثقافية بينهما ، وشكلا من أشكال التواصل الفكري والثقافي ، حيث جرت بعض المناظرات والمحاورات العلمية المكتوبة والشفوية بين فقهاء تلمسان وغيرهم من رجال الفقه المغاربة والأندلسين والمشارقة ، تناولت الفقه المالكي بالدرجة الأولى فضلا التفسير والتصوف وعلم الكلام واللغة وغيرها من المسائل الفقهية المطروحة للنقاش والجدال (1)

المطلب الثاني : حركة الجدل و المناظرات التي تمت بين فقهاء تلمسان وفاس: من أبرزها تلك التي وقعت بين أبي العباس أحمد بن قاسم القباب (ت778هـ/1376م) ، وأبي عثمان سعيد بن محمد العقباني التلماسي (ت811 هـ /1408 م) عندما كان هذا الأخير قاضيا بمدينة سلا وكانت تدور حول مسألة درهم الإعانة التي أثارها التجار بسبب الضرائب المخزية الثقيلة (2) ، جمع أبو العباس أحمد الخطيب الشهير بابن فنفذ القسنطيني (ت 810 هـ /1408) ، هذه المحاورة في كتاب سماه "لب اللباب في مناظرة العقباني والقباب" ذكر الونشريسي بأنها كانت متداولة بين رجال الفقه في تلمسان (3).

كما جرت مناظرة قصيرة حول عموم الرسالة النبوية ، وقعت بمراكش بين الإمام الشيخ أبي عثمان سعيد العقباني ، وأحد علماء اليهود كان يشتغل بمسائل علمية عديدة (4) وقد عقدت مناظرة أخرى بين أبي عثمان سعيد العقباني وأبي العباس القباب تتضمن مسألة من الإيلاء تتعلق بقضايا الطلاق (5)

كما شهدت تلمسان الزيانية صراعا فكريا دام أكثر من قرنين من الزمن بين فقهاء السنة ورجال التصوف ، ولعل ظهور هذه الظاهرة كانت في عهد الأديب الشاعر الصوفي المتفلسف محمد ابن خميس ، والذي تصدى له ولأفكاره بعض فقهاء تلمسان وعلى رأسهم القاضي ابن هدية القرشي (ت 737هـ /1337 م) والذي كان له حظوة ونفوذ سياسي وأدبي في الدولة الزيانية ، إذ أتهم إبن خميس بالكفر والزندقة (6) ، لأنه ألف الرسالة المسماة "بالعلق النفيس في شرح رسالة إبن خميس " ،وأرسلها إلى المشرف على مدينة فاس والقائم عليها آنذاك ، وأبي الفضل محي بن عتيق العبدري (7) يدافع فيها عن نفسه ويبرئها بعدما وضعه الفقيه الشريف أبو البركات (8)

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 412.

(2) موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 ، ملحق رقم 14.

(3) الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ج5 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981 ص 326.

(4) نيل الإبتهاج ، ج1 ، ص 306.

(5) الونشريسي ، المصدر السابق ، ج5 ، ص 326-331.

(6) المهدي البوعبدلي ، أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر العصور ونبذة مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها ، مجلة الأصالة، السنة الرابعة العدد 26 ، جويلية – أوت ، 1975 ، ص 131.

(7) نفسه ، ص 133.

(8) الشريف أبو البركات هو محمد بن علي الحسيني ، من فقهاء المالكية البارزين في فاس ، تولي الإشراف على مناظرة ، بن خميس ومحاكمة بفاس.

في خانة الكفر والضلالة إبان متوله أمام المحكمة الخاصة ، بمدينة فاس ، والتي حضرها قاضي تلمسان ، إبن هديته وشارك فيها ،وهو الذي كان يضمر الحقد الشديد لابن خميس حب خاطبه قائلا : " ولولا أن الأليق إيثار الأعراض من استتار مقاصدك السيئة ، لأومأت من ذلك إلى ما يوجعك مني التقاف ويرميك بثالثة الأقافي : فإنك من تناولك هذا السجال ، وتجوالك في ذلك المجال بين جهل فاضح أو كفر واضح فأخترو ما فيهما ...." (1) .

ثم راح يصف أجواء المحاكمة قائلا : "فاتفق أن اجتمع في بعض محالفها الحافلة ، ومجالسها العامرة ، بأهل الفصل ، الاهلة بطائفة من خذاق الأشعرية وجماعة من فقهاء المالكية كالشريف أبي البركات وغيرهم ، ففتحوا باب المذاكرة ، وسلكوا سبيل المناظرة ، وتفننوا في الكلام ، إلى أن أخذوا في علم الكلا م استدرا جا لإبن خميس واستخراجا لحب مذهبه الفلسفي الحسيس "(2) .

فوقف ابن خميس موقف الشجعان ، حيث دافع عن آرائه ، وأفكاره ببلاغة وبحجج قاطعة ، أفحم خصومه حتى لم يبق في المناظرة إلا إبن هدية أبو البركات ألد خصومه و كان ابن خميس يصمت في بعض الأحيان أثناء المحاكمة، لا لأنه مدحوض الحجة كما وصفه ابن هدية ، وإنما تفطن للكمين الذي نصب له من قبل خصومه (3) ، وانتهت المحاكمة بإصدار حكم الإعدام ضد إبن خميس إلا أنه تمكن من النجاة بالفرار إلى تلمسان مسقط رأسه التي عاش فيها ، في عزلة وانزواء يترقب مرور الأخطار التي كانت تحيط به ، من المراقبة الشديدة التي كانت مفروضة عليه وقد وصف حالة الظلم والإضطهاد التي عاشها في العديد من أشعاره (4) ، حيث عاش مجهولا بين أهله.

---

(1) المهدي البوعبدلي : أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني مجلة الأصالة ، العدد 49 ، سبتمبر – أكتوبر ، 1977 ، ص 8 وما بعدها.

(2) المهدي البوعبدلي ، أهم الأحداث الفكرية ...، ص 131.

(3) نفسه ، ص 131 –132.

(4) للإطلاع على هذه الأشعار أنظر الإحاطة ، ج2 ، ص ص 550 –556

المطلب الثالث : الآثار المدينية في تلمسان ودورها في توطيد العلاقات الثقافية:

ويضاف إلى كل ذلك عامل آخر ساهم بشكل كبير في توطيد العلاقات بين بني زيان وبني مرين وهو تلك المنشآت الدينية والتعليمية والمدنية والعسكرية التي خلفها بنو مرين في تلمسان والتي خلدت وجودهم فيها ،حيث كانت شواهد على اهتمام أمراء مرين بالعمارة والإنشاء ، من مساجد ومدارس وقصور وغيرها ، وكلها تحمل معاني الإبداع وروح الإبتكار الموجودة لدى الفنان المريني ، لما نلمسه في هذه العمائر من إحساس مرهف ورقة في العمل ، كما يعطينا فكرة واضحة عن تلك المنافسة الفكرية والثقافية التي لازمت الجارتين ، والتي كانت الوجه الآخر لذلك الصراع السياسي الذي كان دائرا بينهما والذي لم يكن أمرا سلبيا كله بل يحمل في طياته الكثير من المنافع ، ولعلها تلك الآثار الخالدة التي حظيت بها مدينة تلمسان ، والتي تلتها حركة علمية وثقافية مشهورة لذلك العهد ، كانت قد مهدت لها الدولة الزيانية من قبل وساهمت بشكل كبير في تقوية الروابط والعلاقات الثقافية بين الزيانيين والمرنيين ، حيث أن هذه المؤسسات الدينية والتعليمية احتوت كبار العلماء والفقهاء والأدباء ، الذين تتلمذوا فيها و تخرجوا منها ، حاملين أكبر الإجازات العلمية كما كانت تستقطب طلبه من مختلف البقاع خاصة من المغرب الأقصى والذين ساهموا في نشر العلوم بألوانها نتيجة لذلك الاحتكاك والتقارب بين علما بني زيان وبني مرين ، وتبادل العلوم والمصنفات والمناظرات التي كانت تقام في هذه المؤسسات التعليمية ومن أهمها المساجد والمدارس. (1)

1) المساجد: لم يترك المرنيون إلا ثلاثة مساجد بتلمسان ، وهي توجد في أطراف المدنية لا أحد ينفي روعة عمارتها ورونقها وجمال زخرفها وعظمة دورها التاريخي في نشر الدين والعلم واستقطاب العلماء وهذه المساجد هي:

أ- مسجد المنصورة : يذكر إبن خلدون أن منشئ هذا المسجد هو السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق وذلك سنة 702 هـ /1302 م ، أثناء الحصار الذي ضربه التي يبلغ ارتفاعها 38 م ، مما يجعلها أعلى مئذنة شيدت في الجزائر وهناك لوحة أعلى مدخل هذه المئذنة منقوشة نشرها بروسلار جاء فيها : "الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر بناء هذا الجامع المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين الرحوم أبو يعقوب بن عبد الحق رحمه الله " وقد بني هذا المسجد من الطوب المدكوك على مساحة تقدر ب 5600 م2 وله 13 بابا .(2).

ب- مسجد سيدي أبي مدين : شيده السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المديني سنة 739 هـ /1339 م بقربة العباد (3) ، وأعطاه اسم ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسن أحمد منصوفي المغرب الإسلامي والأندلس والمتوفي سنة 594 هـ (4) ، وقد أشرف على بنائه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق عم إبن مرزوق الجد صاحب المسند ، وهذا المسجد آية في الجمال والروعة ولا يزال بهجة للناظرين وآية من الفن المغربي الأندلسي وقد كتب على أحد سيجان الأعمدة بخط أندلسي : " هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين أبو الحسن إبن مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب " التاج الأيمن ، أما في التاج الأيسر كتب : " إبتغاء وجه الله العظيم ورجاء توابه الجسيم " (5) .

---

(1) عبد الرحمن إبن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص 458 -459.

(2) صالح بن قربة ، المئذنة المغربية والأندلسية في العصور الوسطى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ص 115-116.

(3) العباد ، مفردها عابد ، أطلقت على هذا المكان منذ القديم لوجود مقبرة دفن بها الكثير من الفقهاء والعلماء ، ويمثل هذا المكان حاليا الضاحية الشرقية لمدينة تلمسان.

(4) هو شعيب بن حسين الأنصاري الأندلسي ، من حصن قطنيانة من أحواز إشبيلية ، توفي سنة 594 هـ ، ودفن بتلمسان أنظر : البستان ص ص 108 -114 وأيضا ، نظم الدر ، ص 145-146 وأيضا ، بغية الرواد ، ج1 ، ص 126.

(5) محمد بن رمضان شاوش ، المرجع السابق ، ص 296.

ج – مسجد سيدي الحلوي : تم تأسيس هذا المسجد بأمر من السلطان المديني أبو عنان فارس سنة 754 هـ /1353 م ، كما ينص على ذلك النقش التأسيسي الذي يعلو واجهة المدخل الرئيسي للمسجد وفيما يلي نصه : " الحمد لله وحده ، أمر بتشيد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبو عنان فارس إبن مولانا السلطان أبي الحسن علي بن مولانا السلطان أبي عثمان بن مولانا أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام أربع وخمسين وسبعمائة " (1)

وقد شيده تخليدا لذكرى وفاة العالم الشهير والمنصوف المعروف الشيخ الولي أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي نزيل تلمسان المتوفى سنة 737 هـ/ 1337 م. وصفه ابن الحاج النميري كاتب السلطان أبي عنان فارس قائلا : " وكم أبقى (يقصد أبي عنان) بتلمسان من آثار حسان ومصانع يعجز عن وصفها كل لسان ... وهذا أجمل الجوامع قد أحكمت فيه أنواع الصنائع، وأبدى الإحتفال به ما شاء من البدائع ..." (2)

2) المدارس:

ومن حسن الحظ فإن المدارس التي بناها آل مرين لم تعرف نفس المصير الذي عرفته المدارس الزيانية ، فلا تزال مثلا مدرسة العباد قائمة إلى يومنا هذا تعاني صروف الدهر وإهمال الإنسان ، ومن أهمها مدرسة سيدي أبي مدين بالعباد ومدرسة ،والتي تخرج منها عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء الذين أثروا الحياة الثقافية في المغرب الأوسط

أ– مدرسة أبي مدين بالعباد : قام بتشييدها السلطان أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني ، عندما استولى على تلمسان سنة 737هـ /1337 م .بقربه العباد 92 فوق ربوة مطلة على تلمسان إلى جانب روضه .أبي مدين سنة 747 هـ /1347 م أي بعد انشائه للمسجد بثماني سنوات ، وقد أشار إلى ذلك إبن مرزوق بقوله : " وبالعباد ظاهر تلمسان وحذاد الجامع أنشأ مدرسته و بالجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب إختلاف البلدان ...." (3) ، وقد سميت هذه المدرسة أيضا بإسم المدرسة الخلدونية في وقت متأخر، ربما بسبب ما أنجبته من فطاحل العلماء كعبد الرحمن بن خلدون الذي درس بين جدرانها. وقد ظلت هذه المدرسة قائمة تصارع عوادي الزمن بالرغم من أن كثيرا من زينتها وزخرفتها الأصلية قد اندثرت بفعل الترميم والإصلاحات التي أدخلت عليها على مر العصور فأفقدتها كثيرا من أصالتها (4)

ب– مدرسة سيدي الحلوي : أسست هذه المدرسة من قبل السلطان المريني أبو عنان فارس بعد خمس سنوات من بناء أبي الحسن لمدرسة العباد ، فاختار لها موقعا منحذرا يشغله حي سكني ، بالقرب من ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي الملقب بالحلوي الذي يقع شمال المدينة ، حيث يوجد المسجد. وبهذا الحي شيد أبوعنان مجموعة بان تخليدا لذكرى العالم الجليل سيدي الحلوي وتتكون هذه المجموعة من مسجد ومدرسة وزاوية وضريح وكانت الزاوية والمدرسة قائمتين حتى أوائل القرن 10هـ /16 م فقد ذكرها إبن مريم في ترجمته الفقيهين سيدي أحمد بن عيسى الورنيدي المعروف بأبركان ، وأحمد بن الحسن الغماري (ت 894 هـ/1489 م) (5)

---

(1) عبد العزيز فيلالي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 148.

(2) عبد العزيز لعرج ، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الآثار ، جامعة الجزائر 1998 –1999 ص 237

(3) يذكر الحسن الوزان بأن: العباد قرية عتيقة تقع في الجنوب الشرقي من تلمسان ، وهي كثيرة الازدهار ، وافرة السكان والضياع ، بها دفن ولي كبير ذو صيت شهير وهناك مدرسة جميلة جدا ... أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين أنظر ، الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج2،بيروت 1983 ، ص 24.

(4) عن مجموعة منشآت أبي الحسن بالعباد أنظر : أبن مرزوق ، المصدر السابق ، ص 400 وما بعدها

(5) عبد العزيز لعرج : المرجع السابق ، ص 317–318.

(6) بغية الرواد ، ج1 ، ص 127–128 وأيضا البستان ، ص ص 68 ، 70 .

الفصل الثالث : العلاقة الإقتصادية بين المرنيين و الزيانيين

المبحث الأول: الواقع الإقتصادي لدولة بني عبد الواد الزيانية

المبحث الثاني: الواقع الإقتصادي لدولة المرينية

المبحث الثالث: العلاقة الإقتصادية بين بني عبد الوار وبنو مرين

المبحث الأول : الواقع الاقتصادي لدولة بني عبد الواد الزيانية :

يعتبر الاقتصاد عصب الحياة لأي حضارة، وعامل أساسي لاستمراريتها لأنه يمثل تحديا يوميا للإنسان، وهو يشمل في معناه تدبير المعاش وإنماء الثروة بكل أنواع الكسب والاحتراف مهما تعددت الألوان واختلفت المظاهر من جميع أنواع المهن والصناعات، وما تقتضيه المعاملات التجارية بين الناس من تباين المتاجر والأسواق، والدافع في ذلك هو رد الاعتبار، وجلب الرفاهية.'(1)

المطلب الأول :الزراعة

كان النشاط الزراعي لدولة بني عبد الواد هو العمود الفقري لاقتصادها، فكان تحترف هذا النشاط نسبة كبيرة من سكان القرى والمدن(2) ، ويقول صاحب الاستبصار عن البلاد الزيانية،" وللمغرب الاوسط مدن كثيرة وهي كثيرة الخصب والزرع، وكثيرة الغنم والماشية طيبة المراعي....) (3)

1-مقومات الزراعة

لقد حظي المغرب الاوسط بموقع طبيعي واستراتيجي ممتاز، وقد زادت هذه الأهمية في عهد دولة بني زيان وعاصمتها تلمسان .(4) لتمتعها بإمكانيات جعلت منها إقليما فلاحيا. منها وفرة مصادر المياه المتمثلة في العيون والينابيع والأنهار(5) وهذا ما نستشفه من خلال قول الشريف الإدريسي حينما يصف تلمسان قائلاً" :ولها نهر يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين، وهذا الوادي يمر في شرقي المدينة، وعليه أرجاء كثيرة، وجوارها من المزارع كلها سقي(6)، ويشار إلى الوديان آنذاك كواد ملوية وتافنة إلى جانب نهر شلف ، ومن العوامل كذلك توفر الأراضي الزراعية الخصبة، لوقوع تلمسان ضمن المغرب الأوسط، فالسهول تنتشر في ربوعها، وهي على نوعين :ساحلية وأهمها وجدة غربا، وإلى الشرق نجد على الترتيب سهول هنين وندرومة وتنس و متيجة، وهي تتكون من تربة فيضية خصبة ، وأخرى سهول داخلية تتمثل أساسا في تلمسان، وسهل سيدي بلعباس. وتتخلل هذه السهول هضاب وجبال متفاوتة الارتفاع، تشكل فضاءاً طبيعيا مفتوحا ، إلى جانب ذلك نجد من العوامل التي ساعدت على نجاح الزراعة، الظروف المناخية السائدة في المنطقة انعكس بشكل واضح على سكانها ودفعهم إلى ممارسة حرفة الفلاحة كحرفة رئيسية(7) إن وقوع المنطقة ضمن المناطق المعتدلة ساعد كثيرا على نجاح الحياة النباتية والحيوانية، إذْ تنتمي إلى إقليم مناخ البحر الأبيض المتوسط، فشمالها يمتاز بغزارة الأمطار واعتدال الحرارة، فقد مثلت جبال الأطلس التلي خزانات تمد مجموع الأودية التي كانت تروي حقول وبساتين المنطقة، وهذا ما تجسد من خلال وصف لسان الدين ابن خطيب لتلمسان، إذ يقول" :وهوائها الممدود صحيح عتيد ومائها برود.....)

---

(1) عبد الرحمن الجيلالي ، مرجع السابق، ج 2 ص 213.

(2) حسن الوزان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 14

(3) مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1976 ، ص179

(4) بن عميرة لطيفة، الاوضاع الاقتصادية في الإمارة الزيانية، مجلة الدراسات التاريخية، العدد8 ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1994 ، ص71 .

(5)ابن سعيد أبي الحسن المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط 02 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982 ، ص12.

(6) – الإدريسي، المصدر السابق، ص – 176 ص177

(7) مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، الاحوال الاقتصادية والثقافية، ج2 ، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009 .، ص24

2-المحاصيل الزراعية

أ-الحبوب :

ساهمت الظروف الطبيعية بتضاريسها، ومناخها بجعل منطقة المغرب الاوسط منطقة فلاحية بالدرجة الاولى، يتنوع فيها الإنتاج من منطقة لأخرى، ونجد في المقام الأول الحبوب خاصة القمح والشعير (1) وتعتبر هذا الاخير(الحبوب)من اكثر المزروعات سيادة لأنها المزروع الغذائي الرئيسي سواء بالنسبة للعائلة أو الحيوانات في الزراعة(2) كما أن زراعة الحبوب لا تتطلب أعمال مما ييسر امر زراعتها في كل مكان، بالإضافة إلى الإمكان تخزينها(3)، وقد كان يرتكز إنتاجها في السهول الموجودة في أسفلها ، فنجد القمح ينتشر في ، سهل تسالة بتلمسان، وسهل البطحاء قرب وهران وسهل تنس ومتيجة، حتى انه يفيض عن الحاجة فيخزن بعضه لوقت الشدة، وتصدر منه كميات إلى الأندلس وغيرها (4) ، أما الشعير و الذرة فيزرعان في المناطق الداخلية وفي الجبال مثل جبل يزناسن ° وجبل مطغرة وجبل بني بوسعيد ، في حين نجد الحنطة حول أرزيو وتنس

ب -الفواكه والخضر :

ازدهرت غراسة الأشجار المثمرة وهذا مما لقيته من عناية واهتمام، فقد كان سكان المغرب الاوسط يهتمون بالبساتين ويغرسون مختلف الفواكه، ومن بين هذه الأشجار المثمرة شجرة الزيتون المباركة التي تعتبر من الأشجار الضرورية لتعدد فوائده، ومن المنتجات الأخرى نجد الكروم في ضواحي تلمسان والكرز والتين والخوخ والجوز واللوز والبطيخ وال خ رُّوب، وهذا الاخير يعتبر غذاءاً أساسيا للسكان في جبال بني يزناسن ومطغرة، إلى جانب الفواكه نجد زراعة الخضر التي تعتمد على الري كالفول والخس واللفت والخيار وغيرها (5) ، إضافة إلى ذلك هناك منتجات زراعية صناعية كالقطن في ندرومة وهنين (6)

ج-الثروة الحيوانية

لقد ذكر صاحب الاستبصار أن بلاد المغرب الاوسط كثيرة الغنم والماشية، طيبة المراعي(7) ، إذْ تحتل تربية الحيوانات والرعي مكانة أساسية في النشاط الفلاحي اليومي للسكان لما يوفره ذلك من غذاء دائم، ومواد أولية للصناعة، وكذا استخدامها في عملية التنقل والأسفار والحروب .ومن اهمها الأغنام التي تربى خصوصا في الهضاب العليا جنوب تلمسان والماعز في الجبال مثل :جبل بني بوسعي(8)

---

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996 ، ص78

(2) خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن :دراسة تاريخية وحضارية 633 (هـ 689 /هـ) - 1235 .م 1282 /م)، ط1 ، المكتبة الوطنية، الجزائر، 2005 ، ص229

(3) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ، ص12 .

(4) ابن حوقل، المصدر السابق، ص78

° جبل يزناسن :يقع على بعد 50 ميلا غرب تلمسان، جبل مطغرة شاهق الارتفاع على بعد 6 أميال من ندرومة، جبل بنو سعيد يجاور مدينة تنس، ينظر حسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ، ص - 43 ص4.

(5) حسن الوزان، المصدر نفسه، ج2 ، ص – 14 ص15

(6) لطيفة بن عميرة، المرجع السابق،عدد8 ، ص72

(7)مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار...، المصدر السابق، ص180

(8) حسن الوزان، المصدر نفسه، ج2 ، ص45

ويستهوي نشاط تربية المواشي القبائل العربية كبني هلا المستقرين في السهوب، ومازالوا إلى اليوم يتبعون نفس الانماط التي كانت سائدة خلال عهد الدولة الزيانية، أي انتقال بالأغنام في رحلة من الشمال إلى الجنوب عند الهوامش للصحراء شتاءاً، في حين ينتقلون صيفا بقطعانهم إلى السفوح الجنوبية للسلسلة الأطلس التلي(1) ومن الحيوانات كذلك نجد الأبقار التي تكثر تربيتها بالمناطق الشاملة حيث المراعي دائمة الخضرة، وفي الهضاب العليا تربى البغال للترحال والركوب، والخيل للحروب(2) ومن أهم النشاطات الفلاحية الاخرى نجد كذلك صيد الأسماك على سواحل البحر الابيض المتوسط (3)

المطلب الثاني :الصناعة.

لقد ظهرت ببلاد المغرب الأوسط صناعات عديدة إذ كانت تختلف من مجتمع إلى آخر باختلاف درجة التطور، فصنائع المجتمع البدوي تختلف عن صنائع المجتمع الحضري، حيث تتركز في الاول حول توفير الطعام والخيام وبعض الأدوات التي تستعمل في توفير الأمن للناس، ويختلف الأمر بالنسبة للمجتمع الآخر أي المتطور، فقد اشتهر بنشاط ومهارة الّصُناع، وكانت هناك مراكز صناعية منتشرة عبر أنحاء بلاد الدولة الزيانية

1-عوامل ازدهار الصناعة

توفرت مجموعة من العوامل والمقومات كانت كفيلة بازدهار الحياة الاقتصادية في شقها الصناعي ومن اهمها:

الدور الذي قام به سلاطين بني زيان في تشجيع وتطوير الصناعة، والعمل على إشاعة الأمن بعموم البلاد، وكان منه أيضا توفير الأمن حتى داخل المجالات الاقتصادية الحيوية من أهمها الاسواق، وذلك خلال مراحل الرخاء (4) ، وهذا بالرغم مما شهدته هذه المرحلة من ضغوطات وأوضاع أمنية متردية، تكررت فيها تدخلات بني حفص وحملات بني مرين وتمرد القبائل المختلفة(5) فنجد أبا تاشفين حمو رغم جنوحه إلى الملذات ولهو الدنيا، إلا أنه كان مولعا بتشييد

المصانع (6) ، وأبي حمو موسى الثاني كانت دار الصناعة نموذج في عهده بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم(7) ، ومن العوامل التي ساهمت كذلك في ازدهار الصناعة إلا في العهد الزياني، فالظاهر أن بلاد المغرب الأوسط كانت أوفر حظا في بلاد المشرق إذْ اشتهرت بثرواتها المعدنية الضرورية لقيام الصناعة(8)، فنجد تواجد الحديد بجبال(تفسره)جنوب تلمسان والزنك بجبل الونشريس، اما الثروة النباتية فنجد أن القطن والزيتون والحلفاء والخشب بالإضافة كذلك إلى الحيوانية كالجلود من الأبقار والماشية (9) ومن العوامل كذلك الهجرات الأندلسية التي جاءت تبعا لأحوالها السياسية الداخلية والخارجية، ومدى توفر الأمن في بلاد المغرب وحسن الاستقبال فيها .حيث شهد القرن07 هجري استيلاء المسيحيين على بلاد المسلمين في الأندلس، والكثير من مدنها فانطلقت هجرات كثيفة منها صوب بلاد المغرب، حيث تركز الوجود الأندلسي في المدن الكبر (10)

---

(1) مختار حساني، المرجع السابق، ج2 ، ص 40

(2) حسن الوزان، المصدر نفسه، ج2 ، ص 264

(3) يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج1 ، ص92

(4) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب، تحقيق :محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (1985، ص55)

(5) رشيد بورويبة وآخرون، المرجع السابق، ص381

(6) يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج 01 ، ص 140

(7) التنسي، المصدر السابق، ص 162

(8) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، منشأة المعارف، ص 99.

(9) .حسن الوزان، المصدر السابق، ص25 –ص 45

(10) عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس 626 (هـ 981 /هـ 1228 .) – م 1573 /م)، رسالة ماجيستر(غير منشورة)، القاهرة، 1411 هـ 1991 /م، ص30 .

وخلال العهد الزياني وخاصة خلال مراحل الازدهار، حيث تميزن مدن المغرب الاوسط بحركتها الاقتصادية ما شجع الأندلسيين على النزول اراضي المغرب الاوسط، ومنها مثلا تلمسان، بحيث كان من بينهم عدد كبير من الفلاحين والصناع والحرفيين فأسسوا مصانع ومناجم كثيرة(1) وكذلك من ابرز العوامل اتساع نشاط الحركة التجارية، فلقد سارت القوافل محملة بالسلع والبضائع في جميع الاتجاهات، وهذا بدوره ينعكس على الصناعة، إذْ أن تصريف السلع يعني صناعة سلع جديدة، في حين أن كسادها يعني توقف الحركة الصناعية(2) إن هذه العوامل مجتمعة ساعدت على قيام صناعة مزدهرة في بلاد الدولة عبد الوادية.

2-أنواع الصناعات

ومن الحرف والصناعات التي ظهرت واشتهرت بالمغرب الأوسط في العهد الزياني، والتي مونت التجارة وشكلت نسبة هامة ضمن قائمة الصادرات، وغطت جزءاً هاما من الواردات :

أ-صناعة النسيج: تخصصت بعض مدن المغرب الأوسط في نوع معين من الصناعات، فالصناعة النسيجية انتشرت بالمدن والأرياف، ومنها العباذْ (°) ، التي قال عنها حسن الوزان" :العباد...وافرة السكان ...والصناع، ومعظمهم من الصباغين، وعن مدينة ندرومة يقول ايضا : " وندرومة اليوم مزدهرة بكثرة الصناع فيها، وينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية " ، وعن مدينة هنين يقول : عنها مارمول كرذخال "تصنع فيها أقمشة جميلة وأنسجة أخرى من القطن (3)، وقد يكون هذا التخصص عائدا إلى طبيعة المدينة نفسها وتوارث الحرف وانتقالها بين الأجيال .وكذلك نجد صناعة الحرير في شرشال.(4)

ب -صناعة الفخار: تمثل هذه الصناعة المرتبة الثانية بعد حرفة النسيج، وقد عُرِفتْ ندرومة ببلدة القدور. وقد ازدهرت هذه الصناعة نتيجة استعمالها من قبل كل الطبقات الاجتماعية سواء أواني الاستعمال المنزلي من كؤوس وأقداح وأطباق وأباريق، أو أواني حفظ المؤونة أو السيول كالزيوت والسمن وغير ذلك من المواد السائلة.(5)

ج -صناعة الجلود: وجدت رواجا كبيرا من قبل سكان الدولة الزيانية، وتكاد تكون في أغلب مدن وبوادي المغرب الأوسط، وهذا ما يؤكده عبد الرحمان ابن خلدون بقوله..." :فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة إلا ما كان من صناعة الصوف في نسجه، والجلد في فرزه ودبغه، فأنهم لم استحضروا بلغوا فيها المبالغ، لعموم البلوة فيها، وكون هذه السلع في قطرهم(6) " ...وقد صنعوا من الجلد سروج الخيل والأحذية وقِربْ الماء، وكان للجلد المدبوغ أهمية خاصة في كتاباته كما اشار ذلك المقديسي (7) ولقد كان سعر الجلود تختلف بين المدن الزيانية فقد بيع في دينة مستغانم 730 هـ 1331 /م مئة وأربعون من جلود الثيران بمئة دينار، بينما الخرفان جلدها أرخص(8)

---

(1) عبد الحميد حاجيات :تطور العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط، مجلة :عصور جديدة، العدد، كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2011 ، ص - 38 ص 39

(2) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص23

(°) العَبَّا د : مدينة صغيرة شبه ريف، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، وقد دفن بها ولي كبير ذو صيت شهير يسمى سيدي بومدين، ينظر حسن الوزان، المصدر السابق، ج 01 ، ص

(3) مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ، ص - 296 ص29

(4) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ،ص 14- ص24 .

(5) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص239

(6)عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ج7 ، ص507

(7) المقديسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق :محمد محزوم، دار إحياء التراث، بيروت، 1987 م، ص 120

(8) لطيفة بشاري، التجارة الخارجية لتلمسان في العهد الإمارة الزيانية في القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين، رسالة ماجيستر(:غير منشورة)، جامعة الجزائر، 1987 م، ص2.

د –الصناعة الخشبية: عرفت هي الأخرى تطورا ملحوظاً، وكان من مصنوعات سكان الدولة العبد الوادية من الخشب، الخزائن والأبواب والنوافذ، ويبدوا أنها كانت متأثرة بالصناعة الأندلسية (1). كما صنع سكان المنطقة أوعية خشبية التي تستخدم في نقل الحليب. ومن بين الآثار الباقية التي تبرز لنا صناعة الخشب وتطورها تلك(الثريا) التي ، أهداها يغمراسن بنو زيان إلى مسجد تلمسان، ويحتفظ متحف المدينة ببقايا منها حاليا ، ومن الصنائع الخشبية نجد صناعة الأواني الخشبية في مليانة (2) إلى جانب مراكب الصيد من سفن وقوارب، بالإضافة إلى الأسلحة الحربية والأقواس التي تصنع من شجرة الزان خاصة (3) وفي ذكر ابن أبي الزرع في كتابه الأنيس المطرب، أن مرسى وهران وهنين اشتركا مع تونس في صنع مئة قطعة(سفينة) ،(4) وهذا لا يعني الشراكة في الصناعة وإنما في العدد فقط.

هـ –الصناعة المعدنية: أولى سكان بلاد المغرب الأوسط في العهد الزياني اهتمامهم بمختلف الصناعات، لاسيما وأن المنطقة كانت تزخر بشتى أنواع الثروات الطبيعية منها والمعدنية (5) . فنجد خام الحديد والفولاذ قرب هنين ووهران، ومن أهم الصناعات المعدنية كانت صناعة الحديد التي استخدمت في العديد من الصناعات مثل :صناعة الأسلحة التي شملت السيوف وغيرها من أدوات القتال، كما صنع منه أبواب المدينة وتحصيناتها إلى جانب ذلك تم استخدامها في الأدوات البسيطة كالسكاكين ومقابض الأبواب والفؤوس والمحاريث وغيرها(6) ، ومن بين المدن التي كان سكانها يشتغلون بها مدينة تفسرة، التي قال عنها حسن الوزان":تقع على بعد نحو خمسة عشر ميلا من تلمسان، فيها حدادون كثيرون...أهلها لا يشتغلون بغير خدمة الحديد ونقله إلى تلمسان(7) ، أما صناعة المعادن الثمينة ذهبا أو فضة كانت دوما من اهتمامات اليهود (8)، وقد استخدموا من معدن النحاس الكثير من الأدوات كالحلي (9)

و –صناعة مواد البناء: تطورت صناعة مواد البناء في عهد الدولة الزيانية لوفرة الأيدي العاملة الأجنبية ،وقد شهدت هذه الصناعة رواجا وتطورا في عهد العاهل الزياني يغمراسن، مثل الآجر والقرميد اللذان بنيت بهما المساجد الدولة العبد الوادية، في حين قام السلطان يغمراسن (بتشييد مئذنة مسجد(أقادير)استكمل الجزء الأعلى منها بالآجر الأحمر(10) ، ويمكن القول أن النشاط الصناعي قد عرف في أواخر الدولة الزيانية ازدهارا كبيراً نتيجة الهجرة الأندلسية إلى مدنها بالمغرب الاوسط، لكن الخبرة الصناعية لم تعد تقتصر على الأندلسيين، بل برز عدد كبير من الصناع في مختلف الصناعات(11) والذي قال عنها ابن الحاج النميري...ومصانع يعجز عن وصفها لسان ...قد أحكمت فيها أنواع الصنائع"(12)

---

(1)مختار حساني، المرجع السابق، ج 02 ، ص25

(2) عطاء الله دهينة وآخرون، المرجع السابق، ص364

(3) حسن الوزان، المصدر السابق، ج 03 ، ص36

(4) جودت عبد الكريم يوسف، الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الاوسط، خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، 09 (م 10 /م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1982 ، ص11

(5) ابن أبي زرع الفاسي، الانيس المطرب بروض الفرطاس في معرفة ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، إشراف :عبد الوهاب بن منصور، ط2 ، ج3 ، المطبعة الملكية، الرباط، 1999 م، ص – 164 ص165.

(6)الإدريسي، المصدر السابق، ج1 ، ص 115

(7)مارمول كربخال، المصدر السابق، ج 02 ، ص 93

(8) مختار حساني، المرجع السابق، ج 02 ، ص98

(9) حسن الوزان، المصدر السابق، ج 02 ، ص 24

(10) عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان خلال الثلثين الاول والثاني من القرن 14ميلادي، منشورات تالة ، الجزائر،2011، ص31

(11) جودت عبد الكريم يوسف، المرجع نفسه، ص116

(12) مختار حساني، المرجع السابق، ج2 ، ص9

المطلب الثالث : التجارة (°)

يرى ابن خلدون أن الإنسان مدني بطبعه، فهو بحاجة إلى الآخرين من اجل اقتناء ضرورياته على الأقل، فإذا كان فلاحا فهو بحاجة إلى النجار والحداد وغيرها، وهكذا فرضت الحاجة في كل قرض أن يقايض القائض بما يملك سلعة أخرى هو بحاجة إليها(1)

أولاً :عوامل ازدهارها: احتلت الدولة الزيانية مكانة قيادية في التجارة بالمنطقة لما تتمتع به من خصائص جغرافية واقتصادية، والمتجلية في:

1-العامل الجغرافي: كانت تلمسان عاصمة دولة بني زيان بحكم موقعها المنتهي والمنطلق في نفس الوقت لطرق التجارة (2)، النقطة التي تلتقي فيها الطرق التجارية الرئيسية التي تربط افريقية بالمغرب الأقصى من جهة، ومن البحر الأبيض المتوسط والصحراء من جهة أخرى .مما أهل الدولة الزيانية لتتحكم في طريق القوافل التجارية، منها الطريق العابر للمغرب الإسلامي الذي ينطلق من الأندلس نحو المشرق الإسلامي، فكانت الطريق المفضل لأغلب الرحالة المغاربة الذين وصفوا الأحوال الاقتصادية للدولة مثل : العبدري وابن بطوطة ثم حسن الوزان في بداية الرقن العاشر هجري الموافق ل السادس عشر ميلادي (3) إلى جانب ذلك نجد أن موقع مدينة تلمسان كأبرز حواضر المغرب الأوسط، جعلها تتحكم في الطريق الوحيد الذي يربط بين المغرب الأقصى والأوسط يمر عبر تازا (°) ، دون إغفال أهمية باقي مدن المغرب الأوسط الأخرى من الناحية الاقتصادية(4) كما أن اختلاف التضاريس الطبيعية والأحوال المناخية في البلاد اقتضى وجود اختلاف في الإنتاج الزراعي بين منطقة وأخرى، ويبرز هذا الاختلاف بوضوح بين شمال الدولة وجنوبها بل ومن ناحية لأخرى، فقد اشتهرت كل ناحية بسلعة، أكثر من غيرها، فكان هذا التباين عاملاً في سيلان البضائع من الأماكن ذات الوفرة والإنتاج الفائض، إلى أماكن التي تعاني نقصا وحاجة إليها.

ب -العامل الاجتماعي: يظهر تأثير الحياة الاجتماعية على الحياة التجارية من خلال التباين الاجتماعي الذي تحدده طريقة المعيشة (5) ، وقد عمل بمهنة التجارة عدد كبير من سكان مدينة تلمسان، حتى أنهم كونوا طبقة خاصة من التجار وتميزت بلباسها الخاص عن باقي الأفراد،... ويرتدي التجار الحضريون لباسا جميلاً يكون أحسن أحيانا من لباس أهل فاس لأنهم حقا أكثر أناقة وسخاء(6) ، وقد اعتبروا(طبقة التجار)من ابرز الطبقات المؤثرة في المجتمع الزياني، لحرصهم الشديد على تزويد المدن بالمؤن الضرورية على أحسن وجه، مما جعلهم أوفر غنىً وأملاك (7) ونجد من أشهر الأسر التجارية أسرة المقري، خاصة الإخوة خمس الذين جمعوا ثروة كبيرة في القرن 09 هـ 15 /م، نظير نشاطهم وعلاقاتهم الواسعة مع ملوك عصرهم في ، تلمسان وبلاد السودان(8)

(°) التجارة :عرفها ابن خلدون بأنها محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء، أيا كانت السلعة وذلك القدر النامي (يسمى ربحا ، ينظر :المقدمة، ص45)

(1) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص241

(2) المرجع السابق، ص) 477

(3) مختار حساني، المرجع السابق، ج2 ، ص8

(°) تازة :مدينة كبيرة في سفح الجبل ، يشقها جداول المياه العذبة وعليه سور عظيم، مؤلف مجهول الاستبصار...، ص186

(4) خيرة بلعربي، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي 2010) ، ص5 / 91 هـ 10 /هـ 11 - م 16 /م)، ماجستير(غير منشورة)، جامعة تلمسان، قسم التاريخ، 2009

(5) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 242 ، ص 243

(6) بسام كامل عبد الرزاق شقدان، المرجع السابق، ص 193

(7) مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ، ص 300

(8) المقري، المصدر السابق، ج5 ، ص206

كما تميز سكان تلمسان بالتسامح مع التجار المسيحيين فكانت وهران مهبط التجار القطلانيين و الجنويين، وأنشأت دار لراحتهم وإقامتهم، وسميت بدار الجنويين (1)

ج –دور الاسواق في تنشيط الحركة التجارية :تعتبر الأسواق من المرافق الحيوية والضرورية لأي دولة، وإنماء علاقاتها التجارية وقد كانت تشكل عصب الحياة الاقتصادية في مجتمع المغرب الأوسط خلال الفترة الزيانية. تقوم الأسواق حيث توجد تجمعات سكانية، فيُخصصْ السكان مكانا يجتمعون فيه للتبادل التجاري وللتزود بما يحتاجونه . (2) وتكشف المصادر عن وجود ثلاثة أصناف من الأسواق التي كان ينتظمها المجال الاقتصادي في المغرب الأوسط الزياني، فهناك أولاً الأسواق اليومية، وهذا ما أكد عليه يحي ابن خلدون عن سوق أغادير بتلمسان التي كانت تباع فيه مختلف السلع والبضائع يوميا (3) ، وهذا النوع من الأسواق موجودة بصفة دائمة في كل مدن المغرب الإسلامي(4) .أما الصنف الثاني فهو الأسواق الأسبوعية ، التي كانت تعقد في أيام معينة من الأسبوع . وكانت تعرف باسم ذلك اليوم، حيث كان يبنى السوق في صباح ذلك اليوم، ويُفضْ في آخر النهار .ومن أمثلة تلك الأسواق :السوق الذي كان يعقد في معسكر بإقليم بني راشد كل يوم الخميس (5) ، حيث كان يباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل والكثير من المنتجات المحلية. (6) وقد أشارت بعض المصادر الجغرافية المتقدمة إلى مثل هذا النوع من الأسواق بالمناطق الداخلية حيث كان يقام سوق في يوم معلوم بمازونة، يجتمع فيه الأهالي بمختلف منتجات المنطقة من فواكه وألبان والسمن والعسل... (7) كما كانت بمدينة شلف سوق يقام كل يوم جمعة(8) ، وبالقرب من تنس كانت تتواجد مدينة صغيرة سميت باسم السوق التي كانت بها وهي سوق ابراهيم الاسبوعية(9) وعلى غرار المدن الإسلامية الأخرى كانت أسواق المغرب الأوسط تخضع لمجموعة من التنظيمات، على أن اسواق المدن كانت أكثر تنظيما من أسواق البوادي والأرياف، ولعل ذلك يعود إلى نوعية هذه الاسواق، وإلى المواقع التي أنشأت عليها فأغلبها كان مسقوفاً وبعضها مكشوف، وكان لكل صنعة أو سلعة أو تجارة سوق مفردة بها يعرف باسمه(10) فتلمسان مثلا قدمت بدقة أبلغ صورة عن سير حركة التجارة داخل الأسواق على اعتبارها مركز أعمال، ومقر صناعة وتجارة بالمغرب الأوسط، فقد تنوعت فيها الأسواق داخل المدينة بتنوع الحر والمهام الممارسة، كسوق الخياطين والنساجين والصناعيين والعطارين(11)

---

(1) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ، ص 391

(2) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص24

(3) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1 ، ص 37

(4) ابراهيم القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2002 ،39 ص

(5) أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج2 ، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1997، ص187

(6)حسن الوزان، المصدر نفسه، ج2 ، ص– 26

(7) الإدريسي، المصدر السابق، ج1 ، ص12

(8)البكري، المصدر السابق، ص 39

(9) ابن حوقل، المصدر السابق، ج2 ، ص 19

(10) سعيدي العربي، تنظيم الأسواق والحرف في بلاد المغرب الاوسط خلال العهد الزياني من القرن 13 م إلى القرن 16 م، المجلة :المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 3 منشورات مخبر الجزائر سيدي بلعباس .جوان 2011 ، ص226

(11) أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق :أحمد .توفيق، ط2 ، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 1997 ، ص447

وحتى أسواق الحيوانات التي كانت تقع خارج أسوار المدينة وفي ضواحيها وقد كان تسيير الأسواق وشؤونها خضع لمجموعة من التنظيمات خلال مرحلة الحكم الزياني، ولعل دقة وصرامة تلك التنظيمات خاصة خلال مراحل الازدهار تعبر على قوة الاقتصاد، وتحكم الدولة في تسيير شؤونها الاقتصادية (1) أما الصنف الثالث من الأسواق فهي الأسواق العسكرية التي كانت تصحب عادة الجيش في تنقلاته أثناء غزواته، لكن المعلومات التاريخية تبقى قليلة وعموما كانت هذه الأسواق تنتصب في الهواء الطلق والقائمون عليها كانوا يختارون أماكن مناسبة لتكون قريبة من الجميع وبعيدة عن أي مسكن .(2)

د –دور سلاطين الدولة الزيانية: حرص سلاطين بن زيان على تعيين محتسبين (°) على الأسواق يقومون بشؤونها، فقد كلف المحتسب بالسهر على تنظيم الأسواق من خلال مراقبة السلع المعروضة في الأسواق ومدى سلامتها، والتصدي لكل أنواع الغش والتدليس في المبيع أو ثمنه، ومنع التعامل لكل أنواع الغش، ومراقبة السكة المتداولة وكل هذا من اجل حماية المستهلك(3) والجدير بالذكر أن خطة الحسبة بلغت ذروتها في عهد السلطان أبي حمو موسى الزياني الثاني 1359 م 1389 /م)الذي أبدى عناية خاصة بالأسواق والمحتسبين ونجد ذلك في الوصية التي تركها لابنه أبي تاشفين الثاني 1389 (م 1392 /م) والمدونة في كتابه واسطة السلوك في سياسة الملوك، بحيث أكد عليه بأن يعتني بهذه الخطة وبأصحابها. وكذلك ما يؤكد اهتمام سلاطين بني زيان بهذه الخطة كذلك هو حرصهم على وضع مكاييل وموازين نموذجية بأسواق المدينة .إلى جانب ذلك نجد أن دور الدولة الزيانية كان في توفير الأمن داخل الأسواق، تجلى ذلك في اتخاذهم الشرطة وسيلة لحفظ الأمن والنظام والآداب داخل الأسواق، وقد كان الهاجس الأمني يشكل أولى أولويات السلاطين الزيانيين الذين فرضوا تطبيق أقسى العقوبات على السارق كالسجن أو الجلد بالسياط (4)

هـ – دور الفنادق: ومن مظاهر تنظيم الأسواق، والتي ساهمت بشكل او بآخر في تنشيط الحركة التجارية، نجد تخصيص فنادق لتجار الجملة، يخزنون فها بضائعهم وسلعهم التي يقومون باستيرادها من الخارج قبل بيعها إلى تجار التجزئة في نفس السوق. وكانت هذه الفنادق يسمى باسم نوع الجالية المتواجدة فيها، أو باسم المدينة المنتمين إليها، وقد عرفت الدولة الزيانية مثل هذا النوع من الفنادق، فقد انتشرت في أهم مدنها، فنجد في مدينة وهران :فندقا تابعا مباشرة لملك آراغون يسير من طرف هذا الأخير(5) ، وقد كانت تلمسان هي الأخرى تحتوي على فنادق تحاذي حي القيسرية الشهير، حيث كان ينزل به تجار من مختلف البقاع من جنوة والبندقية وفلانسيا إلى جانب رعايا العرش الآراغوني من مسيحيين ويهود (6)، كما كانت هناك فنادق خاصة بالنزلاء المحليين أو من الغرباء المسلمين، وكان هذا النوع من الفنادق يشبه الأولى، غير أن الكثير من المحرمات ممنوعة فيه، وكان صاحب السوق أي المحتسب هو الذي يقوم بالإشراف عليه(7)

---

(1) عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص – 134 ص 135

(2) روبار برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ترجمة :حمادي الساحلي، ط1 ، ج2 ، دار الغرب .الإسلامي، بيروت(لبنان)، 1988 ، ص245

(°) المحتسب :عرف في بلاد الأندلس والمغرب باسم صاحب السوق وصاحب الحسبة، وقد لعبت الحسبة دوراً عظيما بجانب وظيفتي القضاء والمظالم وإقرار العدل بين الناس، ينظر :موسى لقبال، الحسبة الذهبية في بلاد المغرب العربي، نشأتها وتتطورها، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971 ، ص 21

(3) عيد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج1 ، ص 227

(4) خالد بالعربي، المرجع السابق، ص77

(5) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص 215

(6) حسن الوزان، المصدر السابق، ج 02 ، ص 20

(7) الونشريسي، المصدر السابق، ج 08 ، ص213

ثانيا الطرق التجارية:

إن الطرق شريان حياة المجتمع الكلي، وأساس تنظيم المجال وإعادة تنظيمه باستمرار، وقد أنتجت أهمية الطرق في التاريخ صراعا اجتماعيا في مراحل الأزمات السياسية التي مرت بها الأنظمة الحاكمة وسارت على امتداد التاريخ كله سلما وحرب (1)

أ –الطرق البحرية: إن الحركة التجارية النشطة بين موانئ المغرب الأوسط من جهة، وبين باقي المدن خاصة الإيطالية والأندلسية التي كانت تصدر وتستورد منها، وقد لفتت انتباه الرحالة والجغرافيون لاسيما في مرحلة ازدهار التجارة في العهد الزياني .فحددت المسافات التي تربط بين موانئ المغرب الأوسط بعضها ببعض بالميل :عند العرب مقدار مدى البصر من الأرض (2) ، والفرسخ الذي يساوي(:ثلاثة أو ستة أميال) (3) ، أو تسعة آلاف بذراع القدماء أو اثنا عشر ألف ذراع المحدثين والمجري واليوم(4) ، وقد جاءت المسافات بين بجاية ومراسي بلاد المغرب الأوسط كالتالي:

– من جيجل إلى بجاية إثني عشر فرسخا (5) ، ومنها إلى جزيرة بني مزغناي أربعون ميلا (6)

– أما الجزائر فهي مدينة يحيط بها البحر من ثلاث جوانب وهي تعرف بجزائر بني مزغنى، وتبعد على شرشال من ساحل المغرب الأوسط سبعون ميلا . (7)

– ومن هنين إلى وهران ثمانية وثلاثون ميلا (8) وهذه الأخيرة تقابل ألمرية من ساحل الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان (9) أو خمسون فرسخاً، وكذلك من سبتة

– إلى وهران مجريان في البحر، ومنها إلى تنس – في البحر – مجريان أو ثمان مراحل (10) ، وهناك طرق أخرى، فمن تلمسان إلى ماوزرت ثم إلى دسار الغار، ثم إلى وهران (11) وكذلك طريق من شرشال إلى الثلثا وعدس إلى جزائر بني مزغنا ثم إلى مرسى الدجاج إلى تاطنت، إلى الصمريخ، إلى أم العلو، إلى ثلاث ثم بجاية (12)، وهناك طرق برية داخلية تربط بين تلمسان ومدن المغرب الأخرى مع بلاد السودان، منها طريق تلمسان ثم توات

ثم نحو الجنوب باتجاه السودان إلى حوض ودي مغروش بالجنوب نحو بلاد السودان(13).

---

(1) هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف ق.4.هـ ومنتصف ق.10 هـ، ج1 ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الرباط،

(2) المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ج2 ، مطبعة التقدم العلمية، مصر، 190. (1995، ص360)

(3) ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري، لسان العرب، تصحيح :أمين محمد ، عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ج 10 ، دار احياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي،(د.م)،199

(4) مجد الدين محمد بن يعقوب محمد بن براهيم الفيروزابادي الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، ج3 ، دار المكتبة العلمية، بيروت،

(5) البكري، المصدر السابق، ص 82 . (1999، ص62)

(6) مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ، ص39

(7) عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت،(د.ت)، ص126

(8) الاصطخري أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، المسالك والممالك، مطبعة بريل،(د.م)، 1997 ، ص3 .

(9) الإدريسي، المصدر نفسه، ص23

(10) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5 ، ص 385

(11) القلقشدي، المصدر السابق، ج5 ، ص 150

(12) الإدريسي، آنس المهج...، المصدر السابق، ص 189

(13) مارسيه جورج، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة عبد الصمد هيكل، منشأة المعاني .الاسكندرية،(د.ت)، ص32.

ب–الطرق البرية:

إن المنتوجات المحلية والسلع التي يفد إلى المناطق الشرقية والوسطى والغربية من كل الأقطار، كان لابد لها من اسواق داخل الدولة الزيانية لصرفها، سواء في أقاليمها أو خارجها، وقد ذكر الرحالة العديد من الطرق التي تربط المناطق الداخلية والصحراوية بالساحلية، والتي مثلت في معظمها طرق تجارة برية نحو الموانئ، فإذا كان البحر يمثل عصب اقتصاد الدولة العبد الوادية فالقوافل البرية تمثل مصدر رزق الوحيد تقريب ا للدولة القائمة في الجنوب، او الذين يسكنون المناطق الداخلية خاصة المدن ذات الطابع الصحراوي، فلذلك كان معظم هذه الطرق نحو أهم الموانئ ومن

أهم هذه الطرق:

– الطريق البري الساحلي: وهو الطريق الذي يربط المدن الساحلية مع بعضها البعض من جهة، وبين المدنالداخلية من جهة اخرى، مثل الطريق الرابط بين مكناسة بالمغرب الأقصى ثم فاس ثم تلمسان، ثم البطحاء ثم مازونة، ثم مليانة ثم الجزائر، ثم بجاية ثم قسنطينة، ثم عنابة ثم تونس، ثم تونس ثم سوسة، ثم صفاقس ثم قابس، ثم طرابلس ثم الاسكندرية(1) وهناك فرع من هذه الطريق يخرج من الجزائر ثم سطيف ثم ميله ثم قسنطينة ثم قالمة (2) ، وهناك شبكة اخرى برية تربط تلمسان والمدن الزيانية الأخرى (3) الساحلية والداخلية مثل طريق مازونة ثم مستغانم ثم تلمسان، وهذا الأخير وندرومة .(4)

المطلب الرابع : دور الموانئ في إنعاش النشاط الاقتصادي بالمغرب الاوسط في العهد الزياني :

كانت الموانئ منذ القدم تمثل همزة وصل في التجارة بين الدول من جهة، وبين البحر و البحر من جهة اخرى، وارتبطت في كثير من مراحل التاريخ بأرزاق الناس والتجار، هذا ما جعل ابن منظور يعرف الميناء" :هو الموضع الذي ترفأ فيه السفن أي تجمع وتربط(5) كما أن ناصر خسرو يقول" :الميناء اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن(6) وقد شكلت موانئ المغرب الأوسط للدولة الزيانية(وهران، المرسى الكبير، هنين تنس، بجاية)شريانها الحيوية، وعماد تلمسان الكلي، وبمثابة همزة وصل نحو العديد من دول أوروبا المطلة على الحوض الغربي للبحر المتوسط .(7)

أولاً :أشهر موانئ المغرب الأوسط في العهد الزياني:

1–ميناء تنس: تعد تنس من المدن الساحلية التي كانت تتمتع بنشاط اقتصادي وسياسي ملحوظ، وقد وردت أوصافا لأحوالها الاقتصادية من بعض الرحالة ومن أشهرهم ابن حوقل الذي قال ":وهي من الخصب في جميع الوجوه الرفهة بآمر مستفاض...ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها أموالهم جسيمة غزيرة"(8) وذكرها أيضا الإدريسي بقوله..." :ولها أقاليم وعمال ومزارع "..(9) وأشاد مارمول كربخال بخصوبة أراضيها وتوفر المراعي فيها قائلاً..." :ذلك لأن هذه البلاد كثيرة الزروع والخصب والرعي (10) .

---

(1) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق :علي المنتصر الكتاني، ط2 ، ج 2 مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979 ، ص30

(2) لطيفة بشاري، المرجع السابق، ص 79

(3) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1 ، ص 250

(4) خالد بلعربي، المرجع السابق، ص

(5) ابن منظور، المصدر السابق، ج 13 ، ص 237

(6) ناصر خسرو علوي، سفر نامه، ترجمة يحي الخشاب، الهيئة المصرية للكتاب، 1993 ، ص 61

(7) مختار حساني، المرجع السابق، ص 139

(8) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 72

(9) الإدريسي، القارة الافريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق اسماعيل العربين ط 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983 م، ص153

(10) مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ، ص35

لقد كانت مدينة تنس محطة للربط بين المدن الداخلية والساحلية للمغرب والمدن الداخلية والساحلية للأندلس، وبالعودة إلى تاريخ المدينة قبل تأسيس تنس الحديثة، وبعدها يمكن القول أن مرساها كان مشهوراً ومقصوداً منذ زمن بعيد، يمتد إلى العهود القديمة .فقد كانت الدول الناشئة في بلاد المغرب تتخذ من هذا المرسى منفذاً أساسيا لسلعها المتجهة نحو بلاد الأندلس، حتى قبل تأسيس مدينتها الحديثة وقد أصبحت مركزاً تجاريا كبيراً تتجمع فيه مختلف البضائع قبل وصولها إلى الميناء، ومن المدن التي اعتمدت عليه مدينة تهرت ، عاصمة الدولة الرستمية التي عرفت في هذه الفترة تطوراً جعلت منها مركزا تجاريا حساس ا بين الصحراء والأندلس عبر ميناء تنس (1) ، وكانت تخرج منه البضائع القادمة من مدينة تهرت وتدخل إليه البضائع القادمة من مدن الأندلس، بحيث كان التاجر يسير منها باتجاه مدينة تنس في ظرف أربعة أيام ومنها في يوم وليلة يصل إلى مدينة تدمير الأندلسية (2) كما كان هذا الميناء احد الموانئ المغربية التي استخدمت في التبادلات التجارية مع الإسكندرية والشام (3) وتجمع المصادر والمراجع على مكانة مرسى المدينة محليا وإقليمياً خاصة في فترة حكم الدولة الزيانية، فقد أصبح من أهم موانئ المغرب الأوسط وهذا نظراً للحركة الكبيرة التي كانت تدب فيه (4) ،وحدد بعضهم المدن الأندلسية التي كان مرساها يتعامل معها مثل اليعقوبي الذي ذكر تدمير (5) ، وانفرد ابن بطوطة بربطها بجزيرة سردينيا، حيث أنه وصل إليها في مدة عشرة أيام بعد خروجها من مرسى هذه الجزيرة(6) ، كما كانت تنطلق منه المراكب باتجاه قرطاجنة في الساحل الأندلسي(7) ، وقد بين مارمول مزايا هذا المرسى من خلال وجود أماكن تختبئ فيها السفن عند هبوب الرياح القوية حيث قال" :وتوجد قبالة المدينة جزيرة صغيرة تختبئ عندها السفن إبان هبوب العواصف"(8)

2-ميناء هنين: هي من المدن الجزائرية التي كانت زاهرة وأقل نجمها بعد تعرضها للتدمير من قبل الاسبان، فكانت مدينة هنين الساحلية تحتل موقعا جغرافي ا ممتازاً بين الصخور التي تحمي السفن الراسبة فيه من الرياح والأمواج، سواء من القادمة من الناحية الغربية أو الناحية الشرقية (9)،قد وردت لها اوصاف من خلال الرحالة والجغرافيين، فوصفها البكري في القرن الحادي عشر ميلادي والخامس الهجري في كتاب المسالك والممالك بقوله" :من الوردانية إلى حصن هنين أربعة أميال وهو على مرسى جيد مقصود واكثر الحصون المتقدمة الذكر بساتين وضروب وثمر، تسكنه قبيلة تمسة كومية وبينه وبين ندرومة جبل تاجرة وبين الحصن وندرومة ثلاثة عشرة ميلاً (10)

---

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق :محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1 مطبعة الاستقامة، القاهرة، (1949، ص353)

(2) البكري، المصدر السابق، ص 1.

(3) مؤلف مجهول، الاستبصار...، ص 322 .

(4) حبيب الجنعاني، التجارة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثالث هجري واثرها في التجارة العالمية، في محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي بعنابة، المجلد الثاني، منشورات وزارة الشؤون الدينية،الجزائر، 1976 ، ص151

(5) يوسف عبد الكريم جودة، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر، 1984 ، ص59

(6) العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج 2 مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية، 1993 ، ص61 .

(7) ي بالحميسي، البحر والعرب في التاريخ والأدب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005 ص101

(8) ول كريخال، المصدر الساق، ج2 ، ص296 .

(9) جيلالي صاري، اضواء على أحد موانئ دولة بني زيان(هنين)، مجلة :التاريخ، المركز الوطني للدراسات 1986 ، ص 25 – 17 ، التاريخية، الجزائر، العدد12

(10) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث،ج2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب لإسلامي، بيروت،(د.ت)، ص 442.

ثم وصفها الإدريسي في القرن الثاني عشر ميلادي والسادس الهجري قائلا" :هنين من المدن الواقعة على ضفة البحر الكبير...،هنين مدينة حسنة صغيرة في نحو البحر وهي عامرة، عليها صور متقن وأسواق وبيع وشراء...من هنين إلى تلمسان في البر أربعون ميلاً ". (1) ،ثم وصفها حسن الوزان قائلاً: "هنين مدينة صغيرة بناها الأفارقة، وهي أنيقة صنيعة للغاية، لها ميناء محروس ببرجين كل واحد منها في جهة وتحيط بها أسوار عالية "...(2) ووصفها الرحالة خالد البلوي الأندلسي قائلا":هنين بلدة صغيرة لا كبيرة ولا صغيرة جميلة المنظر متوسطة بين الصغر والكبر، موضوعة أسفل جبلين بين بحر وشجر "...(3) ويبعد ميناء هنين على بعد 21 كلم من الغزوات على الساحل الوهراني في منطقة ترارة محيط بسور مدعم ببرجين كل منهما في جهة لاسيما الجهة المقابلة للبحر(4) ، وبفتح ممر بعرض 8.5 متر يسمح بدخول السفن الشراعية والميناء حاليا حديقة طبيعية(5) .

3- ميناء وهران والمرسى الكبير: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وآخره نون، مدينة صغيرة على ضفة البحر (6) ، ولها مرسى غاية في السلامة والصون من كل ريح، وماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين وأجنة كثيرة من الفواكه ، وفي أهلها دهاقنة وعزة أنفس ونحوه (7) موصوفون بعظم الخلق، و كمال القامة والإباءة والشدة (8) ، وترجع المصادر أنها أسست قبل الفنقيين، وكان يطلق عليها اسم المرسى الصغير تمييزاً لها عن المرسى الكبير(9) وقد أطلق عليها الرومان أونياكلونيا .(10) ، لقد اختلف في أصل كلمة وهران، لكن الأرجح أنها لفظ بربري يعني مكان الأسد، ولأنها تتمتع بمميزات الموقع الجيد فقد استقرت فيها القبائل (11) ، بالإضافة إلى الوافدين إلى المنطقة، إذْ يشير البكري أنه" : بني مدينة وهران جماعة من الأندلسيين البحريين باتفاق تفزة وبني مزغن سنة تسعين ومائتين فاستوطنوها سبعة عوامل(12) ، وقد تعاقبت عليها فترات الأمن والحرب، خاصة في ظل الصراع المذهبي بين الفاطميين الشيعة والأمويين المالكية بالأندلس، فمثلاً سنة 341 (هـ / 959م)ملكها الناصر(13) ، بفضل أمير زناتة (فتوح بن الخير بن محمد بن خزر، بعد أن كانت تابعة إلى الشيعيين .) ، (14)

---

(1) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث،ج2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص442

اسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب،(د.م)، 1984 ، ص 136

(2) حسن الوزان، المصدر السابق، ج 02 ، ص 15 ، ص 16

(3) مولاي بلحميسي، الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2 ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، 1981 ، ص62

(4) حسن الوزان، المصدر السابق،ج 02 ، ص15.

(5) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 02 ، ص 258

(6) (ابن حوقل، المصدر السابق، ص 79

(7) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1 ، ص 252

(8) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص 132

(9) يحي بوعزيز، وهران، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، 1985 ، ص 30

(10) مارمول كربخال، المصدر السابق، ج2 ، ص 329

(11) بشير مقيبس، مدينة وهران، دراسة في جغرافية العمران، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983 ص82/81 .

(12) البكري، المصدر السابق، ص 70

(13) مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ج1 ، تحقيق لويس مولينا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1983 ، ص167

(14) المراكشي، المصدر السابق ، ص 29.

وبناء المنطقة الغربية – وهران – برز قبل المرابطين خاصة في المبادلات التجارية بينه وبين موانئ الأندلس، وذلك للقرب الجغرافي وتوفر المواد التجارية واستمر ذلك في العهد الموحدي. وفي العهد الزياني، فقد ظلت بمركزها الاقتصادي وكذلك الثقافي رغم الاضطرابات السياسة التي عرفته مملكة بني زيان، ففي الميدان التجاري كانت تفد إليها من الجنوب قوافل الصحراء تحمل معها بضائع المنطقة، في حين كانت ترسوا في مينائها السفن التجارية القادمة من أوروبا، وقد كانت وهران تعد الميناء الرئيسي لتلمسان، حيث كانت مستودعا لتجارة السودان، وكانت تشكل في كل عام قافلة من التجار الأوروبيين ويتوجه إلى سجلمانة وتافيلات عن طريق وجدة وفاس وتادلة واغمات، وتكرر في النيجر وفي مملكة مالي، حيث نقل المصنوعات التلمسانية والسلع الأوروبية وتجلب من هناك الحلي والذهب، وريش النعام والعبيد(1)، أما المرسى الكبير فقد ظل تحت الحكم الزياني منذ منتصف الرقن 13 م، ونظراً لموقع الممتاز حظي بعناية كبيرة لدى ملوك تلمسان، حيث جعلوها محطة تجارية، وأقيم فيه حصن دفاعي يعود إلى القرن 07 هـ 13 /م، وهذا ما شجع السفن التجارية الأوروبية على اعتباره المحطة الرئيسية في البحر المتوسط ومنذ بداية القرن 09 هـ 14 /م أصبح المرسى الكبير مركزاً رئيسا للتبادل التجاري بين المدن المتوسطية الاوروبية كالبندقية وبين بلاد المغرب الأوسط، التي كانوا يبيعون فيها منتجاتهم (2).

4–ميناء أرشقول: ومدينة أرشقون على سيف البحر، أسست قبل الإسلام على عهد تلمسان، وتداولها ملوك تلمسان .قال عنها البكري " : و أرشقول ساحل تلمسان، وبين مدينة أرشقول وتلمسان فحص زيدور حوله خمسة وعشرون ميلاً ."وقال عنها الإدريسي ":ومدينة أرشقول على نهر تافنة، وهي مسورة، وبمدينة أرشقول جامع حسن فيه سبع بلاطات وفي صحنه جُبْ كبير وصومعة متقنة البناء، وفيها حمامان أحدهما قديم، ولها من الأبواب باب الفتوح وباب الأمير، وبه آبار عذبة لا تغور، ومرساها في جزيرة فيها مياه و مواجل كثيرة للمراكب، وهي جزيرة مسكونة ."...(3) .

5–ميناء مستغانم: إن أكثر ما تتميز به هذه المدينة هو الميناء الذي يعود استعماله إلى عهد الفنيقين، حيث أصبح فيما بعد مقصداً لكثير من السفن التجارية الأوروبية (4) ، وقد وصفهم مارمول كربخال في القرن السادس عشر ميلادي بقوله" :لها مرسى جيد " (5) ، وكانت المدينة محصنة بأسوار منيعة شأنها في ذلك كشأن المدن الحضرية الأخرى، لها نسيج عمراني لا يختلف عن الطابع العمراني التي تميزت به المدن الساحلية الجزائرية الأخرى خلال تلك الفترة، وقد كانت تمتد وراءها مساحات من الأراضي الزراعية ذات الخصوبة الجيدة، وبعد ضعف الدولة الزيانية وتراجع قدراتها على فرض سلطتها على الأقاليم التابعة لها، تشجعت بعض القبائل المنتشرة حول المدينة مع إعلان العصيان، وأخذت تسيطر على الكثير من المناطق وهذا ما أشار إليه حسن الوزان بقوله" :كان لها في القديم حضارة كبيرة وسكان كثيرون، لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف، حتى أنها فقد ثلثي أهلها وفي وقتنا الحاضر(6) ، ورغم هذه الحالة فإنها استقبلت الكثير من المسلمين الأندلسيين إثر سقوط غرناطة، فقد ذُكِرَ أنه كان لدى أهل مستغانم سنة 1505 م، أسطول.

---

(1) يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 58

(2) عبد القادر فكار، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وأثاره 910 (هـ 1206 /هـ 1505 – م 1792 /م)، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012 ، ص20

(3) مختار حساني، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، ج 03 ، دار الهدى، الجزائر، 2011 ، ص 147

(4)حسن الوزان، المصدر السابق، ج2 ، ص 32

(5) مارمول كربحال، المصدر السابق، ج2 ،ص 350

(6) حسن الوزان، المصدر نفسه، ص 32.

المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية في الدولة المرينية :

يعتبر الاقتصاد عصب الحياة لأي حضارة، وعامل أساسي لاستمراريتها لأنه يمثل تحديا يوميا للإنسان، وهو يشمل في معناه تدبير المعاش وإنماء الثروة بكل أنواع الكسب والاحتراف مهما تعددت الألوان واختلفت المظاهر من جميع أنواع المهن والصناعات، وما تقتضيه المعاملات التجارية بين الناس من تباين المتاجر والأسواق، والدافع في ذلك هو رد

الاعتبار، وجلب الرفاهية

المطلب الأول : المقومات الطبيعية :

تتمثل المقومات الطبيعية لمدينة فاس فبموقعها الذي تميز وسط المغرب الأقصى وبيئة المدينة الزراعية ، وأخيرا النشاط التعديني لهذه المدينة .

أ)البيئة الجغرافية : تتميز فاس بموقعها إذ تتوسط مدن المغرب الأقصى ، حيث تقع على نقطة تقاطع بين محورين كبيرين للاتصالات ، المحور الأول يمتد من الشمال إلى الجنوب بين البحر الأبيض المتوسط أو مضيق جبل طارق إلى ما وراء الصحراء الكبرى أما المحور الثاني فيمتد من الغرب إلى الشرق بين ساحل المحيط الأطلنطي ووسط المغرب الأقصى . ، وقد حدد المؤرخون الجغرافيون المسافة بين فاس ومدن المغرب الأقصى ، فمن فاس إلى مدينة سبته التي تقع شمال فاس ستة أيام ومن فاس إلى سجلماسة ، جنوبا ثماني مراحل ، ومن فاس إلى سلا غربا أربع مراحل ، ومن فاس إلى تلمسان بالمغرب الأوسط تسع مراحل ، فكان لموقعها هذا دور كبير في التقارب و الاتصال بين فاس ومدن المغرب الأقصى و الأوسط و السودان الغربي ،(1) ومنطقة فاس عبارة عن سهل مرتفع ، تحده الجبال من الشمال ومن الجنوب بينما تبقى جهاته الشرقية و الغربية مفتوحة ، فهي نقطة لقاء بين سكان الجبال الجنوبية "جبال فازاو" و الجبال الشمالية "جبال غماره"، ومنطقة فاس تشتمل هضابا وسهولا يصل ارتفاعها إلى خمسمائة متر ، و إلى الشمال الغربي في هذه المدينة تقع مرتفعات "زرهون " التي يبلغ طولها حوالي ثلاثين ميلا إلى الغرب ، وعرضها عشرة أميال ، وشكلها العام جبلي ولارتفاع الجبال المجاورة أهمية في سقوط الأمطار وتكون الثلوج على هذه المرتفعات التي تذوب ، وتمتد بذلك نهر سبو بالمياه التي تروي فاس ، والمنبع هذا النهر جبال صنهاجة (بنو وارتين) (2).

وهكذا يمكن القول إن مدينة فاس قطب بلاد المغرب الأقصى ، ويسكن حولها قبائل البربر الذين يتحدثون اللغة العربية ، وهي حاضرة المغرب الكبرى ، فأعان موقعها على أن تشتد إليها الركائب ، وتقصدها القوافل وتجلب إلى حاضرتها كل غريبة من الثياب و البضائع و الأمتعة لذلك فأن معظم أهلها مياسير . (3) ومنطقة فاس وتربتها متنوعة حسب المناطق ، وكان لتنوع تربتها أثر كبيرفي تنوع محاصيلها الزراعية على غرار المغرب الأقصى ، ونشاط أسواق الغلال و المواد الغذائية ، وتضاريسها مضطربة لكثرة الأودية التي تمر بها ، مثل ذلك منطقة وارتين الواقعة شرق فاس على بعد ثمانية عشر ميلا وهي بلاد كلها تلال تربتها جيدة وتوجد في هذه المنطقة و إلى جانب المناطق الهضبية توجد مناطق تلال في شمال وغرب فاس . (4)

---

(1) هالة عبد الرزاق ، أسواق فاس في العصر المريني ، مكتبة الثقافة الدينية للنشر ، 2013، ص 77,79.

(2) نفسه ، ص 80-85.

(3) أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية للنشر و التوزيع ، القاهرة ، 1970، ص 88-90.

(4) المصدر السابق ، هالة عبد الرزاق ، أسواق فاس في العصر المريني ، ص 110.

لقد أثرت البيئة الجغرافية لمدينة فاس تأثيرا كبيرا على نشاط سكان هذه المدينة ، فالإنسان ابن بيئته يتأثر بها و يؤثر فيها . كما أدى وقوع مدينة فاس وسط المغرب الأقصى الذي اشتهر بسلاسل جبال أطلس و بوديان غزيرة بالإضافة إلى مياه الجوفية ، إلى جانب الأمطار الغزيرة التي تسقط على معظم أنحاء المغرب الأقصى ، إلى تمتع مدينة فاس بوفرة المياه بالإضافة إلى تمتعها بموقع متميز بين مدن المغرب الأقصى مما جعل هذه المدينة ترتبط من خلال الطرق و المسالك بمعظم مدن المغرب الأقصى بل و الأوسط ، وليس أدل على ذلك من أن موقعها جاء اختيارا واضحا متميزا له أهميته سواء من الناحية الاقتصادية (الزراعة، الصناعة ، التعدين) أو الناحية السياسية حيث يمكن الحكم القائم من السيطرة على ما حولها من مدن وبلدان ، وأخيرا يمكن القول أن هذا الموقع قد أسهم في ربطها بالبحر المتوسط وتجارته بالإضافة إلى وقوع المدينة على ملتقى الطرق المؤدية إلى بلاد المغرب الأوسط والسودان الغربي مما أنعش السوق في هذه الدولة . (1) ، فاعتدال المناخ ساعد على جذب السكان للمدينة وزيادة أعداد الوافدين إليها ، مما أدى إلى خلق احتياجات سكنية لتكفى احتياجاتهم اليومية وقد جذبت المدينة أيضا التجار الأجانب لرغبتهم في تحقيق الأرباح الوفيرة فساعد هذا الأمر على ازدهار الأسواق وتنوعها في المدينة . وساعدت وفرة المياه وخصوبة التربة بالمغرب الأقصى بصفة عامة و فاس خاصة على الزراعة . فيقول عليها أبو زرع " لها من المحارث العظيم سقيا وبعلا عن كل جهة ، منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب " ، فمدينة فاس يشقها نهر كبير يسمى بوادي فاس يأتي من عيون اسمى عيون صنهاجة ، فيكثر بالمدينة العيون فالنهر يشقها نصفين ، ويتشعب في داخلها من بساتين وشوارع و أسواق ، (2)

وخاتمة القول أن البيئة الجغرافية كانت تحديا للنشاط البشري في المغرب الأقصى عامة وفاس خاصة ذلك النشاط الذي نجح في الاستجابة لهذا التحدي استجابة ناجحة جدعلت فاس مركزا زراعيا و صناعيا و تجاريا سجله التاريخ للدولة و المدينة .

البيئة الزراعية و الرعوية :

تعد لزراعة من المقومات المهمة لنشاط الأسواق في الدولة المرينية وقد ازدهر النشاط الزراعي بفضل البيئة الزراعية التي وجدت فيها بفضل توافر مقومات هذه البيئة وهي الأرض الخصبة الصالحة و المياه العذبة ، والمناخ الملائم لأنواع مختلفة من المحاصيل ، سواء أكانت محاصيل زراعية كالقمح وما شابهه ، أو محاصيل بستانية كأشجار الفاكهة بأنواعها ، ويزيد الجغرافيون في وصف المغرب الأقصى وفاس و زروعها و مياهها ، فيقول صاحب كتاب الاستبصار : " مدينة فاس كثيرة الخصب و الرخاء ، كثيرة البساتين و المزروعات و الفواكه وجميع الثمار ، ولها أقطار واسعة متصلة العمائر ، وعدوة القرويين في هذه المدينة أكثرها بساتين و أشجار ومياه وعيون من عدوة الأندلسيين وكلتاهما خصبة عظيمة القدر جليلة الحظ ، ويقال أن بعدوة الأندلس تفاح حلو يعرف بالاطرابلسي جليل حسن الطعم والرائحة ، وزاد المؤلف وصفا في فاس و أنهارها ومياهها ، بأن منبع نهر فاس من جبل في بلاد " بنب ورتين " ورأس العين في بئر غامضة يهاب الدخول فيه "، (3)

---

(1) محمد السلامي ، تاريخ المغرب تحيين وتركيب ، الرباط ، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب ، ج2 2012، ص 111.

(2) أبي الحسن علي الجزنائي ، زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، نشر بدار الملكية ، الرباط ، 1982، ص 68

(3) المصدر نفسه ، أبي الحسن علي الجزنائي ، زهرة الأس في مدينة فاس ، ص 156.

وقد ازدهرت الزراعة في العصر المريني بفضل ما تمتع به المغرب الأقصى و مدنه من دعائم ضرورية للزراعة ، وأهمها وفرت مصادر المياه و وجودة التربة وتنوع المناخ الذي كان له أثره في تنوع المحاصيل والثمار..حيث قام المرينيون بمشروعات مائية لحسن استخدام المياه حيث أقاموا سدودا في مختلف المناطق مثل سدود الموجودة بفاس على وادي الزيتون في القرن الثامن الهجري لتنظيم ماء الري و التحكم فيها مما أدى إلى زيادة الزراعة في مدينة فاس (1) ، حيث ذكر المقريزي " إن بمدينة فاس زراعة وحرف وعمارة ، أسعارها رخيصة ونعمها وافرة وفواكهها كثيرة وفيها نقوش ودروب من الزينة ومياه جارية ومتنزهات سامية وجهاتها مخضرة و في أهلها عزة ومنعة "(2)

وتميز جغرافية المغرب الأقصى بوجود بيئة زراعية جيدة فالأراضي التي تمتد لمسافة كبيرة تعد صالحة لكافة أنواع الزراعة حيث تنمو المحاصيل المعاشية رقم واحد و المتمثلة في الحبوب من شعير و قمح وكذا الكروم و الزيتون و أنواع عديدة من أشجار الفاكهة (3) ، فأراضي المغرب عامة و فاس خاصة تعد من أفضل الأراضي فهي سوداء وحمراء ، لذلك تنوعت فيها الزراعات من تفاح ولوز وأجاص وزيتون وكمثري وقراصيا وفول وشعير وذرة وعدس ، ونجد أيضا التربة الجبلية والتي يتم فيها زراعة التين و الورد والكرم والمشماش ، وتربة رطبة وزرع بها الكتان والقطاني وجميع أنواع البقول ، كما ساعد وجود التربة الرملية على زراعة اللوز و الحناء أما الأراضي اللينة زرع بها الأجاصي فمع تنوع التربة تنوعت المحاصيل(4) ، وقد صور ابن أبي زرع حسن البيئة الزراعية لمدينة فاس وقال " لقد جمعت فاس من طيب التربة ، وحسن الثمرة ، وسعت الحرث ، وعظيم بركته ، وقرب المحطب ، وكثرة عدده وشجره ، وبساتين مشرقة ، ورياض مورقة وعيون منهمرة ، و أنهار متدفقة منحدرة " (5)، هكذا ساعدت البيئة الزراعية لهذه المدينة في تعدد أنواع المزروعات و أشجار الفاكهة كما أسهمت في نشأت مائة قرية يسكنها من يفلحون الأراض بالإضافة إلى رعي الأغنام ، وقد أعان هذا التجمع القروي في إقامة عمران حضاري باستخدام الأحجار من الجبال و التلال في بناء المساكن ، وبهذا الأمر تنوعت الأسواق وازدهرت تلبية الحاجات السكانية ، (6) ، وقد انتشرت زراعة الزيتون بفاس خاصة قرب عدوة القرويين كما زرعت تلال جبل زلاغ و زرهون و الجبال المطلة على فاس من جهة الشرق ، ومنطقة بني مزكلدة وبني ومود بكميات كثيفة ومساحات شاسعة من أشجار الزيتون، ويوجد من أنواع الحبوب القمح و الشعير و الفول والحمص والعدس والسمسم و الأرز الذي يزرع في مساحات قليلة ، وأما أنواع الفواكه فهي كثيرة مثل النخيل و العنب و التين و الرومان و الزيتون و السفرجل و التفاح على أصناف الكمثري ، و المشمش و البرقوق و الخوخ و القراصيا و الجوز و اللوز و الاتراج و الليمون و الليم و الرانج و الزنبوع وهو الكباد و البطيخ الأصفر و الأخضر ، إلى جانب الخضروات مثل الخيار و القثاء و اللفت و البذنجان و القرع و الجزر و اللوبيا و الكرنب و الشمار وسائر البقول وقصب السكر، وتدل هذه المزروعات و الفواكه وتنوعها على البيئة الزراعية المزدهرة بفاس بالإضافة إلى غناها (7)

---

(1)ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، المغرب ، 1972، ص 195.

(2)نفسه ، ص 197-198.

(3)حسين مراد ، فلاحو فاس في العصر الموحدين ، مركز البحوث و الدراسات التاريخية ، كلية الأدب ، جامعة القاهرة ، مصر ، ص 87.

(4)المصدر السابق ، ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، ص 130.

(5) المصدر نفسه ، ص 130 -134.

(6) نفسه ، ص135.

(7) المرجع السابق ، هالة عبد الرزاق ، ص 68.

وقد أثر ذلك في نشاط أسواق هذه المدينة فقد كان هناك أسواق خاصة بالمنتجات التي لا يستغني عنها أحد من السكان ، ومن الطبيعي أن يعمل في الزراعة بمدينة فاس الفلاحون الذين امتهنوا هذا العمل وتوارثوه فأجادوه سواء كانوا ملاكا للأرض المزروعة أو كانوا أجراء لدى صاحبها ، ويسكنون في القرى بالقرب من الأرض الزراعية ومن هنا نجد عدد كبير مما لا يملكون الأرض ويعملون لدى كبار الملاك أو الشركات التي تحتاجها إلى أيدي عاملة في مجال الزراعة أو تربية الماشية (1) وقد أشار المراكشي إلى هذه الحقيقة الهامة حين قال " و أرض المغرب أخصب رقعة على الأرض فيما علمت و أكثرها أنهار مطردة أشجار ملتفة وزروعا و أعنابا وبها سبعة أنهار أهمها نهر سبو الذي يحيط مدينة فاس شرقها وغربها " (2)

و لقد اهتم سلاطين بنو مرين بالزراعة ، حيث أقطعوا كبار رجال الدولة كالقضاة ، وقادة الجيش ، وكبار الأشياخ الإقطاعات الزراعية وكان أشراف هؤلاء على هذه الإقطاعات سبيلا إلى زيادة الإنتاج في إقطاعاتهم مما كان له أثره في زيادة المنتجات الزراعية بمدينة فاس و الدولة المرينية ،(3)

..و كانت البيئة الزراعية قد أسهمت في ازدهار حرفة الرعي في المغرب وذلك نتيجة المحاصيل الزراعية من شعيرة وذرة ، والتي استخدمت كعلف للماشية ، وازدادت تربية الحيوانات بسبب السكان الذين أدخلوا طرق جديدة للإنتاج فعملت القبائل العربية و الأندلسيين على نشر تربية الإبل و الأغنام بشكل واسع و أدخلوا أنواعا من الخيول للمغرب (4) ، وإلى جانب العرب و الأندلوسيين استقر اليهود في المناطق الريفية و الجبال وقد عمل هؤلاء بحرفة الرعي و الإنتاج الحيواني (6) ، وعمل أيضا عدد كبير من البربر في حرفة الرعي فيوضح أبن الأحمر "أن عدد من بيوتات فاس قد عملوا في الرعي كبيت بني شيبون احترفوا جلب الأبقار وبيع ألبانهم "(7)

وساعدت وفرة الثروة الحيوانية في مدن المغرب الأقصى على توفير الاحتياجات الخاصة بالسكان من لحوم وألبان و أصواف ، فكثرة دكاكين الجزارين (8) ، وأدى انتشار حرفة الرعي إلى توفير كميات كبيرة من جلود الحيوانات ، فأحترف عدد كبير من سكان تلك المناطق حرفة دباغة الجلود و التي استخدموا فيها جلود الماشية ، وكان لوفرة المواد المستخدمة في الدباغة أثر كبير لازدهار هذه الصناعة بمدينة فاس ، حيث زرعت شجرة التالكوت التي استخدمت عصارتها في دباغة جلود الأغنام وغيرها ، وأيضا القرمزية التي استخدمت في الصباغة وهي حشرة طفيلية تعيش على شجرة البلوط ، وكان أيضا يعمل بهذه الحرفة الكثير من اليهود . (9)

---

(1) أبي العباس احمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر لسان وزيرها لسان الدين ين الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، نشر بدار صادر ، بيروت ، 1967، ص 54.

(2) عبد الرحمن ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج7، ص 90

(3) المصدر السابق ، أبي لعباس احمد المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ص 178.

(4) ابن رزين التجيبي تحقيق محمد بن شقرون ، فضالة الخوان في طيبات الطعام و الألوان ، الرباط ، 1977، ص 221.

(5) رشيد سلامي ، المرجع السابق ، ص 210.

(6) رشيد سلامي ، المرجع السابق ، 209.

(7) رشيد السلامي ، مرجع السابق . ص 212.

(8) المصدر السابق ، أبي لعباس احمد المقري . ص 169.

(9) الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ج5 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981، ص 179-282.

الحرف و الصناعات :

وزادت أهمية الدباغين ، فكان عدد منهم يعد الجلود للصنع من جلود الماعز و الخراف و الأبقار و الغزلان و الجمال ، وبعد دبغ الجلود كانت تنقل إلى أصحاب الحرف المختلفة ، فهناك صناع العدة و السروج للدواب و الخيل ، وصناع الحقائب و الكتب و صانعوا الأحذية ، وكان لذلك أثر في ظهور صناعة التطريز، كما انتشرت صناعة القرب التي كان يحمل فيها المياه وهذه القرب مخيطة خياطة جيدة .(1)

وبذلك أعانت تربية تربية الأغنام على نطاق واسع في ازدهار صناعة المنسوجات الصوفية ، فاشتملت الكثير من المناطق المغربية على دور النساجين و الكثيرمن دكاكين الصباغين والغزل وأنشئت بذلك أسواق للأقمشة الصوفية بكل كن فاس وكراكش و طنجة ....) (2)

وأيضا ساعدت المساحة الكبيرة من الغابات و أشجارها مثل شجرة الأرز و البلوط وشجرة الزيتون ، فانتشرا غابات الزيتون على سفوح الجبال التي تطل على البحر الأبيض المتوسط واستخدمت أخشابها في بناء المنازل من شبابيك النوافذ والأقفال، واستخدم حب الزيتون في صناعة الزيت واستخدم في إنارة المساجد كجامع القرويين بفاس، وكذلك كانت أشجار الأرز من أهم الأشجار حيث يعتبر خشبها من أطيب أخشاب الأرض فيعمر العود نه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن ولا يسوس ، وكان يصنع منه الشبابيك ، وكذلك شجر البلوط الذي يفر الحطب و الفحم (3)، حيث ساهمت هذه الثروة الغابية في ظهور صناعات من الأخشاب ، وعدد من الحرف ، فظهرت دكاكين النجارين تصنع عجلات العربات و الطاحونات لرفع الماء ، والطاولات المستديرة و الرفوف و الصناديق لحفظ الملابس و الأثاث ، ومن ثم كانت هناك فئة من الصناع الذين يصنعون المكانس الصغيرة من أشجار النخيل القصيرة ، وصانعوا البراميل لحمل المياه على شكل دلاء (4) ، وكذا المخروطات الخشبية وقاموا بصناعة القباب من الخشب التوت الأسود و الأبيض وخشب الجوز و الليمون ، ووجد عدد من الدلالين وهم متخصصون في حمل وكيل الزيت عندما يباع بالحمل . (5)

وفرة المواد الخام و المعدنية :

توفرت بالمغرب الاقصى الكثير من المواد الخام المعدنية التي استخدمت في العديد من الصناعات ، والتي أسهمت في ازدهار الأسواق حيث كانت فاس تستخرج الكثير من الملح متنوع الأصناف و الألوان و الصفات ، حيث يتوفر بكميات كبيرة بفاس وأيضا معدن الجبص و الصلصال و أنواع الحجارة و الرمال على اختلاف أنواعها، كما كانت هناك أيضا رمال لصناعة الزجاج ، فكثرت الأفران لعمل الزجاج التي وصل عددها إلى الكثير من الأفران قدرت بالآلاف (6)،

---

(1) ابن مرزوق الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، دار الثقافة للنشر ، الجزائر ، ج3، ص 68.

(2) نفسه ، ابن الخطيب نفاضة الجراب ، ج3 ، ص 68-69.

(3) السلاوي الناصري، الإستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج4 الدار البيضاء ، 1956 ، ص 222.

(4) المرجع السابق ، عالة عبد الرزاق ، أسواق فاس ، ص 147

(5) نفسه ، ص 148-150.

(6) نفسه ، ص 151.

كما تم استخراج الفضة و النحاس و الحديد وأشتهر صناعة النحاس الأصفر و الحديد قرب فاس التي اشتهرت بنحاسها الأصفر ، والذي يحمل إلى جميع الأفاق ، فيوجد اثنتي عشرة دارا لسك النحاس المستخرج من مناجم النحاس بالجبال المجاورة للمدينة ، وساعدت هذه المعادن على وفرة المواد الخام الأزمة لصناعة الحلي و المسكوكات والموازين و المكاييل فوجدت أسواق الحدادين التي عملت على توفير احتياجات المجتمع ، فكان لأهلها اليد الطولي في صناعة المخرطات النحاسية وتوافرت المصنوعات الحديدية من مسامير وسيوف و الركابات ، كل ذلك ساعد على ظهور حرف أخرى ارتبطت بالحدادة و هي النجارة والبناء (1)

المطلب الثاني : المقومات البشرية :

إذ كانت المقومات الطبيعية هي الأساس لتعدد الأسواق وازدهارها في الدولة المرينية فهي الأساس أيضا لنشاط العنصر البشري ، فبعد استعراض المقومات الطبيعية التي أسهمت في ازدهار أسواق المختلفة نعرض المقومات البشرية التي أسهمت في الازدهار: الوضعية السياسية للدولة المرينية : حيث اهتم حكام بنو مرين بالاستقرار السياسي على المغرب عامة و العاصمة فاس خاصة فعملوا على فرض الأمن واهتموا بالأمور الاقتصادية وزيادة العمران و إنشاء المساجد و المدارس ، فمع تولي السلطان يعقوب بن عبد الحق أمور الحكم في فاس عام 656هـ / 1257م عمل على فرض الأمن وكثرت الخيرات ورخصت الأسعار ، حيث يصف لنا ابن أبي زرع الحالة الاقتصادية بمدينة فاس مثلا " فبيع الدقيق في مدينة فاس الربع بدرهم ، والقمح ستة دراهم للصفحة ، والفول وجميع القطاني مالها رسوم ، ولا يوجد من يشتريها ...) (2)

وعمل السلطان يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق على تأمين الطرقات ، وأزال الرتب و القبالات و المكوس ، فأنجبرت أحوال الناس ورخصت الأسعار في جميع الأقطار(3) ، واهتم بالمشروعات الاقتصادية فقام باستغلال مياه وادي فاس و الاستفادة منه في سقي البساتين ، وذلك بفضل خبرة المهندس الأندلسي ابن الحاج ، فاستعملت النواعير على نطاق واسع(180) ، ومع تولي السلطان أبي سعيد الحكم في فاس قام بضبط أمرها ، وصلح حالها وكثرت الخيرات ، واهتم بالمشروعات الاقتصادية فقام ببناء القنطرة الكبرى عام 725هـ / 1324م و التي عليها سوق باب السلسلة فبنيت الحوانيت على جانبيها و بني سوق الدباغين .(4).

كما اهتم السلطان أبو عنان المريني 749هـ/1348م بتنظيم الري بالنواعير التي كثرت بفاس أيام حكمه فكان وحدها ستمائة رحى تدور الماء (5) ، لقد شهد عهد السلطان أبو الحسن المريني 731-752هـ/1331-1351م نشاطا عمرانيا واقتصاديا شاملا . لقد أدى اهتمام الحكام المرينيون بإقامة سدود على وادي الزيتون في القرن 7و 8هـ ، إلى تنظيم مياه الري و التحكم فيها مما أدى إلى زيادة الزرلعة و توفير السلع الزراعية بمدينة فاس ، كما قاموا بإخضاع أهم المنافذ التجارية ، كسجلماسة التي كان إخضاعها يمثل أمرا حيويا للمرينيين على المستوى الاقتصادي بما يوفر ذلك من إمكانيات لتصريف السلع المغربية نحو السودان و أوروبا (6).

---

(1) المصدر السابق ، أبي عبد الله الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ص 223.

(2) ابن ابي زرع ، المصدر السابق . ص115.

(3) نفسه ، ص 175.

(4) لحسن بن محمد الزيات الوزان ، وصف أفريقيا ، ترجمو محمد حجي و أخرون ، نشر بدار الغرب الإسلامي ، 1980، ص 228.

(5) الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب ، المصدر السابق ، ص 78.

(6) نفسه ، ص 79.

ونظرا لطول ملك الدولة، فقد اختلفت الأوضاع الاقتصادية باختلاف عهد الملوك الذين تعاقبوا عليها، غير أن فترة التقدم السياسي صاحبها ازدهار ملموس في الحياة الاقتصادية، فقد قيل أن السنة التي بويع فيها يعقوب المنصور، بيع فيها القمح بستة دراهم للصحفة، والكبش بخمسة دراهم والشابل وحدة بقيراط. ولا شك أن أسعار المواد الغذائية الأساسية، تشكل المقياس الحقيقي لسائر أثمان المعيشة وعلى الأقل، فالرخاء يومئذ، كان معناه كثرة العرض بسبب وفرة الإنتاج، ولكن في عهد السلطان يوسف، انخفضت قيمة العملة بالنسبة للماضي، حيث بيعت صفحة القمح بعشرين درهما. ومن أهم المراكز الاقتصادية بالمغرب في العهد المريني، أصيلا التي كانت مركزا للتجار الأجانب، وكان يباع بها الملف والتوابل، فضلا عن مصيدها الغزير السمك، وفي نواحي سلا كان يزرع القطن والكتان، أما آنفا فكانت تتوفر على الفواكه والحبوب الوافرة، وامتازت مراكش بغزارة زيوتها المستخرجة من المعاصر، أما سجلماسة، فقد كانت مصدرا عظيما للذهب المستورد من السودان. وقد أصبحت ناحية مكناس منذ العهد المريني كلها جنات مغروسة، وكانت المداشر تحيط بها من مختلف الجهات، حتى عد ابن غازي منها اثني عشر ألف مدشر، وهو عدد في منتهى المبالغة، ولكنه يدل على مدى عمران هذه الناحية يومئذ. وفي عهد يعقوب، استمر الرخاء خمس عشرة سنة متوالية، حتى أصبحت القطاني لا يوجد من يشتريها. ونشطت تجارة المغرب مع الخارج، حيث كان ميناء سبتة يجتذب سفن البندقية ومونتبليون وجنوة ومرسيليا وغيرها فتصدر إلى المغرب الملف والمنسوجات والسلاح والخمر والخردوات والثوب والكتان، وتشحن منه الصوف والقطن والزرابي والخيل والجلود والغنم والشمع.(1)

التجارة الداخلية في فاس :

حيث تركز النشاط التجاري الداخلي في الدولة المرينية على الأسواق التي أقيمت في المدن ، حيث تعددت الأسواق ما يعني وفرت النشاط التجاري ، فكلما تعددت الأسواق ازداد العرض و التبادل فيها وقد انقسمت الأسواق في المغرب الأقصى على أنواع :

أ) الأسواق المؤقتة :

وهي الأسواق التي تقام مرة في الأسبوع أو الشهر أو السنة ، وكانت هذه لفائدة أهل القرى البعيدة عن المدينة ، تقصد في أيام معلومة من أجل أن يأتي القرويون لبيع بضائعهم ، وقد عرفت أغلب مدن المغرب الأقصى هذه الأنواع من الأسواق ، كما أشار البكري إلى ذلك " على وادي درعة سوق في كل يوم من أيام الجمعة في مواضع مختلفة منه معلومة ، بما كان عليه في اليوم الواحد سوقان وذلك لبعد مسافته وكثرة الناس عليه و طول عمارته المتصلة سبعة أيام " ، ومن خلال ما أشار إليه أن وادي درعة تكثر فيه الأسواق المؤقته التي تقام يوم الجمعة ، كذلك في مدينة فاس يوجد بها باب يسمى باب سوق الأحد واحتمال هذه التسمية تعود أصلا إلى وجود سوق بهذا الاسم يقام يوم الأحد

---

(1) دعوة الحق مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية و بشؤون الثقافة والفكر أسست سنة 1957(العدد 86)

(2) بان علي البياني ، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (3-9/5-11)، مذكرة ماجستير في التاريخ ، جامعة بغداد 2004 ص94-96 .

ب) الأسواق الدائمة : هي الأسواق تقام داخل المدينة وتكون ثابتة ، فعند تشيد أي مدينة يبنى سوق كما يتم بناء الدور والمساجد و الحوانيت و هي أصناف :

أسواق المدن الكبرى : منها مدينة فاس التي عرفت أسواق متخصصة منها سوق الحائكين والكتان ، سوق النجارين ، سوق الحدادين ، سوق السلاح و المحاريت ، سوق الشماعين ، سوق العطارين ، سوق الكتابين وغالبا ماتكون هذه الأسواق حول المساجد حين جرت العادة في المغرب الأقصى كل صناعة بسوق وكل سوق بصناعة .

أسواق مؤقتة : فهي على الطريق التي تربط مدينة أو أكثر من مدن المغرب الأقصى ، وهي عادة أسواق الطرق و المراكز التجارية ، ففي طريق الذي يربط بين مدينة سبته وفاس في مدينة تسمى بجاحين سوق ، غير أن المصادر لم تذكر أنواع هذه الأسواق و تخصصاتها .

أسواق الحصون : كما نجد أن أسواقا في الحصون ففي حصن برارة ، نجد سوقا يقع في الطريق ما بين فاس وسجلماسة ، وفي الطريق بين أغمات(مدينة واقعة على بعد 24كلم على مراكش (1)

أسواق المدن الكبرى و القرى ذات الإنتاج الزراعي و الصناعي : الطريق بين فاس و أغمات يمر على سبتة بلد كبير يحسن فيه القطن وتوجد فيه سوق لطيفة ، نفس الطريق يمر على سوق فنكور ، سوق عامرة حافلة يعمل بها برانس سود ، لا ينفدها الماء ولهذا نجد أن الأسواق كانت متنوعة و كثيرة وهذا يعود إلى الازدهار التجاري .

التجار : يمكن تقسيم العاملين في التجارة إلى قسمين :

أ) التجار المغاربة : الذين اشتغلوا في التجارة سواء مسلمين أو غير مسلمين ، وكانوا أشخاص عاديون وأخرون ذوي ثقافة من العلماء و الفقهاء ، كما نجد منهم التجار محمد أبو عبد الله بن سعودن بن علي كان فقيها ، اشتغل بالتجارة وطاف بلاد المغرب و الأندلس حيث معظم التجار المغاربة كانوا أصحاب ثروات طائلة كما أشار إليهم الادريسي قائلا " وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله الأولاه في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جمالا "

ب) التجار غير المغاربة : كما سماهم ابن حوقل بغرباء ، حيث شكل التجار غير المغاربة جزء مهما و كبير من طبقة العاملين في النشاط التجاري ، فيهم القادمون من الأقاليم و الأمصار ، كما نجد قدوم عدد كبير من التجار من الأندلس إلى بلاد المغرب للقرب المسافة ، نجد منهم التجار نزار بن محمد بن عبد الله القيسي ، كما قدم التجار المشارقة إلى المغرب الأقصى ، فقد أشار إبن الفقيه إلى وجود التجار العراقيين لاسيما البصريين وكذلك اليمنيين ، وإقامتهم كانت طويلة .(2)

الفنادق : انتشرت الفنادق في إقليم المغرب الأقصى على وجه خاص وبشكل كبير ، وبسبب الازدهار التجاري فيه و أشارت المصادر إلى كلمة فندق بوجه الدقة ، ولكن المعلومات التي عثرت عليها في المصادر لا تبين لنا كيف كانت هذه الفنادق ، ومن القائم عليها وكان للفندق دور كبير في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية بالمغرب ، إن قدوم التجار من مختلف البلاد وبقائهم لفترات طويلة استدعى وجود عدد من الفنادق من أجل إيوائهم وبضاعتهم .

---

(1) الحسن الوزان مصدر سابق ، ص 135 ،

(2) بان علي محمد البياني، النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (3-9/5-11)، مذكرة ماجستير في التاريخ ، جامعة بغداد 2004، ص 110.

2) المكاييل و الموازين : استعمل المرينيون في حياتهم اليومية في بيعهم و شرائهم ، أنواع كثيرة من الموازين و المكاييل ، وكانت المكاييل أكثر استعمالا من الموازين فهم يلجئون إليها إلا عند الضرورة :

المكاييل : ومن هذه المكاييل المد (وهو رطلان أو رطل وثلث أو ملأ كف الإنسان المعتدل إذ ملأهما ومد يدهما الذي شاع استعماله في فاس ، و يعادل عند أهلها ما بين أوقية (وهي وحدة وزن متداولة في توزيع البضائع و الوزن الشرعي لها يسمى مدا) واستعملوا أيضا المدى ، وأطلقوا عله اللوح ، وفي هذا اللوح من المد المستعمل عند أهل فاس مائة وعشرون مدا ، كما قال البكري "مدينة فاس مدهم سبع من الطعام ثمانين أوقية و مدهم يسمونه اللوح وفيه من هذا المد مائة وعشرون مدا ، وجميع المأكولات من الزيت و العسل و اللبن ، والزبيب يباع عندهم بالأواقي " ان الرخاء العظيم بالمغرب ، لم يزل لمدة خمس وعشرون سنة دارهم للصفحة الواحدة من القمح ، وكانت الصفحة تساوي خمسة عشرا مدا في العصر المريني ، كما استخدموا كيل الوسق ، وكان كبار السلاطين بني مرين يستعملون عشرين ألف وسق و المعروف أن الوسق ستون صاعا بالصاع النبوي .

الموازين : استعملوا القنطار ، وكان مقداره هو مائة ورطل ، واستعملوا الرطل في أوزانهم كما يروي صاحب الذخيرة السنية أسعار بعض السلع ، وفي عهد السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق " كان العسل ثلاثة أرطال بدرهم ، والزيت أربعة أرطال بدرهم ، والسمن رطل ونصف بدرهم ، لحوم البقر مائة أوقية بدرهم ، والشاي الطري بقيراط وثلاث درهم ، كان في كل رطل من الأرطال المستخدمة في ذلك الوقت ، ست عشرة أوقية وفي الأوقية عندهم واحد و عشرون درهم . (1)

المطلب الثالث : الطرق التجارية : البحرية

الموانئ : سنذكر بعض المراسي والموانئ المرينية المطلة على ضفتي الحوض الغربي للبحر المتوسط، التي عرفت ازدهارا تجاريا، كطنجة وقصر مصمودة وسبتة وبادس والمزمة والكدية ومليلية والجزيرة الخضراء وطريف:

-طنجة: يبعد مرسى طنجة عن الأندلس بثلاثين ميلا ونحوها في بحر الزقاق، وكان لها نهر يساعد على دخول المراكب إلى مرساها للحط والإقلاع، وكان بها دار لإنشاء المراكب ، وهي مرفأ الأساطيل وبها تصنع الآلات البحرية والسفن، ويبدو أن مرسى طنجة لم يقم الدور التجاري نفسه الذي اشتهر به ميناء سبتة، فهل ذلك راجع لموقعه الذي يوجد في منطقة التقاء البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي؟ أم إلى :" رياحها [التي] لا تسكن إلا في الندور"(3)؟.

-القصر الصغير (قصر مصمودة): أسسه يعقوب المنصور الموحدي بين طنجة وسبتة، وهو يقابل ميناء طريف الأندلسي ولا يبعد عنه إلا بخمسة أميال . وكان الهدف من تأسيسه هو تسهيل عبور الجيوش إلى الأندلس خاصة وأنه كان يتوفر على مرسى جيد تنشأ فيه المراكب والحراريق وتجهز منه السفن الحربية لغزو العدو، وفي العهد المريني أضحى هذا الميناء مكان لانطلاق الجيوش المرينية إلى طريف والجزيرة الخضراء، انطلاقا منه كان الأسطول المريني يراقب بحر الزقاق الذي أضحى تحت هيمنتهم(4).

---

(1) رأفت محمد النبراوي ، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع هجري ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ص 221.

(2) صالح بن قربة ، انتشار المسكوكات المغربية و أثرها على التجارة الغرب المسيحي في القرن الوسطى ، منشورات كلية الأدب و العلوم الإنسانية ، الهلال للطباعة و النشر ، الرباط ، ط1 ، 1995، ص 190,197.

(3) ابن مرزوق محمد ، المسند الصحيح في مأثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة و تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1981، ص 398.

(4) نفس المصدر ، 398.

سبتة: يقع ميناء سبتة شرق قصر مصمودة ويقابل الجزيرة الخضراء ، والبحر يحيط به من كل الجهات إلا من الجهة الغربية حيث يلتقي باليابس على شريط ضيق ، وشكل أهم مركز تجاري ربط المغرب بدول الحوض الغربي للبحر المتوسط، ونقطة عبور للجهاد في الأندلس خلال المرحلة الوسيطية . كما سمح الشكل الطبوغرافي والرصيف القاري بأن يصبح ميناء سبتة أهم مركز لصيد السمك شمال المغرب خلال المرحلة نفسها (1) ، وأضحى القلب النابض للتجارة المرينية مع دول الحوض الغربي للبحر المتوسط، وعن المدينة يقول ابن الخطيب أنها:« محط قوافل العصير والحرير والكتان»، بل إن مينائها على حد تعبير أحد الباحثين أصبح له خلال المرحلة المرينية بعدا دوليا، إذ كانت تتوافد عليه السفن من كل دول البحر المتوسط: من الأندلس ومصر وميورقة وبرشلونة وبيزة وجنوة وإيطاليا ومرسيليا، فهو بذلك نقطة البداية والنهاية لكل الرحلات البحرية،(2) وعنه قال ابن فضل الله العمري :« وهي من فرض البحر العظيمة، لكثرة ما يرد عليها من مراكب المسلمين والنصارى ومن كل جهة، وجميع طرف الدنيا أو غالبها موجودة فيها». ويؤكد هذا الإقبال الكبير لتجار الحوض الغربي للبحر المتوسط ما كان يوفره ميناء سبتة من منتوجات قيمة ومتنوعة، فقد كان يزخر بمنتوجات الذهب والفضة والنحاس وغيره من المعادن في صناعات متقنة ، كما اشتهر بصناعة السفن ولوازمها وأنواع القسي المختلفة ، فضلا عن هذا كان يصدر أنواعا أخرى من منتوجات الصوف والكتان إلى جميع مناطق إفريقيا وأوربا ، وأمام هذا الرواج التجاري لهذا الميناء لم يعد الرقم الذي قدمه الأنصاري حول عدد الفنادق بسبتة يثير الشك حيث قال:« وعدد حسبما استفاض على ألسنة أهل البلد ثلاثمائة وستون فندقا». ونظرا لأهمية الميناء أنشأ السلطان أبو الحسن المريني مجموعة من المحارس والأبراج :« منها برج الماء الذي أنشأ داخل البحر [المتوسط] ووسط الأمواج ببحر بسول من ساحل سبتة»(3)

–بادس: يوجد مرسى بادس على الضفة الجنوبية من البحر المتوسط تحيط به جبال عالية ووعرة تنتج الخشب الصالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية ، ويتسع إلى ثلاثين مركبا صغيرا ، وإذا كان ابن الخطيب يذكر أن سكانه يشتغلون بالصيد ونحت الخشب الذي يقصد به صناعة الزوارق ، فإن كلا من الوزان ومارمول يشيران إلى أن المرسى كانت به صناعة السفن وتنطلق منه الغزوات البحرية على الأراضي المسيحية ، وهو الأمر الذي حدث خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، إبان ضعف الدولة المرينية وبحريتها .(4)

الكدية (غساسة): يقع ميناء الكدية أو غساسة غرب ميناء مليلية، وقد عرف في الوثائق والخرائط الأوربية للمرحلة الوسيطية باسم الكدية ، في حين يظن أحد الباحثين أن ميناء الكدية يقع بين مليلية وبادس، وجعل آخر غساسة والكدية مكانا واحدا، واستند في ذلك على الأركيولوجية الإسبانية التي تؤكد أن غساسة هي الكدية . ويعتبر ميناء الكدية إحدى منافذ فاس وتازة حيث كانت تبرم فيه الصفقات التجارية الهامة بين أهل فاس وتجار البندقية الذين كانت تحط سفنهم فيه . المزمة (الحسيمة): يقع مرسى المزمة شرق سبتة على البحر المتوسط و« توسق المراكب منه»، ويذكر مارمول أنه كان ميناء لعبور المحاربين إلى الأندلس مليلية: يقع ميناء مليلية على ساحل البحر المتوسط غرب مدينة سبتة، ويبعد عن الأندلس بنحو مائة ميل، ، كما كانوا يصدرون من مينائهم كميات هامة من الحديد والعسل(5)

---

(1) ابن الخطيب ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، مطبعة فضالة المحمدية ، المغرب ، 1976. ص 149.

(2) نفسه المصدر، ص 150.

(3) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق و تعليق مصطفى أبو ضيف أحمد ، د د ن ، ط1 ، 1988، 138.

(4) مارمول ، إفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و محمد زنيبر و محمد الأخضر و أحمد توفيق و أحمد بنجلون ، مطبع المعارف الجديدة ، المغرب 1989، ج2، ص 213.

(5) نفس المصدر ص 216.

المبحث الثالث : العلاقة الاقتصادية بين الدولة الزيانية و المرينية :

المطلب الأول : الصراع على سجلماسة أم على تجارة العبور :

سيطر المرينيون على إثر سقوط الدولة الموحدية سنة 668هـ / 1269م على مجال اقتصادي مهم، إلا أنهم لم يفرضوا هيمنتهم على المبادلات التجارية التي شكلت عضد الدولة المغربية خلال العصر الوسيط، ويعود سبب ذلك إلى عدم سيطرتهم على مدينتي سجلماسة وسبتة مفاتيح المبادلات التجارية(1).

تعتبر مدينة سجلماسة باب الصحراء إلى بلاد السودان وبلاد الذهب ، فهي محطة أساسية للقوافل الآتية من السودان والذاهبة إليها، فقد ظلت طيلة العصر الوسيط من أكبر المحطات التجارية على الطرق القافلية(2)، كما أنها وجدت على طول طريق تجاري ينطلق من السودان ويحط في سجلماسة، ومنها تتفرع إلى الطريق اتجاهين: الأول نحو فاس ومنها إلى سبتة والثاني إلى تلمسان(3)، ومنه إلى مرسى وهران ومرسى هنين أو إلى إفريقية.

ويبدو أن أهمية مدينة سجلماسة التجارية هي التي جعلت كل من بني مرين وبني عبد الواد يحرصون وبشدة على السيطرة عليها(4)، فسجلماسة كانت من أهم المدن خلال العصر المريني إلى جانب فاس وسبتة ومراكش، فقد بلغ خراجها على عهد السلطان أبي سعيد المريني مائة وخمسين ألف مثقال(5). ويذكر أحد الباحثين أن ظاهرة الصراع حول مدينة سجلماسة وحرص الدول على امتلاكها تأكدت أكثر فأكثر في عهد بني مرين، أي في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، حيث احتدم الصراع بين بني عبد الواد وبني مرين حولها(6).

كان إخضاع مدينة سجلماسة يمثل للمرينيين أمرا ضروريا على المستوى الاقتصادي، فالمدينة كانت توفر إمكانيات مهمة لتصريف السلع المغربية نحو السودان، وجلب المواد الأساسية التي كان الأوربيون يتكالبون عليها وهي العبيد والتبر(7).

وكان التجار المرينيون يحملون إلى السودان السلع النسيجية والأقمشة والجلود(8)، ويجلبون منها الذهب والصمغ وريش النعام والشب والعنبر والدرق وجلود الفنك والرقيق الأسود عبر مدينة سجلماسة، ثم تحمل هذه البضائع إلى فاس وسبتة التي تصدرها إلى أسواق الأندلس وإلى أوربا(9)، كما أن التجارة مع السودان شكلت أهم المصادر التي اعتمدت عليها دولة بني زيان، وفي هذا الصدد يتحدث أبو حمو عن ذهب السودان قائلا :« لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع»(10)،

---

(1) ابن الفضل الله العمري ، مسالك ، مصدر سابق ، ص 135.

(2) بشاري لطيفة ، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من ق 7 إلى ق 10، رسالة مرقونة ، جامعة الجزائر 1987، ص 101.

(3) البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، مطبعة دوسلان ، الجزائر ، ط2، 1911، ص70.

(4) الإدريسي ، نزهة ، مصدر سابق ، ج1، ص 134.

(5) نفس المصدر ، ص 135.

(6) البكري، كتاب المغرب ، كتاب المسالك و الممالك ، ص 81

(7) الإدريسي ، نزهة ، مصدر سابق ، ج1 ، 251.

(8) نفسه ، ج1 ، ص 252.

(9) البكري ، كتاب المغرب ، مصدر السابق ، ص 66.

(10) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم الغرقسوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ط7، 1413، ص 135.

وتشير المصادر إلى تجارة الملح الذي كان منعدما في بلاد السودان، وكان لابد من جلبه من الشمال ليبدله التجار بالذهب، حتى أن « المسافر في هذه البلاد لا يحمل زادا ولا أداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج....فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بإنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز..... فيشتري منهن ما أحب»(1)

كان الصراع سببه تجارة العبور التي كانت مطلوبة في الحوض الغربي للبحر المتوسط(2)، وكانت سجلماسة محطة تجارية تمر بها هذه التجارة، وهو ما يفسر إصرار المرينيين على فتحها سنة 673هـ / 1274م ، وظلت تابعة لحكمهم رغم أن ابن السلطان المريني أبا سعيد جعل أمرها لابنه علي، ولكن عندما بدأ يصل يده ببني عبد الواد تدخل أبو الحسن وقضى على أخيه، وأصبحت المدينة تحت نفوذه الفعلي سنة 733هـ / 1333م (3). ويبدو أن التدخل المريني في تلمسان وإخضاعها سواء من طرف أبي الحسن سنة 737هـ / 1337م ، أو من طرف ابنه أبي عنان سنة 753هـ / 1353م(4)، يندرج في إطار إخضاع تجارة العبور ومسالكها لنفوذهم(5)، فالقوافل التجارية ووفود الحجيج كانت تتعرض للنهب والاعتداء، ولعل ذلك ما جعل ابن الخطيب يشبه فتح تلمسان بفتح باب الحج « فتح تلمسان الذي قلد المنابر عقود الابتهاج....فتح باب الحج وكان مسدودا»(6). وحتى تضمن الدولة المرينية استمرار تجارتها الداخلية والخارجية عملت على تأمين طرق الموصلات بين مدن دولتها، فاستحدثت تنظيمات جديدة على طول الطريق سميت بالرتب: وهي عبارة عن خيام تقام على مسافات متساوية يقطنها أهل المنطقة التي أقيمت فيها، وكانت هذه الخيام مزودة بكل ما يحتاجه المسافر من طعام وعلف لبهيمته(7)، كما أن أهل المنطقة ملزمون بحراسة المسافرين وبضائعهم، بالإضافة إلى ذلك أنشأت الدولة فرقا عرفت باسم الغرباء، كان عملها حراسة الطرق والسهر على أمن وسلامة المسافرين، كما كانوا عيونا وجواسيس يبلغون الدولة بأي خطر يهددها(8).

---

(1) البكري ، كتاب المغرب ، مصدر سابق ، ص 66.

(2) القلقشندي أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، مطبع كوستاتسوماس و شركائه القاهرة ، مصر د ت ج5 ص 109

(3) الإدريسي ، نزهة ، مصدر سابق ، ج1 ، ص 260.

(4) ابن فضل الله العمري ، مسالك ، مصدر سابق ، ص 87.

(5) الأدريسي ، نزهة ، مصدر سابق ، ج1 ، ص 44 .

(6) البكري ، كتاب المغرب ، مصدر سابق ، ص 37.

(7) ابن الخطيب ، معيار ،ة مصدر سابق ، ص 222.

(8) العبادي أحمد المختار و سالم السيد عبد العزيز ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر و الشام ، دار الأحد البحري إخوان ، بيروت ، لبنان ، 1972، ص 268

المطلب الثاني : المبادلات التجارية بين الدولتين :

لم تمنع العلاقات العدائية بين المرينيين والزيانيين التجار من القيام ببعض العمليات التجارية بين البلدين، فأمام الاضطرابات التي كانت تشهدها الطرق البرية بين فاس وتلمسان، نشطت التجارية البحرية حيث نجد تاجرا من بادس حمل قاربا بالأخشاب وتوجه به إلى هنين(1)، وكان ضمن إحسانات وعطايا أبا الحسن ثياب صنعت في تلمسان ، كما كانت السفن المحملة بالتوابل والحرير تمر بكل من الجزائر ووهران وحنين وتتزود بسلع هذه المدن ثم تحط بالكدية وسبتة، (2) وفي إطار التبادل التجاري لابد أنها كانت تزود المدن المغربية بالسلع التلمسانية والعكس صحيح كذلك. كما كان التعامل شائعا لدى تجار وعامة الناس في تلمسان بالنقود المرينية(3).

كذلك كان للاستقرار السّياسي الذي شهده المغرب الأوسط في العصر الزيّاني أثره في ازدهار حركة التّجارة وتنشيطها حيث شهدت أسواقه نشاطا متميّزا في البيع والشّراء، وذلك بتشجيع كبار التّجار وصغارهم على المشاركة في إقامة الأسواق الأسبوعيّة وتفعّيلها في البوادي والمدن (4)

وتذكر كتب الجغرافيا والرّحلات ، عددًا من الموانئ التّي قامت بدور فاعل في الحركة التّجارية، ومن هذه الموانئ ميناء تنّس فهو من أكبر الموانئ التي يتعدى إليها الأندلسيّون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم (5) .

أمّا المرسى الكبير الذي لا يبعد عن وهران سوى بضعة أميال، فهو من أشهر موانئ المغرب الأوسط، ترسو فيه بسهولة مئات الم ا ركب والسّفن المحمّلة بالبضائع والقادمة من أروبا (6)

---

(1) الحسن الوزان ، وصف ... ، مصدر سابق ، ج1، ص 33.

(2) البكري ،كتاب المغرب ...، مصدر سابق ، ص 81.

(3) نفسه ، ص 90 .

(4) فيلالي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، إجتماعية، ثقافية) ، فوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م. ص 189.

(5) إبن حوقل أبو القاسم محمد النصيبي (367 هـ / 977 م)، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.

(6) الوزّان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، 1983م.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع

المصادر :

1. ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ، الرباط ، 1972
2. ابن مرزوق أبو عبد الله محمد الخطيب ، المسند الصحيح الحسن في مأثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق ماريا خيسوس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1918،
3. لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق عبد الله عنان، دار المعرفة للنشر والتوزيع ، ج3 ، القاهرة ، مصر ، 1980
4. يحي ابن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ج1 ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر 1980،
5. عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968
6. ابن خلدون عبد الرحمن ، التعريف بابن خلدون رحلته شرقا و غربا ، تحقيق و تعليق محمد بن تاوية الطنجي ، نشر لجنة التأليف و النشر ، القاهرة ، 1951
7. عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبد وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج7 ، دار العلم بيروت ، 1968.
8. عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج6
9. عبد الله التنسي ، نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود أغا بوعياد ، موفم للنشر . الجزائر 2011
10. ابن الأحمر ، روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، مطبوعات القصر الملكي ، الرباط 1962،
11. عبد الحميد حاجيات ، أبي حمو موسى الزياني (حياته و أثاره) ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982،
12. المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، ج6 تحقيق إحساس عباس ،دار صادر بيروت 1968،
13. عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني ، حياته وأثره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 1982
14. عبد الحميد حاجيات وآخرون ، الجزائر في التاريخ ، ج3 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ن 1984

15. مؤلف مجهول ، زهرة البستان في دولة بني زيان ، تحقيق و تقديم بوزياني الدراجي ، ج2 ، مؤسسة بوزياني للنشر ، الجزائر ،2013
16. أبي حمو موسى الثاني ، وسائط السلوك في سياية الملوك
17. ابن الحاج النميري ، فيض العباد ، وإفاضة قداح الأدب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب ، دراسة و إعداد محمد بن شقرون ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990.
18. الإدريسي ، المغرب العربي من نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، محمد حاج الصادق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983
19. الإدريسي، القارة الافريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق اسماعيل العربين ط 3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م،
20. ابن عذارى ، أبو العباس أحمد المراكشي ، كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ، دار المغرب الاسلامي ، بيروت، ج3 ،
21. الزراكشي محمد بن إبراهيم ، تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية ، تحقيق محمد ماصور ، الكتبة العتيقة ، تونس ، 1966
22. القلصادي ، رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع، 1978،
23. الحسن الوزان ، وصف ‘إفريقيا ، جزءان .الطبعة الثانية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ، ج2 ،
24. ابن مرزوق ، السند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن ، تحقيق مريا خيسوس ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر ، 1918
25. الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب ، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ج5 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1981
26. ابن الخطيب ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد و الديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، مطبعة فضالة المحمدية ، المغرب ، 1976
27. ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، نشره محمد بن أبي شنب وقدم له عبد الرحمن طالب ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986،
28. مارمول ، إفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و محمد زنيبر و محمد الأخضر و أحمد توفيق و أحمد بنجلون ، مطبع المعارف الجديدة ، المغرب 1989، ج2
29. مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق،1976
30. ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت،1996
31. التنبكتي أحمد بابا، نيل الأبتهاج بتطريز الديباج ، على هامش ديباج ابن فرحون ، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية ، ج1 ، 2004
32. عبد الحميد حاجيات :تطور العلاقات بين تلمسان وغرناطة في العصر الوسيط، مجلة :عصور جديدة، العدد، كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران،2011

33. مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ج1 ، تحقيق لويس مولينا، منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1983

34. القلقشندي أبو العباس أحمد ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، مطبع كوستاتسوماس و شركائه القاهرة ، مصر د ت ج5

35. أبي العباس احمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر لسان وزيرها لسان الدين ين الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، نشر بدار صادر ، بيروت ، 1967

36. السلاوي ، أحمد أبو العباس الناصري ، كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955، ج3

37. السخاوي ، أحمد أبو العباس الناصري ، كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1955، ج5

38. ابن مرزوق الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، دار الثقافة للنشر ، الجزائر ، ج3

39. أبي الحسن علي الجزنائي ، زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، نشر بدار الملكية ، الرباط ، 1982

المراجع

1. محمد مكيوي ، الأوضاع السياسية و الثقافية للدولة العبد الوادية منذ قيامه حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول (633-737)هـ / (1236-1337)م ، رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية تلمسان ، 2000، 2001.

2. المهدي البوعبدلي ، أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر العصور ونبذة مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها محمد المنوني الشيخ إبراهيم التازي نموذج بارز للتبادل الثقافي بين المغربين 1519 م مجلة الثقافة

3. محمد عمرو الطمار ، تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة و حضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984

4. العزيز فيلالي ، تلمسان في العهد الزياني ، ج1 ، موفم للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 2002،

5. أبو قاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري ،ج1 ، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر،

6. مفدي زكرياء ، النشاط العقلي و التقدم الحضاري بالجزائر في عهد الزيانيين ، مجلة الأصالة ، عدد 26، 1975

7. أبن أبي شنب ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، مطبعة كلية الشريعة للنشر . القاهرة ، 1961

8. أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ب ت

9. محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي و الأندلس في العصر المريني ، ط2، دار القلم للنشر و التوزيع . الكويت ، 1987

10. رشيد بوروبة ، الكتابات الأثرية في المساجد الجزائرية ترجمة شبوح إبراهيم ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1979

11. محمد منير موسى : التربية الإسلامية أصولها وتطورها فب البلاد العربية ، القاهرة ، 1983،

12.عبد العزيز لعرج ، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية ، رسالة دكتوراه دولة ، قسم الأثار ، جامعة الجزائر 1998-1999
13. حسين مؤنس، تاريخ المغرب و حضارته ، المجلد الثاني ، ج2، ط1، دار لعصر الحديث ، بيروت
14. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام ، ج2، مكتبة الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1965.
15. مجلة الأصالة : عدد 26 ، سنة 04 جويلية ، أوت 1975 مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر
16.محمود بو عياد ، جوانب الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع هجري (15م) ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1982 ،.
17.محمد بن رمضان شاوش ، باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995
18.رشيد بورويبة و أخرون ، الحياة الفنية في عهد الزيانيين و المرنيين ، الجزائر في التاريخ ، ج3،
19.أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج1 ، دار الثقافة ، الجزائر ، 1991
20. الغبريني ، عنوان الدرية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر ، 1981،
21.عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، ج2 ، ديوان المطبوعا الجامعية ، الجزائر ، 1982
22.عبد القادر زمامة ، الحقائق و الرقائق ، مجلة دعوة الحق ، عدد (8-9)، صفر 1386هـ ،
23. الأجفان محمد الهادي ، الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا تونس ، 1988
24.عبد العزيز سالم ، التاريخ و المؤرخون العرب ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر ، مصر ، 1967،
25. محمد الزحيلي ، مجمع العلوم الإسلامية ، ط2 ، دار المعرفة ، دمشق ، ط2، 1992،
26.علي علواش : معجم مشاهير المغاربة ، تنسيق أبو عمران الشيخ ، تقرير ناصر الدين لعبدوني ، إعداد فرقة البحث العلمي ، جامعة الجزائر 1995
27.صالح بن قربة ، المئذنة المغربية والأندلسية في العصور الوسطى ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986
28.ابن سحنون الراشدي ، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني ، تحقيق المهدي البوعبدلي ، قسنطينة ، 1973،
29. موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 ،
30.بن عميرة لطيفة، الاوضاع الاقتصادية في الإمارة الزيانية، مجلة الدراسات التاريخية، العدد8 ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،1994 .
31.ابن سعيد أبي الحسن المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ط 02 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982
32.مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، الاحوال الاقتصادية والثقافية، ج2 ، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009.
33.خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن :دراسة تاريخية وحضارية 633 (هـ 689 /هـ -
34. 1235 .م 1282 /م)، ط1 ، المكتبة الوطنية، الجزائر،2005
35.سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال، منشأة المعارف،
36.المقديسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق :محمد محزوم، دار إحياء التراث، بيروت، 1987 م

37.جودت عبد الكريم يوسف، الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الاوسط، خلال القرنين الثالث والرابع هجريين، 09 (م 10 /م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1982
38.عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان خلال الثلثين الاول والثاني من القرن 14ميلادي، منشورات تالة ، الجزائر،2011
39.القادري بوتشيش، إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت،2002
40.أمين توفيق الطيبي، دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ج2 ، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1997
41.سعيدي العربي، تنظيم الأسواق والحرف في بلاد المغرب الاوسط خلال العهد الزياني من القرن 13 م إلى القرن 16 م، المجلة :المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد 3 منشورات مخبر الجزائر سيدي بلعباس .جوان2011
42.أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، التشوق إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق :أحمد .توفيق، ط 2، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء،1997
43.هاشم العلوي، مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف ق.4.هـ ومنتصف ق.10 هـ، ج1 ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، الرباط 1995
44.ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري، لسان العرب، تصحيح :أمين محمد ، عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ج 10 ، دار احياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي
45.مجد الدين محمد بن يعقوب محمد بن براهيم الفيروزابادي الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، ج3 ، دار المكتبة العلمية، بيروت 1999.
46.عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت،(د.ت)،
47.الاصطخري أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي، المسالك والممالك، مطبعة بريل،(د.م)، 1997
48.المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق :محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1 مطبعة الاستقامة، القاهرة،
49.يوسف عبد الكريم جودة، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتب، الجزائر،1984
50.مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر القديم والحديث،ج2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص442
51.اسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب،(د.م)،1984
52.مولاي بلحميسي، الجزائر خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2 ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، 1981
53.بشير مقيبس، مدينة وهران، دراسة في جغرافية العمران، المؤسسة الوطنية للكتاب،1983
54.عبد القادر فكار، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وأثاره 910 (هـ 1206 /هـ 1505 – م 1792 /م)، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2012
55.مختار حساني، الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية، ج 03 ، دار الهدى، الجزائر،2011
56. هالة عبد الرزاق ، أسواق فاس في العصر المريني ، مكتبة الثقافة الدينية للنشر ، 2013

57. محمد السلامي ، تاريخ المغرب تحيين وتركيب ، الرباط ، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب ، ج2 ،2012

58. حسين مراد ، فلاحو فاس في العصر الموحدين ، مركز البحوث و الدراسات التاريخية ، كلية الأدب ، جامعة القاهرة ، مصر

59. ابن رزين التجيبي تحقيق محمد بن شقرون ، فضالة الخوان في طيبات الطعام و الألوان ، الرباط ، 1977،

60. رأفت محمد النبراوي ، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع هجري ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة

61. صالح بن قربة ، انتشار المسكوكات المغربية و أثرها على التجارة الغرب المسيحي في القرن الوسطى ، منشورات كلية الأدب و العلوم الإنسانية ، الهلال للطباعة و النشر ، الرباط ، ط1 ، 1995

62. البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب ، مطبعة دوسلان ، الجزائر ، ط2، 1911

63. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم الغرقسوني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ط7، 1413،

64. أحمد المختار و سالم السيد عبد العزيز ، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر و الشام ، دار الأحد البحري إخوان ، بيروت ، لبنان ، 1972

رسائل ماجستير و محاضرات جامعية

1. إبراهيم بلحسن ، العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط و الأدنى ، من القرن 7 إلى القرن 9هـ/ 13م إلى 15م ، رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية ، تلمسان 2004/ 2005.

2. الأخضر عبدلي ، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان (633-962) هـ (1236-1554) م رسالة دكتوراه دولة قسم التاريخ تلمسان ، 2005/2004

3. العربي لقريز ، مدارس السلطان أبي الحسن (مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا ، دراسة أثرية و فنية) رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية تلمسان ، 2000-2001،

4. عاشور بوشامة، علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس 626 (هـ 981 /هـ 1228 .) - م 1573 / م)، رسالة ماجيستر (غير منشورة)، القاهرة، 1411 هـ 1991 /م.

5. خيرة بلعربي، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي 2010) ، ص 91 5 /هـ 10 /هـ 11 - م 16 /م)، ماجستير (غير منشورة)، جامعة تلمسان، قسم التاريخ، 2009

6. لطيفة بشاري، التجارة الخارجية لتلمسان في العهد الإمارة الزيانية في القرن السابع إلى القرن العاشر

7. .الهجريين، رسالة ماجيستر (:غير منشورة)، جامعة الجزائر، 1987 م

8. بشاري لطيفة ، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من ق 7 إلى ق 10، رسالة مرقونة ، جامعة الجزائر 1987،

9. حبيب الجنعاني، التجارة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثالث هجري واثرها في التجارة العالمية، في محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي بعنابة، المجلد الثاني، منشورات وزارة الشؤون الدينية،الجزائر،1976

الكتب المترجمة

1. بيل ألفريد ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1987،
2. شارل أندري ، جوليان ، تاريخ إفريقيا ، ج2 ، ترجمة محمد مزالي وبشري سلامة ، الدار التونسية للنشر الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1969
3. شارل لأندري جوليان ، تاريخ إفريقية الشمالية ، ج2، دار الكتاب اللبناني ، 1973
4. وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغربية ، الفن المعماري في المساجد المغربية حسب العصور ، على موقع الشبكة
5. http : //www.habous. gov .ma.p1
6. مارسيه جورج، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة عبد الصمد هيكل،
7. .منشأة المعاني .الاسكندرية،(د.ت)،
8. روبار برونشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي، ترجمة :حمادي الساحلي، ط1 ، ج2 ، دار الغرب .الإسلامي، بيروت(لبنان)،1988

مجلات

1. مجلة الأصالة، السنة الرابعة العدد 26 ، جويلية – أوت ، 1975
2. مجلة دعوة الحق ، العدد 293و السنة 33، 1992.
3. عطاء الله دهينة : مساعدة الزيانيين لمسليمي الأندلس ، مجلة تاريخ وحضارة المغرب ، العدد 13 جانفي 1976
4. دعوة الحق مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية و بشؤون الثقافة والفكر أسست سنة 1957(العدد 86)
5. رشيد الزواوي : التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي ، مجلة الحضارة الإسلامية ، العدد 1 ، 1993
6. http://www. ; isesco. Org. Ma/ pub/ arabic / fikr . page39. htm

الخاتمة

إن المتتبع للمسار التاريخي للعلاقة الزيانية المرينية يلاحظ أنها كانت بين مد وجزر ، تارة تجمعها حروب وصراعات وتارة أخرى صلح ومهادنة ، وقد أعتمد الطرفان في ذلك على عدة عوامل ، مستغلين ظروف بعضيهما السياسية و الإقتصادية و الإجنماعية ، ولعل ما خلصنا إليه من خلال تتبعنا لهذه العلاقات مايلي : لاشك و أن الضغائن و الصراعات بين بني مرين و بني عبد الواد قديمة جدا ناشئة عن الجوار في الموطن ثم في الملك ، و المنافسة في الاستقلال برئاسة زناتة فكثرت الحروب بينهما واستمرت سنسن طويلة ، كان التفوق فيها غالبا لبني مرين لأن ملكهم كان أعظم ، ثم أن دولة بني مرين الناشئة لم ترض بمجاورة قبيل بني عبد الواد المنافس ، وذلك لتأكدها من المكانة التي يتبوأها هذا القبيل في ميدان السياسة و الحرب في المغرب الأوسط ، فنشأت بذلك عداوة بين القبيلين كان مبعثها المنافسة على رئاسة زناتة و التطلع إلى السلطان على المغرب الإسلامي بأكمله باعتبار أحقية كل قبيل فيميراث الموحدين .

ومنذ البداية الأولى حتى عصر أبي حمو موسى الثاني لم تكن حدود الدولتين مستقرة وثابتة ، بل كانت تتبدل و تتغير ، بحيث تتقلص حينا وتتسع أحيانا أخرى لما كانت الجيوش المرينية قوية ورغبة سلاطينها الكبيرة في القضاء على أبي حمو والتوسع على حساب تلمسان وأقاليمها وبذلك لم يسلم أبي حمو من الهجمات المتكررة على أرضه من طرف المرينين في كل مرة متذرعين بأمر ما . وكانت الصحراء و هي المنطقة النائية في الجنوب المقر الهام الذي يلجأ إليه أبي حمو موسى الثاني عندما تحتل أرضه ، كذلك لايمكن إغفال الدور الفعال الذي لعبته القبائل البربرية و العربية في تزكية هذا الصراع ، والتي كانت تتحالف مع بني مرين تارة ومع بني زيان تارة أخرى ، حسب ما تقتضيه مصالحها ، إذ صارت محل إغراء و استرضاء سلاطين الدولتين ، حتى أصبحت عصبا هاما يحرك سياسة هؤلاء السلاطين ، بعد أن اعتمد بعضهم اعتمادا كليا على هذه القبائل للحفاظ على ملكه ، وأنتشرت ظاهرة الإقطاع ومنح الأراضي انتشارا كبيرا في عهد بني عبد الواد خاصة في مرحلة ضعفهم ، أما في ما يتعلق بالتاريخ الثقافي للدولتين فهو أمتداد للإزدهار الفكري و الحركة الثقافية و العلمية التي كانت سائدة في العهد المرابطي و الموحدي ، حيث عرف عهد أبي حمو موسى الثاني حركة فكرية دؤوبة ، إذ نشط العديد من العلماء وفي مختلف العلوم النقلية والعقلية خاصتا فيما يتعلق بالغوم الدينية و الفقه ، وازدهرت العلوم وتنوعت وشملت مختلف المجالات ، ونبغ العديد من العلماء الذين أثروا الحياة الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي عامة حتى بلغ صيتهم بلاد المشرق و الأندلس ، حتى كان السلطان أبي حمو عالما بدوره أديبا و كانت له مؤلفات باقيت إلى يومنا هاذا وكان شاعرا له من القصائد ماله في كتابه وسائط السلوك في سياسة الملوك ، وانتشرت بذلك بين الدولتين الحواظر الإسلامية و العلمية والثقافية في تلمسان وفاس ومكناس ومراكش وتنس .... مما ساعد في بعض المرات من تحسن العلاقات بين الدولتين ، كذلك كان للجانب الإقتصادي الدور الكبير في تحسين العلاقات بين الدولتين في عهد أبي حمو موسى الثاني ، إن ند كثير من المبادلات في السلع بين الطرفين ونجد حركة تجارية تغذيها المبادلات في السله و المحاصيل الزراعية وكذا الصناعات و الحرف وما ساعد على ذلك توفر طرق تجارية برية وبحرية بين البلدين مما عمل على تحريك العجلة التنموية وبذلك أيحت تلمسان وفاس ومراكش وهنين ووهران ووجدة مراكز تجارية كبيرة حتى صار تجار السودان والأندلس يأتونها ويستثمرونا فيها الأمر الذي عاد بالإيجاب على الطرفين